كلمة العدد

بقلم سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

نحو موسوعة كبيرة لتاريخ الخليج

بدأت ومنذ أكثر من عشر سنوات حركة نشطة في كل دول الخليج للاهتمام بالتاريخ والتأريخ على السواء . وقد أسست في هذا الاتجاه وبدعم من الحكومات الكثير من المراكز التي جعلت همها الأول جمع أكبر عدد من الوثائق من كل مكان ومن خلال مراكز الوثائق التي انتشرت على الساحة وفي اطار الجهود التي بذلتها . صدر عدد من المجلات المتخصصة التي أسهمت بدور كبير في عرض هذه الوثائق وفي تنشيط حركة الكتابة التاريخية ، وفي خوض الكثير من المناطق المجهولة في تاريخ المنطقة القديم والحديث على السواء . وقد اختطت هذه المجلات لنفسها دربا واضحا بدأت رحلتها فيه متعاونة ومتآزرة . وقطعت فيه شوطا لا بأس به . إذ استطاعت أن تكتسب عددا كبيرا من المؤرخين العرب والأجانب . أعادوا عرض الأوراق وتحليلها ومعالجتها وطرح آراء جديدة ووجهات نظر جديدة وتحليلات جديدة لمعظم ما دار على الساحة من أحداث . وكان هذا العمل الكبير تحركا طيبا في اتجاهين . إتجاه يقدم المادة الخام للباحثين المحترفين والجدد ليقوموا بدورهم بمعالجتها واعداد أبحاث عنها وتزويد هذه المجلات بها في الاتجاه الثاني . ولكن بعد هذه السنين الطويلة في العمل والاجتهاد والبحث والطرح نعتقد أنه آن الأوان للانتقال الى المرحلة الرئيسية والهدف

الكبير الذي بدأ هذا الجهد أصلا من أجله . وهو في اعتقادنا إعداد أو الاعداد لموسوعة تاريخ الخليج لتكون مرجعا أساسيا ورئيسيا لتاريخ المنطقة يحتل مكان الصدارة والأولوية أمام الباحثين في تاريخ المنطقة وربما كان الدافع الرئيسي وراء ذلك هو أن المراجع «العمدة» في هذا الصدد كانت وما زالت موسوعة لوريمر ومجمل الوثائق البريطانية .
وعلى الرغم من الفائدة التي قدمها هذان المصدران إلا أنهما سيظلان دون جدال مصدرين تحوطهما بعض التحفظات فقد أعدا بأقلام من خارج المنطقة وانطلقا في كثير من الأحيان من رؤية مختلفة ووجهات نظر حاصرتها في وقت أو آخر بعض الظروف التي لا يستطيع إنسان مهما حسنت نيته أن يقول انها أتاحت أو تتيح لهما الحيدة الكاملة والمتوقعة من مصدر رئيسي لمثل هذا الموضوع الهام .
والمشروع المطروح في اعتقادنا يجب أن يكون جهدا خليجيا مشتركا يبدأ وينمو تحت عباءة مجلس التعاون الخليجي عن طريق تشكيل لجنة تنبثق عن الأمانة العامة يضم اليها عدد من المؤرخين والمهتمين وذوي المقدرة على العطاء في هذا السبيل تتولى هذه اللجنة وضع الاطار العام للموسوعة ثم تتولى تشكيل لجان أخرى فرعية لجنة في كل دولة من دول الخليج . وفي تصوري أن الاطار المطروح يمكن أن يبدأ من بداية الحضارة السومرية وهي البداية التي يتخذها معظم علماء الحضارة نقطة الانطلاق لكتاباتهم حول تاريخ العالم القديم . وأن يخصص القسم الأول من الموسوعة لتاريخ الخليج بدءا من حضارة سومر وحتى ظهور الاسلام ويخصص القسم الثاني لتاريخ الخليج خلال الدولة الاسلامية بدءا من عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وحتى تصفية الخلافة العثمانية ويخصص القسم الثالث لتاريخ الخليج في العصور الحديثة ويبدأ من بداية تشكل الوحدات السياسية ونشأة الدول في الخليج مستعرضا للهجمات الخارجية بدءا بالهجوم البرتغالي وصراعات الدول الأجنبية ويبدأ القسم الرابع في عرض تاريخ دول الخليج بعد الاستقلال حاشدا لمعالم النهضة الحديثة ولمجمل المعطيات في كل المجالات وهو القسم الذي سيظل مفتوحا لتضيف اليه الأجيال القادمة ما يتحقق على الساحة من انجازات وما يطرأ عليها من تطورات على أن يقسم كل قسم من هذه الأقسام الى مراحل وفترات يخصص لكل منها جزء أو أكثر حسب أهمية وحجم الأحداث فيه وتوزع

هذه الموضوعات على الأجهزة العلمية والجامعات في كل دولة من دول الخليج من خلال اللجنة الفرعية في كل منها على أن تتجمع الأبحاث لدى اللجنة الرئيسية التي تباشر في طباعتها بعد مراجعتها على أيدي متخصصين .

ذلك هو في تصوري الاطار العام للاقتراح المطروح وهو أمر ليس مستحيلا وليس صعبا فالجهود التي بذلت في هذا الصدد كثيرة ولكنها مشتتة والاقتراح يؤدي الى تنظيمها وترتيبها ووضعها بين دفتي كتاب كبير يكون مرجعا رئيسيا ومعتمدا أمام أجيال الباحثين ويكون سجلا محايدا ومعتمدا لتاريخ المنطقة يطمئن اليه الباحث ويثق فيه الدارس ويرجع اليه كل كاتب في تاريخ المنطقة .

عبدالله بن خالد آل خليفة

التفكير الحضاري

في ضوء إشكالية العلاقة بين

قدمت في الجزء الأول من هذه الدراسة الى الموضوع بمقدمة مسهبة أوضحت من خلالها حقيقة العلاقة الاشكالية التي تحكم طرفي الثنائية : المثال والواقع ، باعتبارها اشكالية أساسية في تجربة الانسان العربي والشرقي بوجه عام ، ومنها استمد الانسان في هذه المنطقة الخليجية نظرته الاشكالية للوجود . ولانها اشكالية ثنائية أساسية وشمولية فقد كانت الجذر المولد لعدد غير متناه من الاشكاليات الثنائية التي تعكس بدورها طبيعة الاشكال بين الواقع والمثال .

وقد تركز الجزء الأول ، بعد هذه المقدمة ، على تبيان صورة المثال باعتبارها مجموع القيم العليا والخصائص النفسية والفكرية والجمالية والسلوكية المستقرة والثابته نوعاً ما نظراً لترسبها في قاع تجربة الانسان وذاكرته الأولى في منطقة بلاد الرافدين القديمة التي امتد أثرها الى حضارة دلمون . وكانت ملحمة جلجامش الشهيرة تمثل واحدة من أبرز التجليات الحضارية التي التقى في حضنها الفلسفي والجمالي طرفا تينك

في البحرين

المثال والواقع

٢

بقلم الدكتور علوي الهاشمي

الحضارتين العريقتين منذ فجر تاريخهما المشترك وبرزت من خلالها صورة المثال وعلاقته الاشكالية بصورة الواقع على أحسن وجه وفي أجمل صورة . وقد اختزنت الذاكرة الاسطورية لدلمون القديمة هذه الصورة في فكرة الخلود التي كانت البحرين أو دلمون في واقعها وصفاتها صورة مختزلة لها باعتبارها «أرض الخلود» .

وفي هذا الجزء الثاني والأخير من الدراسة أتناول صورة الواقع باعتباره الوجه الآخر للمثال والمتجادل معه عبر علاقة اشكالية متفاعلة تجعل من الطرفين حالة وجودية مشتركة اقتضت منهجية البحث وحدها وضرورات النشر هذا الفصل التعسفي بينهما . كما كانت الرغبة في الاختصار ، وراء تلك العملية الانتقائية لبعض عناصر الواقع بهدف فحصها وتوظيفها لخدمة أهداف البحث ، بالقدر الذي يكشف عن بقية العناصر الأخرى في سياقها العام ، راجياً ان تتاح فرصة أخرى لتناول هذه العناصر أو بعضها في بحوث ودراسات قادمة .

«المؤلف» .

ثانياً: إشكاليّة الواقع

حين نقول « الواقع » نعني بذلك وجهي العملة معاً : الجغرافيا والتاريخ ، أو المكان والزمان . والاشتقاق اللغوي الذي تتقلب فيه لفظة « الواقع » أوضح دليل على اتصال ذينك الوجهين واشتقاق الواحد من صلب الآخر في عملية تحويلية لا تكاد تنتهي . فالواقع اسم فاعل مشتق من الفعل (وقع) بمعنى حدث فهو حادث (أي تاريخ أو زمان) لكل واقع أو واقعة تقع فيه (أي موقع) وطريقة تقع بها فيكون لها بذلك (ايقاع) ، وانتظار وقوع حدث ما في مكان ما هو عملية (توقع) .

ويمكن متابعة هذه السلسلة التحويلية الاشتقاقية اللغوية المتصلة بمفردة (الواقع)[٨١] لنجد أنها أشبه برمي قطعة نقود في الفضاء أو تقليبها في اليد على وجهيها دون توقف ، بحيث نلتقي دائماً بالجغرافيا أو السكون أو المكان أو الاسم على وجه ، وبالتاريخ أو الزمان أو الفعل أو الحركة على الوجه الآخر ، وإن كان الوجه الواحد منهما يتخذ له في كل مرة طوراً جديداً مرتبطاً بعملية التقليب والاشتقاق والتحويل نفسها ، وهي في حقيقتها عملية تنظيمية (ايقاعية) لعلاقة كل من الوجهين بالآخر ، لذلك فهي (العملية التنظيمية الايقاعية) منتزعة منهما متزاوجين . فكل الاشتقاقات اللغوية لمفردة (الواقع) هي نتاج لتزاوج الاسم بالفعل اللذين اختلف اللغويون في أولوية أحدهما على الآخر في اطار اللغة العربية .

وهو تزاوج يعكس ترابط سلسلة طرفي الثنائية (الواقعية) ذات الطابع الاشكالي حتماً : الزمان ، التاريخ ، الفعل ، الحركة ، الانسان (مقابل) المكان ، الجغرافيا ، الاسم ، السكون ، الطبيعة .

واذا ما تذكرنا مقولة : ان التاريخ في حقيقته عبارة عن جغرافيا سائلة متحركة ، وان الجغرافيا بالمقابل عبارة عن تاريخ متجمد ، ساكن ؛ فإنه يمكن حينئذ أن ندرك حقيقة العلاقة بين طرفي تلك الثنائية في سلسلتها الطويلة . انها علاقة اشكالية ومن الطراز الأول ، بحيث ينتفى (المطلق) تماماً كصفة ملازمة لاي من اطراف سلسلة الثنائية ، إذ

يبدو كل شيء نسبياً ومنعكساً عن الطرف الآخر المتشاكل معه في نفس الثنائية . فلا تاريخ بلا جغرافيا ، ولا زمان بغير مكان ، ولا فعل بغير اسم (فاعل) ، ولا حركة لا يتخللها السكون ، ولا طبيعة إلا وتخلق من رحمها الانسان .

والعكس صحيح أيضاً في استعراض مقلوب لهذه السلسلة الطويلة الداخلة كطرفين في ثنائية الواقع الاشكالية : الجغرافيا والتاريخ .[٨٢] وهي اشكالية شاركت في صياغتها والتقاطع معها ، كما بينا وكما ينبغي هنا التذكير به ، اشكالية ثنائية سابقة يدخل فيها « المثال » طرفاً مع « الواقع » . وهذا ما يجعل الثنائية أكثر انكشافاً وتبلوراً ، كلما أمعنا في كشف ثنائية : الواقع بطرفيها (المتشاكلين) والتي تتقاطع معها في عقدة اشكالية مشتركة .

اننا يمكننا ، هنا ، أن نصوغ تصورنا النظري لدائرة المحيط بأكملها .

[بما فيها تركيبة الواقع وعلاقتها المتنامية دائرياً ، والتي يحتل فيها « المثال » نقطة الارتكاز ، بما يقود (في نقطة انغلاق المحيط أو اكتمال الدائرة) الى ابراز البنية الثقافية التي تخرج من شجرتها ثمرة الفن كتمثيل أخير وشاهد حي على اكتمال دائرة المحيط]

يقسم الواقع بوجهيه التاريخي والجغرافي محيط الدائرة ـ الى مسارين ـ يلتقيان في النهاية عند اكتمال شكل الدائرة في (ثمرة الفن) الموازية (لجذر الواقع) في نقطتين على المحيط ، الأولى تمثل البنية الفوقية الناتجة عن الثانية وهي البنية التحتية ، مشكلين بذلك ثنائية في غاية العمومية طرفاها (الواقع والفن) لها اشكالياتها الكبيرة التي تولد بدورها اشكاليات أكثر خصوصية كما سنرى ، يختزلها جميعاً في نقطة الارتكاز أو النواة الابداعية (صورة المثال) في شكل خصائص نفسية وذهنية وفنية ، خاصة وعامة ، داخلية وخارجية ، متحركة وساكنة الخ . ولا عجب في ذلك فالمثال كما ذكرنا وأوضحنا من قبل ، تلك النواة الابداعية الحية ، يمثل نقطة (التقاء وتوزيع) جميع الثنائيات واشكالياتها . انه التربة الحية التي تختزل تركيبة الواقع وترهص بها في نفس الوقت ، مفصحة عن امكانية صياغتها (تركيبة الواقع) ، عبر ملكة التخييل الخلاقة ، صياغة فنية مبدعة .

وهكذا ، كما يرى كريستوفر كودويل .

« تتطور الفانتازيا كنوع المتمم الملازم للفعل الذي يخلقها ويتسبب في

وجودها بدوره ثم يخلقها في شكل أغنى . كما أن الممارسة اذا ما أغنيت ، تصحح توقعات الفانتازيا وتجعل الوصول الى مستوى جديد من الانجاز ممكناً » .(٨٣)

وكما ينقسم كل من طرفي تركيبة الواقع الى مفاصل joints كبيرة متنامية في تطورها ، حسب طبيعة الحركة في كل طرف (فهي مسرعة تاريخياً ، بطيئة نسبية ، جغرافيا) ، فإن هذه المفاصل بدورها تتوزع على عدد من العناصر Elements ، المتعددة والمكونة بنى متنامية فيما بينها ، مما يساعد المفاصل نفسها على تأدية حركة عضوية واحدة تمثل في النهاية شكل الدائرة الهندسي الموضح لتركيبة الواقع (المحيط) ومكوناته وعناصره ونقاط ارتكازه وأطراف ثنائياته الاشكالية ، الى غير ذلك مما تعكسه بنية التجربة الانسانية بشمولها في أي مجتمع من المجتمعات .

ويمكن ابراز العناصر المكونة لكل مفصل من مفاصل طرفي ثنائية الواقع التركيبية على النحو التالي ، قبل الشروع في عرض بعض تفاصيلها وتحليله :

أولاً : تركيبة الواقع :

١ ـ التركيبة الجغرافية :

أ) البيئة الطبيعية :

ـ عنصر الصحراء .

ـ عنصر الزراعة .

ـ عنصر البحر .

ب) المناخ :

ـ الحرارة .

ـ الهواء .

ـ الرطوبة .

ـ حالات الطقس والفصول .

ج) الموقع الجغرافي :

ـ استراتيجية الموقع (التجارة ، ملتقى الحضارات ، الانفتاح) .

ـ التكوين الجيولوجي (الانخفاض ، الخلاصة) .

ـ خصائص الموقع (التوسط ، البعد ، العزلة) .

د) البيئة الاقتصادية :

ـ الرعي .

ـ الزراعة .

ـ صيد اللؤلؤ .

ـ صيد الأسماك .

ـ التجارة .

ـ النفط والصناعة .

٢ ـ التطور التاريخي :

أ) القبلية :

ـ الاستقرار الحضري .

ـ التنقل البدوي .

ـ اشكالية الحضارة .

ب) الدين :

ـ الأديان والمعتقدات ما قبل الاسلام .

ـ الدخول في الدين الاسلامي .

ـ المذاهب الدينية .

ـ اشكالية العصبية بين الدين والقومية .

ج) النظام السياسي :

ـ الاستعمار .

ـ التبشير .

ـ الحركات الوطنية .

د) تركيبة المجتمع :

ـ الوضع الطبقي .

ـ برجوازية الأعيان .

ـ البرجوازية الصغيرة .

ـ الطبقات الكادحة .

- اشكالية التعدد الطبقي .
هـ) البنية الثقافية :
- التعليم .
- المؤسسات الثقافية .
- الصحافة .
- الحركات الأدبية .

● **اشكالية منهجية:**

وقبل أن نعرض بالتفصيل لبعض عناصر تركيب الواقع المذكورة ضمن مفاصلها الكبرى جغرافياً وتاريخياً ، ينبغي الاشارة الى اشكالية منهجية أخرى تعترض طريق بحثنا في هذه النقطة بالذات ، الآن .

ان دائرة المحيط (تركيبة الواقع) من السعة والتنوع والشمول والتداخل بمكان، بحيث يصعب على مثل بحثنا المحدود بموضوعه وامكاناته وادواته المنهجية ، أن يحيط بها ويكشف عن قوانينها البنيوية الجزئية والكلية ، خاصة وانها (دائرة المحيط) تتسع زمانياً لتصل الى فجر التاريخ أو ما قبله ، كما تنداح مكانياً لتصل أحياناً الى تاريخ المنطقة جميعها .

وهذه مهمة لا يمكن أن يضطلع بها إلا فريق أو فرق من الباحثين والمؤلفين والدارسين وفي مختلف الاختصاصات والاهتمامات وبأدوات منهجية متباينة ورؤى متعددة . وهي بذلك مهمة أوسع من حدود بحثنا ، كما ذكرنا ، الذي لا تطالبه طبيعته القيام بها قطعاً .

هذا يعني اننا لن نقف وقوفاً متساوياً على كل الحلقات المذكورة المكونة لسلسلة تركيب الواقع ، كما اننا سنغض الطرف بصورة خاصة عن العناصر « غير الاحتكاكية » ، إن جاز التعبير ، التي لا تدخل في ثنائيات اشكالية متبلورة ، وان هي احتفظت بقوتها الاشكالية الكامنة ، أو غدت من قبيل ما يبدو أنه المادة التي « قد منيت بخسارة معينة في حركتها » كما يصفها انجلز[٨٤] ، والتي تدخل طاقتها الممكنة أو المفقودة ، حسب الرؤية الديالكتيكية للطبيعة ، في خلق طاقات اشكالية (حركة) أخرى جديدة في الواقع القائم ، « هذا هو الدوران السرمدي الذي تتحرك فيه المادة » .[٨٥] خاصة اذا اعتقدنا بأن « الطاقة شيء معنوي وليست حسية » .[٨٦] والطاقة روح المادة أو قانونها المحرك كما هو معروف .

ويبقى أخيراً ان نشير ، قبل البدء في عرض بعض تفاصيل تركيبة الواقع ، بوجهيه الجغرافي والتاريخي ، الى اشكالية منهجية أخرى تتصل بهذا الموضع من التناول ، سبق وان واجهتنا في موضع آخر ، مما يسهل علينا عملية طرحها وتصور حلها . وهي ان الفصل بين وجهي تركيبة الواقع (الجغرافيا والتاريخ) يتسم بالتعسف ، ضرورة ، ولكنه في الوقت نفسه ضرورة في التخطيط المنهجي الشكلي . لذلك لا مفر من ان نجد انفسنا ، ونحن نبحث في وجه من وجهيي التركيبة ، ننظر ونفكر في الوجه الآخر . انهما ، كما ذكرنا ، وجهان في عملة واحدة ، خاصة في حالة حركتها ودورانها وتقليبها بين يدي البحث والتمحيص

«النقدي» .

كذلك لا مفر من ان نجد أنفسنا مضطرين لملاحقة عنصر الحركة والتطور ومتابعته في مراحل نموه وقفزه السريع (الجانب التاريخي) ، اكثر من العنصر السكوني الثابت (نسبياً) او بطيء الحركة (الجانب الجغرافي) ، خاصة حين نضع في اعتبارنا ، وهذه حقيقة اقتنعنا بها ، ان الحركة هي تعبير عن السكون في وضع اشكالي معها ، تماماً كما هو التاريخ تعبير عن الجغرافيا من خلال صراع الانسان المستمر مع البيئة او الطبيعة ، ودخولهما طرفين في ثنائية اشكالية ، في محاولة متصلة من لدن الانسان لكي يفصل نفسه او يستقل بها تماماً عن البيئة بعد ان يكتسب وعياً متزايداً بالتناقض ما بين الأنا والطبيعة . وذلك لأنه بغير ذلك الوعي يظل عبد ذلك التناقض ، مطوحاً به على نحو أعمى هنا وهناك بواسطة مشاعره وبواسطة الحوادث(٨٧)

اننا حين نركز اهتمامنا ووقوفنا أمام الحالات الاشكالية في تركيبة الواقع بوجهيه ، انما نعبر بذلك عن أساس القانون الانطولوجي لتطور الكائن البشرى عبر صراعه المستميت ضد واقعه الطبيعي في كل مكان وزمان . كما اننا حين نعنى بعناصر الواقع الاشكالية في ثنائياتها المتعددة ، فإننا نعبر بذلك عن الواقع الاشكالي المتميز الذي اتسمت به (البحرين) عبر تاريخ وجودها الطويل ، مما أفرز بدوره ملامح من الخصوصية الواضحة ميزت تجربة الانسان فيها ووسائل تعبيره المختلفه ، ومنها الفن والشعر ، كما ساهمت في تمييز تجربة الانسان في منطقة الخليج كلها ، مما سنأتي على تفصيله ضمن سياق البحث .

ولكي نعكس اشكالية الواقع المذكورة ، وتوخياً للاختصار ، فسوف نقوم باختيار ثلاثة عناصر من تركيبة الواقع الجغرافي حسبما يوضحها المخطط السابق ، هي الصحراء والزراعة والبحر ، محاولين النفاذ منها الى سواها من العناصر المتصلة بها ؟ متخذين من ديمومتها وخصائصها السكونية الثابتة بالاضافة الى تلازمها مرآة صالحة لانعكاسات الجانب التاريخي بمعظم مكوناته المذكورة على صفحتها الصقيلة . الأمر الذي يوفر على بحثنا هنا الخوض في جانب التاريخ .

التركيبة الجغرافيّة

التركيبة الجغرافية هي الرحم الذي يتخلق في تفاعلاته جنين الواقع ، وهي الجسد الذي تنمو في خلاياه الحية بذرة الحياة البشرية والوعي التاريخي ، وهي أخيراً ، بالمقابل ، الروح الخفية الكامنة المنطوى عليها

جسد الطبيعة والتي ينتزعها الانسان ، كما ينتزع نفسه ووجوده ، عبر الصراع الذي لاينتهي معها ، خالقاً بذلك الابن - النقيض او الولد العاق ، مخرجاً التاريخ من رحم الجغرافيا في عملية مخاض طويلة وشاقة يمر بها الوعي الانساني عبر مراحل نموه وتطوره . ولاغرابة في اعتبار الطبيعة والجغرافيا رحماً بيولوجياً تخرج منه وعليه ، في نفس الوقت ، حركة التاريخ ، مادام قانون المادة الديالكتيكي هو الحركة التي لا نهاية لها كما ذكرنا استناداً الى انجلز .

وان تطور اشكال هذه الحركة ووجوهها المادية المتعددة ، خاصة عبر دخولها في سياق الوعي التاريخي المميز للفعل الانساني عن أفعال الطبيعة ، والذي يبرز في النهاية (نهاية كل مرحلة او دورة من التجربة مهما صغرت) كصياغة فنية هي ثمرة يتلخص فيها تاريخ الشجرة ومراحل نموها ، إن ذلك التطور المادي قد يبرز لنا نحن هذه الرغبة المنهجية للغوص وراء جذور التجربة الحضارية والفكرية في البحرين ، رغم صعوبتها المنهجية الواضحة ، ومحاولة الكشف عن خميرة التفاعلات الأولى ومانتج عنها من اشكاليات وسمت الابداع بوضوح لاينكر ، خاصة إذا كانت التفاعلات وناتجها الاشكالي متصلين بالبيئة البكر التي تحركت فيها مغامرة العقل الانساني الأول لتبدأ في صياغة اشكالياتها الحياتية المبكرة في اطار الذاكرة الاسطورية ، كما أوضحنا .

ان التركيبة الجغرافية ، اذن ، بمختلف عناصرها الطبيعية البيئية والمناخية والاستراتيجية (الموقع) والمعيشية (الاقتصاد) ، تشكل المهاد الذي سوف يترعرع فيه «تطور الوعي التاريخي» إضافة الى ان قوانينها هي المكونات الحية التي تتركب منها كيمياء ذلك «الروح المفكر» كمايدعوه انجلز ، وهو التاريخ .

وحين نبحث عن خصائص التركيبة الجغرافية التي تميز جزر البحرين فإننا في الواقع لانبصرها ، رغم وضوحها وتمايزها ، في جوهرها إلا ضمن موقعها في سياق تركيبة الخليج العربي الجغرافيه ، باعتبارها وحدة جغرافية واحدة ، ورغم ذلك لن تمنعنا هذه الوحدة الكلية من رؤية الاجزاء على حدة رؤية خاصة متمايزة وان كانت مستمدة من قانون الرؤية الشمولية ، خاصة إذا كان ذلك الجزء الذي نحدق فيه يؤلف بؤرة مزدوجة الوظيفة ، تجميعاً وتوزيعاً ، كالبحرين ، بالنسبة الى منطقة الخليج العربي منذ فجر تاريخها .

يقول الدكتور عبداللطيف ناصر الحميدان : «والواقع فإن منطقة الخليج العربي ليس اصطلاحاً جغرافيا يدل على رقعة محدودة من سطح الارض فحسب ، وانما يشير كذلك الى لون معين من الحياة ، فهي تغري الباحث في التاريخ الحضاري بدراستها كمنطقة متحدة داخلياً ، إذ انه بالرغم من المؤثرات الخارجية

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تعرضت لها عبر العصور ، فإنها كانت بوتقة انصهرت فيها هذه المؤثرات المتنوعة وبقيت تمتلك وحدتها الداخلية في البناء والتنظيم ، فموجات الهجرات البشرية المتبادلة بين سواحلها من جهة ، وكذلك فيما بينها وبين السواحل المحيطة بالبحار العربية والتي كانت تجرى تحت ضغط الظروف الطبيعية والحاجات البشرية المتبادلة هي من عوامل وحدتها . وبالرغم من وجود المغريات لدراسة الخليج العربي كوحدة فإن هنالك اعتبارات اجتماعية وتاريخية وسياسية تدعو الباحث لابراز خصوصيات الدور الذي لعبه كل جزء من أجزائها عبر مختلف العصور وبشكل متميز[٨٨] .

وهذا الاعتبار المتصل بخصوصية العام وعمومية الخاص في منطقة الخليج العربي ، سوف يجعلنا ننظر الى تركيبة البحرين الجغرافية في اتجاهين «متشاكلين» مما يطرح أمامنا بدوره حلقة أخرى في سلسلة الاشكاليات المنهجية التي ستظل تلازمنا على مسار البحث لكونها تمثل أساس الرؤية فيه كما ذكرنا ، متطابقة مع خصائص موضوعها . غير ان هذه الرؤية الاشكالية ، سواء على صعيد التركيبة الجغرافية او صعيد المنهج ، هي التي تكشف لنا عن حلقة الوصل والفصل معاً التي تعطي البحرين تمايزها ضمن الأطار العام الذي تنتمي إليه وتكتسب خصوصيتها من وضعيتها الخاصة فيه ، كما تقودنا بدورها (الرؤية الاشكالية الموضعية) الى مستويات أخرى جديدة من الاشكالية ناتجة عنها ، منهجاً وموضوعاً ، هي وحدها القادرة على حل الاشكاليات السابقة عليها ، وذلك بطرح اشكاليات جديدة ، وهكذا ، ضمن فلسفة المداواة بالمثل .

في اطار هذه الرؤية الاشكالية يمكن فهم خصوصية واقع البحرين الجغرافي بالنسبة الى منطقة الخليج العربي ، لاعلى أساس إقليمي تنبذه طبيعةتاريخ المنطقة وواقعها وصغر حجمها وغير ذلك من العوامل التي تحول دون النظر الى أجزائها على الأساس الاقليمي ، ولكن على أساس «إشكالي» يتميز به واقع البحرين ، وهو يستمد عناصره الأولى الخام ، كما ذكرنا ، من عموم المنطقة ليعيد تصديره اليها من جديد ، بعد «تكريره» وهو أساس يعطي هذا الأرخبيل من الجزر المعزولة والمحاصرة بالبحر من جميع الجهات رغم انتمائها الصميم الى رحم الجزيرة العربية الأم ، يعطيها اهمية خاصة ، دون أدنى رغبة في المفاضلة ، تعوض بها تاريخ الحرمان ، وتقلب قانون العزلة الطبيعي ومحاصرة الجغرافيا ، رغبة منها في تأكيد انتمائها التاريخي العضوي الى الرحم الأم جاعلة من واقعها الاشكالي المتميز طريقة فريدة في اثبات وجودها وتأكيد انتمائها ، ضمن حركة تاريخية لا تتوقف من الاشكاليات المتصلة

والمتنامية . وهذا ماجعل لهذه الجزر المتناثرة ، رغم صغرها وعزلتها وقلة مواردها وبسبب ذلك كله في نفس الوقت ، أهمية خاصة وشاناً كبيراً في منطقة الخليج العربي ، كما سنوضح .

البيئة الطبيعيّة (إشكالية المثلث البيئي)

تتألف بيئة الخليج العربي الطبيعية من ثلاثة مظاهر عامة «أثرت أعمق الأثر في حياتها وطبعت تاريخها السياسي والاجتماعي والاقتصادي بطابعها» ، وهي البيئة الصحراوية والبيئة الزراعية والبيئة البحرية . وتشترك البحرين معها ، باعتبارها مجموعة من الجزر الصغيرة ، في مظهرين فقط هما الزراعة والبحر ، يشكلان أساس بيئتها الطبيعية . وعدم اشتراكها في المظهر الصحراوي يمنحها وجهاً من وجوه امتيازها في المنطقة بدرجة متميزة ، كما سنوضح .

ان المظاهر البيئية الثلاثة تؤسس في منطقة الخليج على مر العصور واقعاً توازنياً بصورة فريدة ، أشبه بالمثلث «المتساوي» الاضلاع ، تمثل الصلة بين أضلاعه رغبة مستمره في التماسك الحي والتوازن الفعال وصولاً الى «الشكل الأكمل» المتمثل في «تساوي» الأضلاع ، وان ظل ذلك حلماً تطارده حركة المثلث الدائبة عبر العلاقة المتغيرة بين أضلاعه ، ولاتجده الا في تصور شكل الدائرة ، الثابت ، والمطلق ، كصورة المثال الغائب الحاضر، ذلك الشكل الدائري الأكمل الذي يلامس وسط اضلاع المثلث من الداخل ويحيط برؤوس زواياه من الخارج ، في حالة وضعه المفترض الأكمل القائم على تساوي الاضلاع وذلك وضع لا يصل إليه شكل المثلث الا في حالة اكتماله ، أي ثباته في وضعه الأمثل والأخير ، انها نهاية ذلك الشكل ، أي موته ، وهي شيء مستحيل على صعيد الحياة المادية والاجتماعية ، كما نوهنا ، لأن حركة المادة لا تنتهي ولاتموت ، أي ان ليس لها شكل مادي ثابت ومكتمل كالمثلث المتساوي الاضلاع المفترض .لذلك يغدو مثل ذلك الاكتمال حلماً يسكن الانسان ويحيط به ، كما تسكن الدائرة المتوهمة شكل المثلث (المكتمل) وتحيط به . وهذا الوضع الاشكالي من شأنه ان يعزز خصائص مااسميناه بالذاكرة الاسطورية (الدائرة الوهمية) التي يبدو انها وجدت لها في ذلك الوضع الاشكالي (المثلث) بيئة خصبة لانفصال الانسان الأول عن الطبيعة العضوية ، لتبدأ منها مغامرة العقل الأولى في تصور أساطير الخلق والنشأة الأولى والموت والخلود وكل ماطرحته في ثناياها أقدم أساطير

العالم المعروفة المتمثلة في «ملحمة جلجامش» أول وابرز صياغة فنية متخيلة وحقيقية في أن (الدائرة الموهومة) لوضع المثلث الأمثل الذي كانه وسوف يكونه ، ولكنه لا يستقر عليه ، وهذه هي اشكالية الاشكاليات [٨٩] ، الجذر الذي تفرعت عنه كل شجرة الحياة متوجة بثمار المعرفة وألوان الخيال .

وإذا ما دققنا النظر الفينا أن هذه الاشكالية ـ الجذر مكونة من ثنائية أساسية ذات طابع اشكالي طرفاها شكل المادة الأول وقانون حركتها أو تشكيلها على صعيد ديالكتيك الطبيعية كما تطرقنا له في اطار مفهوم انجلز . أما على صعيد المظاهر الثلاثة التي تميز بيئة الخليج الطبيعية ، فتمثل حبة الرمل (الصحراوية) وقطرة الماء (البحرية) طرفي ثنائية الحياة في اشكاليتها .

في هذا الاطار الاشكالي لثنائية الحياة يمثل المظهر الصحراوي والمظهر البحري في بيئة الخليج الطبيعية طرفي ثنائية تلك البيئة الاشكالية الاساسيين اللذين يبحثان أبداً ، من وراء صراعهما المتفاعل ، عن ناتج ثالث يعطي لذلك الصراع شكله الناجز وصورته الثابته ، ولو مؤقتاً أو نسبياً . ومن هنا يظل ضلعا المثلث الأساسيان (الصحراء والبحر) يبحثان في حركة لا تستقر عن ضلعهما الثالث الناتج عن تلك الحركة والبحث (الزراعة) لتتم لهما لحظة سلام وسكون نسبية يجد المثلث فيها شكله المستقر الثابت الى حين .

والآن على ضوء هذا التصور الانطولوجي الذي تسندنا فيه تفاصيل ملحمة جلجامش كأثر فني ناجز (الأثر الجمالي للدائرة الموهومة) ، من ناحية ، وواقع البحرين ـ دلمون القديمة كأرض للخلود تقوم فيها شواهد القبور (الآثار المادية للدائرة الموهومة) دليلاً على ذلك التصور ، يمكننا ان نستعرض تفاصيل كل مظهر من المظاهر الثلاثة المكونة لبيئة الخليج الطبيعية ، استعراضاً تاريخياً مادياً ملموساً يستند الى النظرية العلمية دون غيرها ، لنرى الى اي مدى يمكن الربط بين تصورنا الانطولوجي الباحث عن (الدائرة الموهومة) أو الحركة الغائبة وبين التصور العلمي القائم على شكل المثلث الناجز ، اي على شكل المادة القائم .

١ ـ البيئة الصّحراويّة

تشكل البيئة الصحراوية البيئة السائدة والاوسع بين البيئات الثلاث الطبيعية في منطقة الخليج العربي ، كما انها تحتل في موقعها منطقة تقع خلف البيئتين الأخريين حيث تتوغل وراءهما عميقاً في شبه الجزيرة

العربية تنتهي عند سلسة جبال تحيط بها من كل جانب عند أطـراف الجزيرة . ولاشك ان هذه البيئة الصحـراويـة الـرمليـة الجـرداء الشاسعة مسئولة بدرجة أولى عن خلق عنصر الحياة في المنطقة ، وربما في العالم كله ، أو هي على الأقل مسئولة عن توفير عنصر الحيـاة ومادتها الخام التي كانت ولازالت تمد به مقومات الخصوبة والحياة على جميع أطراف شبه الجزيرة العربية ، كلماتوفرت لها شروط الحياة عبر توفر عنصر الماء الذي تلعب البيئة البحرية بالمقابل دور الطرف الآخر في توفيره لخلق ثنـائية الحيـاة(٩٠) . وشبه الجزيرة العربية تقع في وسط مخزن كبير من البحار المحيطة تلعب حرارة الشمس الشديدة دوراً اساسياً في عملية تبخيرها وتحويلها في النهاية الى مياه عذبة تسيل بها الانهار المجاورة (خاصة دجلة والفرات) وتختزنها الأرض في ينابيعها الجوفية في مستوى قريب من السطح غالباً ماتتفجر عند اطراف الجزيرة وفي بعض الواحات والجزر القريبة المتاخمة (مثل جزر البحرين) خالقة بذلك البيئة الزراعية التي تميز ذلك الشريط الساحلي الذي سمي قديما (بلاد البحرين) وهي تشمل في وقت ما دول شرق الجزيرة العربية كافة ، ابتداء من الكويت وانتهاء بعمان الشمالي .

اننـا حين نتحـدث ، في هـذا التقديم ، عن الأساس الانطولوجي الذي لعبته بيئة الصحراء في هذه المنطقة في تفاعلها مع المظاهر البيئية الأخرى ، فلا نعني تتبع قصة نشأة الانسان في المنطقة أوفي العالم ، لأن ذلك ليس هدفنا الأول والأبرز من هذا البحث ، وان هو يدخل ضمن مشاغلنا لارتبـاطه ببعض جـوانب البحث وموضوعه . ولكن ما نعنيه من ذلك هو إبراز صورة البيئة الأساس التي لعبت دور القاعدة التي قامت عليها مختلف نشاطات الحياة الاجتماعية في المنطقة ، بعد ان نشأت من طينتها بذور الحياة الأولى ، كما انها لعبت دور المحرك المستمر لتلك الحيوية حتى عصرنا الراهن .

ان ما يعنينا حقاً أكثر من غيره في مسألة البيئـة الصحراويـة ، هو صورتها المعاصرة ، لتبدو وكـأنها مختلفة كل الاختـلاف عن وجوه وظـائفها الأولى المتصلـة بنشـأة الحياة ، غير ان الحقيقة غير ذلك . لأن القانون المحرك والمتحرك بالمادة هو الذي يجعل اشكال تطور المادة مختلفاً بحيث .

«ينطوى انتقالهـا الميكانيكي عـلى امكانية التحول في ظروف ملائمة الى حرارة وكهرباء وفعل كيماوي وحياة ، والتي لا تستطيع مع ذلك ان تخلق من نفسها هذه الظروف(٩١) .

وهذا يعني ان الحياة المعاصرة التي لم تزل تقف على تلك القاعدة الصحراوية مازالت عرضة لنفس التأثيرات الأولى في كثير من جوانبها ، وان هي اتخذت لها اشكالاً متغيرة (معاصرة) في الباقي من جوانبها .

وإذا كان اهتمامنا الرئيسي ينصب على دراسة الاشكال الأخيرة وتأثيراتها مع غيرها من اشكال البيئات الأخرى في المنطقة ، فانه لا يعني أن يصل الى درجة الصفر في اعتبار الاشكال الأولى لبيئة الصحراء ، مادامت الى يومنا تمارس نفس الدور البدائي مهما ضاقت مساحته وتقنعت أشكاله الأولى . وهذا ما يجعل اي التفاتة الى الوراء نوعاً من المغامرة التي يصعب وضع حدود نظرية لها مسبقاً ، خاصة مع امتداد الصحراء وانبساطها الشاسع دون حواجز وعدم وجود ما يشغل حواس الانسان من حوله ويمنعها من استبطان النفس والغوص في أعماقها وحيواتها الأولى أو المقبلة .

ورغم ذلك سيكون وجود الانسان في الصحراء ضمن مجتمع بشري يسمى (القبيلة) هو ما سوف نتخذه حدوداً ننطلق منها في معظم الأحيان وصولاً الى الاشكاليات الاجتماعية التي تسود المنطقة وتمتصها البحرين بصورة خاصة ، وان كان ذلك الالتزام لن يمنعنا من أن نرفع عيوننا ، كلما اقتضت الحاجة والرغبة ، وراء تلك الحدود المصطنعة ، لنحدس كيف يتسلل النسغ الذي مازال حياً الى جذور تلك الاشكاليات الاجتماعية وشجرتها المتفرعة دون توقف .

يرى الدكتور عبد اللطيف ناصر الحميدان ، في معرض ربطه بين مظاهر البيئات الثلاث في بلاد البحرين بالمعنى القديم «ان الظاهرة الرئيسية للبيئة الصحراوية هي فقرها وعجزها عن سد احتياجات سكانها خصوصاً عندما تتزايد أعدادهم ويحدق نقص خطير في مراعي القبائل ، لذا فهي بيئة طاردة نحو المناطق الأكثر غنى من بلاد البحرين وهي البيئة البحرية والبيئة الزراعية ، الأمر الذي يعرض هاتين البيئتين دائماً لضغط سكان البادية وتوغلهم فيها ويزداد توغلهم كلما أحسوا بضعف السلطة السياسية في هاتين المنطقتين ، ويميل قسم منهم الى الاستقرار[٩٢] .

إن تأثير بيئة الصحراء كبيئة طاردة على المناطق الزراعية المتاخمة لها والتي تقع على أطراف شبه الجزيرة العربية الشرقية ، تختلف نتائجه ووسائله وأهدافه عن تلك التي يقع تأثيرها على جزر البحرين . وهو اختلاف له أهميته رغم ما يبدو عليه من بساطة[٩٣] فالشريط الزراعي الشرقي من شبه الجزيرة ملاصق تماماً لبيئة الصحراء ، لذلك فهو دائم التعرض لهجمات بدو الصحراء حين يكون هناك سبب قد يقوى أو يضعف ، وقد يكمن في تلك المناطق المستقرة نفسها مثل «ضعف السلطة السياسية» أو في منطقة الصحراء نفسها نتيجة قحط أو فقر أو جوع . وما يشجع قبائل البدو على القيام بتلك الغارات هو سهولة الاعداد لها والاتفاق عليها في شكل جماعات كبيرة تسندها الصحراء باحتياطي لا ينفد من الأصول والأفخاذ والبطون ، إضافة الى سهولة انجازها ، وسهولة الهرب عند الفشل أو الانسحاب إثر

اتمام المهمة وهي «سد الاحتياجات» وان كان «يميل قسم منهم الى الاستقرار» غير ان هذا القسم الذي يميل الى الاستقرار يلعب دوراً أساسياً في كل الحالات ، خاصة في جزر البحرين كما سنوضح ، لأنه مكون من بذرة اشكالية طرفا ثنائيتها الكامنان : الفقر والغنى .

«ولقد أوضحت دراسة بارث عن البداوة ان الذين يميلون الى الاستقرار من بين البدو هم الأكثر غنى وكذلك الأكثر فقراً[٩٤] وهذا مايجعل اشكالية الحراك الطبقي كامنة ومبيتة في صلب التاريخ الذى يحرك تلك القبائل البدوية من بيئتها الصحراوية الطاردة .

غير ان تلك الأسباب ، وحدها ، والوسائل والإعداد والأهداف التي تمكن القبائل الصحراوية من غزو المناطق الزراعية المتاخمة ، ليست كافية في تفسير «هجوماتها» على جزر البحرين بصفة خاصة . وذلك لأن المانع المائي بين شبه الجزيرة العربية وأرخبيل الجزر ، يغير من طبيعة تلك «المعادلة» ان لم يساهم في قلبها رأساً على عقب ، بتغير الدوافع والوسائل والنتائج . فاجتياز ذلك المانع المائي أو ركوب البحر مغامرة ليست بالهينة . وهي تحتاج الى دوافع اكثر من العجز والفقر وسد الحاجة ، ووسائل هجومية أبعد أثراً من السيف والرمح والخنجر ، وتجربة واعداد وتخطيط ونية مبيتة (استراتيجية) أطول مدى من ضعف النظام السياسي في مرحلة طارئة . وهذا يعني ان القبائل البدوية لكي تحسب لغزو جزر البحرين حساباً تقيمه على امكانية النجاح فيه أو التصميم عليه ، عليها قبل ذلك أن تتخلى عن «بداوتها» البدائية بالقوة أو بالفعل[٩٥] ، وتخطط لما هو أبعد من محركاتها البيئية ودوافعها البيولوجية ، أي تكتسب صفة التحضر من خلال التفكير المنظم والتنسيق والتخطيط ورسم الاستراتيجيات الواضحة وطويلة الأمد . لذلك لا يصبح هجومها على جزر البحرين غزواً ، كما هو الشأن مع المناطق الزراعية المتاخمة ، بل يغدو «فتحا» ، كما ان الهرب أو التراجع ، أي نهاية الغزو ، لا تتضمنهما خطة «الفتح» ، بل تفرضهما طبيعة الظروف نفسها التي لم تمكن من «السيادة» . وهذا مايجعل النية مبيتة والاستراتيجية قائمة حتى يتمكن هؤلاء «المتحضرون» من الغلبة ، وعندها يؤسسون «دولة» وان كانوا لا يخرجون من اطار «القبيلة»[٩٦] . وهذه هي إحدى اشكاليات الواقع الذي تتميز به البحرين[٩٧] .

وبذلك تكون البيئة الصحراوية ، رغم غيابها عن بيئة البحرين الطبيعية غياباً تاماً منذ فجر التاريخ قد لعبت دوراً اساسياً في واقع البحرين وساهمت باستمرار في تحريكه وعدم تركه مستقراً ساكناً ، وذلك بدفع اشكالياته الأولى البسيطة نحو مزيد من التركيب والتعقيد والحركة ..

كما ساهم ذلك الواقع الاشكالي المميز الذي تتسم به جزر البحرين في دفع بداوة الصحراء وبساطة قوانينها وعلاقاتها الاجتماعية نحو الفعل الحضاري الذي يغري به موقع البحرين الاستراتيجي وثرواتها الاقتصادية وغنى ارضها وخصوبتها واستقرار الحياة فيها ، إضافة الى عزلتها وموقعها القصي المنيع المسيج بالبحر من كل الجهات ، مما أضفى على ذلك الأرخبيل من الجزر المتناثرة النائية والمحاطة بكنوز من مغاصات اللؤلؤ الثمين والمياه العذبة والحكايات والاساطير والخرافة ؛ أضفى عليه جواً اسطورياً ساحراً ملفعاً بالغموض ووهج الذاكرة الغارب وطيف الأمس الهارب ، مما يدفع نفس البدوي الموحشة والمتعطشة للمعرفة والحياة والخيال الجامح والفضول الفطري الى المزيد من حب الاطلاع والكشف والارتواء(٩٨)

لذلك لا عجب ان تبقى البحرين منذ فجر تاريخها الدلموني ، بالنسبة الى الانسان البدائي والانسان البدوي(٩٩) ذلك الفردوس المفقود في ، موطن الخلود ، الذي ظل يداعب خياله ويتوهج في ذاكرته ، ليكون بمثابة الحلم - المحرك الحضاري الذي ينتشله من واقعه ليرمي به في بحر واقع جديد ، فكان يتنكب المشاق ويركب المصاعب ويقوم بالمغامرات الكبرى ، تماماً كما فعل أجداده الأوائل الاسطوريـون (أوتنابشتيم وجلجامش) ، من أجل بلوغه ، متخذاً من شتى ظروف الواقع ومعطياته كالعجز والفقر والجوع والرغبة في سد الحاجة وحب السيطرة والعصبية القبلية والسياسية وغير ذلك من أسباب الواقع ، التي لا تدحض في حد ذاتها ، سلماً للوصول اليه .

ان شحنة تلك «الروح المفكرة» سوف تبقى ترافقه كظله في كل عتبة من عتبات السلم ، تغريه بحلم الحضارة وتحاصره بالذاكرة الأولى ، حتى يجد نفسه مستقراً فيها ، مغلوباً على أمره ، بعد أن قادته الصحراء الطاردة الى جنة حلمه (الحضارة) ولم يستطع عنها رجوعاً ، هكذا «خسر انكيدو القوة الحيوانية ، وكسب الفهم العميق والمعرفة ، دخل عالم الانسان «علمته المرأة أكل الخبز وشرب الخمر ولبس الثياب ، جعلت منه بشراً سوياً»(١٠٠) هذا ما تحكيه ملحمة جلجامش ، ملحمة المنطقة الكبرى ، بلسان أسطوري فصيح .

٢ - البيئة البحرية

للبحر وحده ، قبل أي شيء آخر تدين جزر البحرين بوجودها ونشأتها وغناها وصيتها ، حتى غدا البحر اسماً لها ، مضاعفاً ، يشير اليها دون

غيرها من بلاد العالم البحرية ، وكأنما كان البحر قدرها ، وهو كذلك حقاً ، لفظا ومعنى .. فالنصوص الآشورية القديمة تشير الى «انها كانت جزيرة تحيط بها المياه ، وان ملكها كان يعيش كالسمكة وسط البحر»[١٠١]

ويشير السير روبنسون في معرض تعليقه على ذلك الحجر (الأسود) العجيب الذي اكتشف في أحد مساجد البحرين مؤخراً ، وهو يعود الى عصور الانسان الأولى ، بعد أن استخلص ما عليه من الكتابات المنقوشة ، الى «إله السمك» الذي «جاء من وراء البحر الاريتري - المجاور لحدود بابل - وهو الذي علّم أهالي ما بين النهرين دجلة والفرات الحروف (اللغات) والعلوم والفنون من كل نوع وقد كان ذلك في فجر الحضارة» .. ويقول ان هذا الإله «غالباً ما كان يعرف باسم رب مملكة الماء» وكان هو «خالق البشر» و «رب المعرفة» و «سيد الشعوب القديمة الأولى» كما يشير الى ذلك الجنس الأسود من القوم البدائيين أي أجداد «أصحاب الرؤوس السود» الذين «ربما كانوا هم بنو آدم الأول (المذكورين) في سفر التكوين»[١٠٢] وهو يلمح الى ان مكان كل اولئك الآلهة والأقوام تلك الجزر الواقعة وسط الخليج .. ويرجح من اوصافها انها جزر البحرين .

هذا ، بالاضافة الى ان ملحمة جلجامش والكتب السماوية (بما فيها القرآن الكريم)[١٠٣] والشعر الجاهلي ومصادر التاريخ الاغريقي القديمة وغير ذلك من الكتابات ، تشير جميعها الى تلك البيئة البحرية الفريدة التي تمتاز بها جزر البحرين وموقعها اللافت للانتباه .

وقد ارتبط وجود البحرين في مجمله ، الجغرافي والتاريخي ببيئة البحر رباطاً محكماً ، بحيث كانت هذه البيئة الطبيعية مسئولة مسئولية كاملة عن انبثاق تاريخ هذه الجزر ، كما هو الأمر مع سائر المنطقة ، منذ فجره الأول ، اذ اعتمد السكان الأوائل في معاشهم على صيد الأسماك[١٠٤] ثم اللؤلؤ «عين السمك»[١٠٥] حين تطورت سبل المعاش ، حتى صنعوا المراكب البسيطة المصنوعة من جريد سعف النخيل[١٠٦] ومنها ابتدأت أول مغامرة للانسان في تلك المنطقة أو ربما العالم كله[١٠٧] للتعرف على العالم المحيط ، حيث كانت تلك المغامرة البحرية الأولى مشدودة بين تلك الجزر والبر المحيط بها سواء كانت البداية منها أو اليها ، إذ «ان أول ما يسترعي نظر الباحث في منطقة الخليج ، ذلك الموقع الجغرافي المطل باليابسة على البحر ، مما يرتبط ارتباطاً عضوياً وعفوياً بمحاولة الانسان الأولى لركوب غوارب الماء ، وهي محاولة تعود ولا شك الى أزمنة بعيدة مغرقة في القدم ، سعياً وراء كسب العيش باصطياد الأسماك ، او بغية التنقل ما بين الجزر القريبة من المناطق الساحلية .. ولا ريب في ان تلك المحاولة الساذجة البسيطة ، قد تطورت وارتقت الى ان أصبحت حركة

ملاحية كبرى ، تبعاً لرقي وتطور سائر النـواحي الحيـاتيـة ومـرافقهـا الحضارية»(١٠٨)

وقد تسببت تلك البيئة البحرية الفريدة ، حتى ضمن منطقة الخليج ، التي تميز بها موقع البحرين المحاصر بالبحر من كل الجهات ، في توليد وانتـاج عـدد مـن الخصـائص الاجتماعية والنفسية والثقافية ، على إثر الخصائص الاقتصادية المترتبة على حساسية الموقع والمحيط المائي ، ميزت تجربة الانسان في هذه الجزر بما يغني تجربة انسان المنطقة عامة والتجربة الانسانية بصورة أعم .. حيث ان هذه البيئة مسئولة عن توليد عدد من الاشكاليات التي تحدثنا عن بعض جوانبها من قبل .

ومن ابرز تلك الاشكاليات التي ترعرعت في مناخ البيئة البحرية ثنائية اشكالية نفسية واجتماعية اكتسبت صفاتها الازدواجية المركبة من مظهر هذه البيئة في حركتها البحرية بين المد والجزر ، وذلك بعد ان تركبت حياة المجتمع الاقتصاية اليومية (صيد السمك) والفصلية (الغـوص على اللؤلؤ والتجارة)(١٠٩) على قاعدة تلك الدورة الطبيعية المتحركة في اتجاهين متشاكلين (متعـاكسين) وقـوانينها الزمنية المتناوبة .. ولا بد أن تكون هذه الحركة المتناوبة لم تقتصر على بنية المجتمع التحتية ، كما انها لم تقتصر من قبل على حركة البيئة الطبيعية ، إذ نتوقع ، دون شك ، تسللها وفعاليتها في تركيب البنية الفوقية ، الثقافية والفنية والأدبية . وان كان تجليها هنا مختلفاً في درجته ونوعه وشكله عنه في بنية المجتمع التحتية .

ان زميلنا الدكتور ابراهيم غلوم في معرض حديثه عن واقع حركة التغير الثقافي في مجتمع الخليج العربي وما يواجهها من دوافع ومعوقات في آن واحد ، يلتفت الى هذه الظـاهرة «الطبيعية» حين يقول :

ويبدو ان حركة المد والجزر التي ظل الانسان في هذا المجتمع يربط بها الكثير مما يتصل بحياته الزمنية والمكانية مع البحر ، قد صبغت قدرته في المشاركة ووعيه بـ «الفعل» وهو يتفاعل مع حركة التغير ، فانتزعت منه حركة دائبة من النهوض والكبو ، الاستمرار والتوقف ، الفعل والتأمل ، النفاد والاختزان ، خاصة وان هذه الفترة التي نتحدث عنها ، قد اعتمدت على البحر اعتماداً أساسياً ، كان فيها مورداً اقتصادياً ، وشكلاً للاتصال ، ورمزاً للموت ، وكان مفتاحاً للبدء وايذاناً بالنهاية مع حركة الفصول والنجوم والمواسم(١١٠)

وإذا كانت هذه الظاهرة الطبيعية المد ـ جزرية تسم مجتمعات الخليج قاطبة بما فيها مجتمع البحرين وتمثل بذلك ميزته العامة حقاً ، في الحركة والايقاع على صعيد البنيتين التحتية والفـوقية ، فـإن هذه الخـاصية الخليجيـة العامـة من شـأنهـا ، كـإشكاليـة ثنائيـة كلية واسعـة وأساسية ، أن تعزز في اطار جغرافية

جزر البحرين وموقعها ومناخها ، مما يميزها عما حولها ، عدداً من الاشكاليات الثنائية الخصوصية تطبع سيكولوجية مجتمع البحرين وثقافته بطابع مميز له لونه الخاص الواضح ضمن الخصوصية العامة رغم تدرجه في سياق قوسها القزحي .. وعلى رأس ذلك اشكالية العزلة ـ الانفتاح ، واشكالية الضعف والقوة ، وإشكالية المحلية والعالمية ، واشكالية الباطن والظاهر ، واشكالية اليأس والأمل .. وغير ذلك مما عرضناه في غير هذا البحث بالشرح والتفصيل .. (راجع كتابنا : ما قالته النخلة للبحر) ..

ان جميع هذه الاشكاليات يتضمنها اطار الاشكالية الثنائية العامة المتصلة بحركة المد والجزر في البيئة البحرية ، غير انها في البحرين بصفة خاصة تكتسب طابع «الاشكالية» الحادة والقابلة بسبب تلك الحدة والتوتر للتوالد والتكاثر والنمو .. في حين انها تقف في بقية انحاء المنطقة والى حد كبير ، بحركتها عند حدود الثنائية (المتعارضة والمتقابلة ، اي المتجاورة) ونادراً ما ترقى الى مستوى درامي «إشكالي» متوتر ، والسبب هو ان هذه الثنائية وكذلك غيرها من الثنائيات تقف بطرفيها على رأس حاد من التوتر المستمر ، بحيث يتحول ذلك الطوفان الى وحدة كيانية مركبة تتخللها حركة متوترة لا تهدأ من الفعل ورد الفعل تتصارع وتتفاعل وتتزاوج في لحظة زمنية واحدة ، أشبه بتفاعل المواد الكيميائية أو لمس وتر مشدود الى حده الأقصى دون درجة الانقطاع ، مما ينتج عن ذلك واقع إشكالي قائم وممكن معاً .. فاشكالية اليأس والأمل الثنائية ، مثلاً ، لا تمثل بالنسبة الى الانسان البحريني زمنين متعاقبين يطوي نفسه اليأس في احدهما (مع حركة الجزر) ويتراقص الأمل أمامها في الزمن الآخر (مع حركة المد) ، بل هو يعيش لحظة زمنية واحدة مركبة يتحول فيها كل من اليأس والأمل الى حالة من التوقع والخوف والاحساس الغامض والعميق «بوحدة صراع الأضداد» ، مما تجعله (الحالة المتوترة) منسحباً بصورة واضحة الى داخله ، منكفئاً على نفسه ، يعيش حالتها ويستبطن أعماقه ، محاولاً ان يلعب دور «القابلة» ، التي تخرج من قوانين ذلك المخاض ثمرة ما ، غالباً ما تكون «ثمرة فنية» ، أي حالة ابداعية .

أما جذور هذه الحالة النفسية الاشكالية الخاصة ، فيكمن امتدادها الحقيقي في علاقة جزر البحرين بمظهر البيئة البحرية ، خاصة حركة الجزر والمد منها من جهة وعلاقتها بغياب عنصر الصحراء من جهة ثانية .

ان ذلك المجتمع المحاصر الصغير المعزول في جزر نائية متناثرة في عرض البحر لديه احساس مستمر بأنه مهدد من قبل تقلبات ظروف الطبيعة وخاصة البحر و «غدره» ، ومن قبل

القوى الكثيرة المتصارعة في المنطقة والمحدقة به في اطار تواجدها أو في خط سيرها التجاري ذهاباً وإياباً بين الشرق والغرب ، بحيث تمثل تلك الجزر المتوسطة الموقع نقطة ارتكاز وتقاطع لكل من ذلك التواجد والحركة التجارية .

ومن اجل أن يضمن مجتمع تلك الجزر توفير موارده الاقتصادية اضطر الى ان يحارب ذلك البحر ويسالمه ، وان يهادن تلك القوى ويهددها في أن واحد .. فمن خلالهما مصدر كل من حياته وموته ، بقائه وفنائه ، يأسه وامله ، قوته وضعفه ، فحين يطغى عليه البحر بموجه او القوى بعدوانها ، لا يجد وراء ظهره تلك المساحة الواسعة (البيئة الصحراوية) التي يتراجع نحوها ويطلب العون من قبائلها بحيث تصبح الحرب كراً وفراً ، بل يجد نفسه محاصراً بما هو عليه من مساحة أرض محدودة ، مقطوعاً عن الجزيرة الأم وأي يابسة اخرى يلوذ بها ، فليس أمامه الا ان يعتمد على نفسه في حل تلك الأزمة المداهمة او الاشكالية القائمة .. وان هو استنجد بأصوله القبلية الضاربة وبالنخوة العربية في شبه الجزيرة العربية ، فمعنى ذلك ان تلك الثنائية المكونة من اليأس والأمل او النصر والهزيمة تتجه به نحو درجتها الاشكالية العليا من الخوف والتوقع والانتظار والتحفز ، إنه هنا على رأس الابرة بالضبط مشدوداً كالوتر بين قطبي تلك الثنائية في وضع اشكالي نموذجي .

أن بعد ارخبيل البحرين عن شبه الجزيرة العربية واحتماءه بالماء من كل جانب قد جعل منه حصناً منيعاً يحتمي به أهلوه من كل عدوان خارجي عليهم ، كما جعلا منه هدفاً سهلاً للمحاصرة والعزل .. وهي اشكالية أخرى طرفاها الاحساس بالقوة والضعف ، الأمن والخوف ، المنعة والمحاصرة .. وتصعد هذه الثنائية المتناقضة الى أعلى درجاتها الاشكالية في أوقات الحروب والأزمات والمخاطر الخارجية .

اما على الصعيد الخارجي المتصل بالبيئة البحرية المحيطة بجزر البحرين ، فقد ظلت اشكالية الحرب والسلام ، الخوف والطمأنينة ، تتجاذب واقع المجتمع ووضع السلطة الحاكمة بصفة خاصة في محاولة منهما للتوازن بين اطراف الصراع من القوى المحيطة .. وقد التفت الرحالة المفكر أمين الريحاني عندما زار البحرين في الربع الأول من القرن الحالي ، الى هذا الوضع الاشكالي الخارجي الذي تمتاز به البحرين ، فعبر عنه في هذا الوصف الشاعري الرقيق : «ليس بين مسقط والبصرة أجمل من مركز هذه الجزيرة .. وليس أصلح منه للتجارة او للحرب فهي تتوسط الخليج في زاوية حصينة منه ، كأنها بارجة راسية في جوان متسع بين قطر والقطيف .. او كأنها باخرة دنت من الساحل الذهبي المحيط بها ترفع

علم السلم والتجارة .. بل كأنها ، وهي عند مهد اللؤلؤ ، جوهرة كبيرة في جيب الخليج .. فلا عجب اذا تسابق اليها الفاتحون في قديم الزمان ، وتنازعها من الأمم ذوات الصولة والعرفان .. وهي لا تزال محط رحال التجار يجيئونها من الهند وفارس ،

ومحط رحال الطامعين بالسيادة على الخليج[١١١] وفي كلام الريحاني تصريح وتلميح كثير الى واقع البحرين الاشكالي فيما يتصل بموقعها في وسط البيئة البحرية محاصرة بالماء ومتحصنة به في وقت واحد ، وفعلاً ،

فلقد استطاعت هذه البيئة ان تطبع بطرفي حركتها المائية المتراوحة بين الجزر والمد .. واقع البحرين بخصوصيتها (الطبيعية) وان تغذي في اطارها عدداً كبيراً من الثنائيات الاشكالية الناتجة عنها والتي أمكن للواقع المحلي ان يطبعها بطابعه الخاص والمميز لمجتمع البحرين (المغلق/المفتوح) .. لذلك لم تكن خصوصية «التكرير» و «إعادة

التصدير» كإشكالية بحرينية ، غائبة بطرفيها عن ذلك الاطار الواسع الذي تحدده حركة الطبيعة البحرية .. بل كانت موجودة في كل جزء من اجزاء الواقع الاشكالي المتوالد ، إذ كانت هي الاشكالية العملية المكثفة التي تجتمع عند بؤرتها (ذات الخاصية المزدوجة) كل اشكاليات المنطقة المحيطة بالبحرين ، والتي تتوزع منها في ذات الوقت تلك الاشكاليات في صورة جديدة «مكررة» بعد ان تترسب من جراء تلك العملية المزدوجة إشكاليات الواقع الداخلي لتميزه بذلك عن أي واقع آخر في المنطقة ، مهما تكن نقط الالتقاء وخطوط التشابه .

ان هذه المساحة المائية الزرقاء التي اطلقنا عليها اسم (البيئةالبحرية) تشكل عاملاً حيوياً مشتركاً بين جميع أقطار الخليج العربي ، على صعيد الاقتصاد والاجتماع والنفس والسياسة والثقافة والتاريخ والحضارة .. غير ان كل قطر او بقعة منه ، نتيجة الى اشكالياتها الخاصة بها ، تتجاذب ذلك العامل المشترك بطريقة تتناسب وتلك الخصوصية الاشكالية ..

فالبحرين باعتبارها أكبر تجمع جزيري يطفو على مياه الخليج .[١١٢] في منطقة من اكثر المناطق ضحالة ودفئاً فيه بحيث جعل من هذا المحيط المائي أغنى من أي مكان في الخليج بمصائد اللؤلؤ[١١٣] مما نتج عن ذلك تحفز خاص لدى أهلها منذ قديم الزمان أغراهم بالغوص على ذلك الكنز الثمين و «الصندوق الذهبي الرائع الذي يسيل له اللعاب» ليجعلوه بعد ذلك مصدر رزقهم الأول ومنبع صيتهم ومحور تعاملهم التجاري والاجتماعي مع العالم ، كما أغرى ذلك الكنز معظم القوى الطامعة العالمية والمحلية بالبحرين ، مما كان سبباً في سعادتها وشقائها في وقت واحد ، إذ جلب ذلك الاهتمام التجاري والاستعماري

العـالمي والمحـلي ، لهـا النهضـة والدمار ، الغنى والفقر ، الشهرة وانطفاءها ، فكان البحر في اطار حركة

مده وجزره ضمن خصوصية معطيات واقع البحرين ومحيطها الجغرافي بمثابة بندول الساعة (الزمن) الذي وضع منذ البدء ، وظل يصنع وجود ذلك الارخبيل من الجـزر داخلياً وخارجياً في سياق حيوي من الحركة المتناوبة بين عدد لا يحصى من الثنائيات الاشكالية التي ظلت تتوالد وتتفرع مع دوران عقارب ساعة (التاريخ) ، لتـأخذ عـلى قرصهـا الجغرافي خصوصية نبض المجتمع البحريني ورنين تجاربه الحضارية وأصداء ذاكرته الاسطورية ، مكثفة بذلك تجارب انسان الخليج ومجتمعه مستخلصة منها الجوهر الصافي ،

تماماً كمـا استخلصت من بلاد البحرين القديمة التي كانت هذه الجزر ولا زالت جزءاً لا يتجزأ منها ،

اسمها الذي انحسر عن دائـرته الواسعة ليتجمع بكثافة في مركز الدائرة جامعاً خصائصها المشتركة ،

مكثفاً شتات ذاكرتها المتناثرة وخيوط شمسها المنتشرة الغاربة ، مشيراً دائماً الى امكانية انبثاق ذاكرة التاريخ المضغوطة من تلك النقطة الجغرافية الصغـيرة ، لتعود لمحيط الـدائرة اندياحاته الجديدة/القديمة .. ذلك لأنها نقطة المركز . وتلك حقيقة حتى على صعيد جغرافيا المنطقة كما أشار الى ذلك الريحاني ـ الذي تحيط به البيئة البحرية ، منداحه عنه في دوائر مائية زرقاء حتى تصل بحلقاتها المتسعة لتلامس ذلك الساحل الذهبي (حسب وصف الريحاني الشاعري)

على الطرف الغربي الأقرب أولاً ، ثم يسوقها قانون الاتساع الطبيعي الى ملامسة الطرف الآخر الأبعد ، الواقع الى الشرق من ضفة الخليج .. وما تلبث هذه الحلقات المتسعة ان تعود منكمشة على نفسها في اتجاه نقطة انبثاقها ومركز انطلاقها ، حاملة معها تجارب الساحل الذهبي الاجتماعي بطرفيه الشرقي والغربي ، مستقطبة اياها في خلاصة مكثفة ، جاعلة منها حصيلة تمركزها الثابت وسط تلك الدائرة المائية الزرقاء التي تلعب حركة المد والجزر كقانون عام بالمنطقة وحركة التجميع والتوزيع «التكرير» كقانون خاص بالبحرين ، تلعب كل منهما ، في نفس الوقت ، دور المحرك لها في كلا الاتجاهين : من المركز الى المحيط ومن المحيط الى المركز ، دون توقف ، فكما ان الخليج كما يقرر البحاثة الفرنسي جان جاك بيربي Jean Jeacque Berby «هو قلب الشرق الأوسط جغرافياً وبابه السحري وصندوقه الذهبي الرائع الذي يسيل له اللعاب[١١٤] فإن جزر البحرين هي قلب القلب جغرافياً على الأقل ..

والجغرافيا قطعاً أم التاريخ ، كما حاولنا ان نوضح وما زلنا في هذا الصدد .

٣ - البيئة الزراعية

اذا كانت الخصائص العامة لبيئة البحر تعني اتساعا وانتقالاً بحلقات المركز الى محيطه الأوسع ، أي اتجاهاً مستمراً نحو الخارج في المقام الأول ، ثم رجوعاً ونكوصاً نحو المركز ، وهكذا ، بفعل قانون حركة المد والجزر الذي ينعكس بدوره على كل حركة الحياة ويتخلل جزئياتها وتفاصيلها مهما صغرت فان الخصائص المميزة للبيئة الزراعية، قياسا، هي الاستقرار والثبات والنكوص المستمر والانكماش والانكفاء والانطواء ، انها حركة ولكن بطيئة جدا تبدو وكأنها ثبات مستمر واستقرار وسكون . واتجاهها الغالب هو الداخل نحو الأعماق ، كاتجاه النبات نحو اعماق التربة المظلمة ، أول الأمر ، ضارباً بجذوره الحية في خلاياها ممتصاً من تفاعلها (الكيميائي) الحي نسغ الحياة ، قبل ان يتجه برأسه المخضوضر نحو الأعلى في حركة معاكسة (تتصف ايضا بالبطء الى درجة الايهام بالثبات) خالقا بذلك ، دون أدنى ضجيج ، مزيجا مركبا بين عالم الظلمة في الأعماق وعالم النور فوق الأرض ، عبر ما يسمى في علم النبات بعملية التمثيل الخضيري او الكلوروفيلي التي تؤلف قانون حركته الساكنة ، ان صح التعبير ، أو سكونه المتحرك ، لا فرق .

هذا هو القانون الجوهري الاساسي الذي تتخلق في اطار أبسط مراحله (مرحلة التقاء الماء بالتراب وتفاعلهما الداخلي) خلية الحياة الأولى تخلقا عضويا سرعان ماينشأ من تعضيه ذلك أطوار أعلى أكثر تركيبا وتعقيداً ، ولكنها خاضعة ، مهما تعقد تركيبها ، الى ذلك القانون الجوهري البسيط الذي يفاعل بين التربة والماء ، في اطار من تفاعل المادة بحركتها بفعل عنصر لا يزال مجهولاً على الصعيد العلمي التجريبي ، أطلق عليه انجلز مصطلح «الآحين» وتسميه الأديان «الروح» ومصدره الخالق جل وعلا ، كما ان مصدر الآحين هو الطبيعة وقوانين حركة المادة . (١١٥)

وحسب قوانين المادة فان هذا القانون نفسه الذي يؤلف حياة النبات عبر حركة سكونية لصعوبة ملاحظتها الآنية ، هو نفسه الذي يؤلف سائر أنواع الحياة وأجناس الكائنات وحركات الطبيعة وقوانين الكون ، لذلك تصبح حركة المد والجزر الصاخبة والملحوظة بوضوح والمتسمة بالتحولات السريعة والمنداحة في اتجاه خارجي واسع يغلب عليها ، ضمن

البيئة البحرية ، هي تعبير مكبرً (على طريقة مكبر الصوت) عن قانون البيئة الزراعية الذي هو نواته الأولى وخلاصته المكثفة وحركته الساكنة .

عبر هذا القانون الجوهري الواحد في الأساس والمتشكل في الصور والوجوه المتفرعة عنه ، تدخل البيئات البحرية والزراعية في ثنائية اشكالية عامة ، طرفاها الوحدة والاختلاف ، مبدئيا ، ثم وحدة الاختلاف واختلاف الوحدة كلما ارتفعت الثنائية في سلم أعلى من الاشكالية ، كما سنرى .

ولكن ، اضافة الى تلك الاشكالية التي يمثل طرفيها كل من البيئتين: البحرية والزراعية ، الاشكالية العامة والاساسية في نفس الوقت ، هناك اشكاليات خاصة بكل بيئة تنتج أساساً عن ذلك المركز الاشكالي المولد لعدد من الوجوه والاشكال والتجسدات من شأنها ان تنتج اشكاليات بدورها . وقد ألمحنا بصورة عامة الى اشكاليات البيئة البحرية المتجهة ، في اتساع ، بقوانينها المادية المتجسدة ، نحو الخارج أساساً . على عكس اشكاليات البيئة الزراعية المتجهة ، في انكماش ، نحو الداخل أساساً ، لذلك يمكن ، على أساس علمي لا تخيلي فحسب ، اعتبار قطرة الموج او الماء حبة رمل متسعة ومتحولة في شكلها المادي ، عبر قانون المادة ، من التجمد والتصلب الى السيولة والليونة ، كما يمكن ، على العكس ، اعتبار حبة الرمل أو التربة قطرة ماء منكمشة ومنكفئة على نفسها الى حد التصلب والجمود . وتتضح حقيقة هذا التصوير العلمي تجريبيا حين تلتقي قطرة الماء بحبة الرمل ، حيث يصبح التفاعل الخلقي (كيميائيا) حين تكون الكمية متناسبة بين الطرفين وقوة عناصرهما متكافئة ، بحيث تتمدد حبة الرمل في الوقت الذي تنكمش فيه قطرة الماء ، ليصلاً بذلك ، في حالة التكافؤ ، الى وضع اشكالي يصعب فيه على قانون الحبة الرملية ان تتسع أكثر ، كما يصعب على قطرة الماء ان تنكمش أكثر ، تماما كتلك العلاقة الغامضة هندسياً بين محيط الدائرة المتسع والمركز المضغوط حين يتبادلان العلاقة في حركة تبادلية عكسية ، بحيث ينزع المحيط نحو المركز والمركز نحو المحيط ، فيصلان بذلك الى نقطة تمثل بالنسبة الى الهندسة وضعا اشكاليا عندها فقط تنطلق قوة خفية (حتى الآن) تحيل تلك الاشكالية البيولوجية المتوترة والمتماهية الى حياة متعضدة (عضوية) ، كما يحيل الاشكالية الهندسية المتوترة والمتماهية كذلك الى انحرافات هندسية جديدة على صعيد الشكل المستوي ، وذلك عبر ولادة الخط المستقيم القادر على التعبير عن الدائرة (الأم) في صراعها مع مركزها (الأب) في اشكال مختلفة ومغايرة كالمربع والمستطيل والمثلث وشبه

المنحرف ... الخ . وكلها تتضمن بصورة أو بأخرى شكل الدائرة وتنزع نحو شكلها الأكمل . لذلك كان قلق أرسطو من هذه الناحية منصبا على البحث عن قانون تربيع الدائرة .

أما اذا لم تكن العلاقة ، كميا وكيفيا ، متكافئة بين المادة وشكلها الأول (الرمل والماء ، والمحيط والمركز) فان قانون الحركة المادية يختل بدوره في صالح العنصر الأقوى في الثنائية مما لا يؤدي بها الى وضع اشكالي منتج ، بل يقودها الى التفسخ أو الاحتواء ، أي تصبح في مسار حركة العنصر الأقوى ، سلبا ام ايجابا ، فينتفى اولاً الوضع الثنائي ، ثم تنعدم بعد ذلك أية فرصة لعقد زواج إشكالي قابل للولادة واعادة الانتاج ، عبر وضعه على مدارج التصعيد الاشكالي .

ان هذه المقدمة التصورية (المعلمنة بصورة تعسفية واضحة) قد تصلح مدخلاً أولياً لفهم جذور العلاقة النوعية الناشئة بين كل من بيئة البحر وبيئة الزراعة ، وهما صنوا الحياة والوجود الوحيدان في البحرين . هذا من جهة . ومن جهة ثانية قد تصلح ، بصورة أكثر جلاء ، لتفسير خصائص ومميزات كل من البيئتين ، خاصة البيئة الزراعية التي تمثل خصائصها ومميزاتها كثافة تراكمية ونوعية لكونها الدائرة المضغوطة في المركز ، يصعب فهمها من النظر الأول دون الرجوع الى أبعد ما يمكن الرجوع اليه من جذور تكونها ونشأة مجتمعها كنوع بشري حافظ على بنيته منذ آلاف السنين . ذلك اننا «لا يمكن ان نفصل البنية عن النشوء» . (١١٦)

هذا ما توصلت اليه معظم العلوم الحديثة خاصة علم الحياة منذ داروين ونظريته في التطور ، (١١٧) دون ان ننسى سبق ابن خلدون في هذا المضمار . (١١٨)

اننا اذا ما تمسكنا بالقانون البيولوجي القائل بالاصطفاء الطبيعي ، فإننا سنجد أنفسنا نكرر تلك المقولة المستهلكة : ان الانسان ابن بيئته . وما دامت البيئتان الطبيعيتان (البحرية والزراعية) متميزتين الواحدة عن الأخرى ، كما بينا ، منذ الأصول الأولى لنشأتهما المادية (حبة الرمل وقطرة الماء) ، فان تطور كل من هاتين البيئتين ، كل حسب طبيعة ذلك الأصل ، محكوم ضرورة ، في نظر علماء الحياة والاجتماع وغيرهما من العلوم ، بمايسميه إيف باريل «بقانون اعادة الانتاج» (١١٩) الذي يبني عليه نظريته كاملة حول المنظومات الحية في الثبات والتغير ، منذ الأساس البيولوجي المرتبط بمظاهر البيئة الطبيعية حتى سماء الفنون وآفاق الخيال أو صورة المثال كما سميناها . أي من أدنى أطوار الواقع (البنية التحتية) الى أعلى

ابرز صفات اهل البحرين في كل مكان وزمان حسب تحليل ارنست فيشر. (١٢٥)

لقد تحولت جماعة البحر من صيد الأسماك من البحر الى الغوص على اللؤلؤ بعد ان تم اكتشافه، ضرورة، على يد أهم صيادي الأسماك عن طريق الصدفة (ربما في بطن سمكة حسب ما تروي الحكايات الشعبية وهو أمر معقول جدا) اول مرة. ومن هذه الصدفة المحتملة والمعقولة بدأت ملحمة الغوص التي لم تنته اقتصادياً إلا قبل سنوات قليلة (وان كانت سوق اللؤلؤ مازالت مستمرة حتى اليوم بصورة ضيقة) حين وجه اللؤلؤ الصناعي ثم النفط ضرباتهما الأخيرة الى تلك القاعدة الاقتصادية التي دامت آلاف السنين، وذلك في أخر الربع الأول من هذا القرن. وتفرعت من الغوص تجارة اللؤلؤ وغيره من أنواع التجارة كالتمور، كما ازدوجت تجارة التصدير بتجارة التوريد، لتصبح البحرين، من ثم، أهم موانىء الخليج للتصدير والتوريد، حيث تتلقى البضائع من خارج الخليج لتعيد تصديرها الى المنطقة، حتى اليوم. ومع التجارة جاءت الثقافات والديانات والاطماع الأجنبية والاستعمار.

وفي المرحلة المعاصرة فقط، خاصة في اطار النفط والحركة الوطنية والحراك الطبقي، تلتقي البيئتان الزراعية والبحرية لقاء حقيقيا. بعد ان ذهبت عوامل الحياة ونشاطاتها بكل منهما مذهباً (١٢٦) اتجهت فيه حركة البحر نحو الخارج غالباً ونحو الداخل قليلاً شأنها شان حركة الجزر والمد في نسبة الواحد للآخر، ولكن بصورة معاكسة (الجزر أكثر من المد في البحرين نتيجة لضحالة، المياه حولها بصورة عامة. والجزر يعني خروجا من البحرين بالتجارة وغيرها الى البحر والعكس صحيح). في حين اتجهت حركة الزراعة نحو الداخل والالتفاف حول نفسها مما اعطاها صفة الثبات والسكون واعطى بيئتها صفة العزلة والانطواء. ومن هنا تأتي صعوبة تتبع تفاصيل الحركة عبر خيوطها التاريخية الملتفة على نفسها دائما والمتحركة ضمن اطارها السكوني الثابت في نقطة مركزية مضغوطة تمثل نقطة ارتكاز أساسية لحركة البيئة البحرية المنداحة الى ما لانهاية. لذلك تغدو العلاقة بين البيئتين (المركز والمحيط) ضرورية لفهم كامل الدائرة. وفهم أية حركة، أيا كان اتجاه مسارها، نحو الداخل أو الخارج، لا يكون الا بفهم جذورها والكشف عن بذورها الأولى.

ولأن الجو الاسطوري الذي يميز جزر البحرين كما ذكرنا، يؤلف التربة الأولى التي تنمو في اعماقها تلك البذور وتتفرع عنها جذوراً وغصوناً، نجد من الضروري امساك خيط البيئة الزراعية في التفافه الداخلي من طرفه الاسطوري الأول، تماماً كما فعلنا مع

البيئة البحرية من قبل . ذلك لأن قسما كبيراً من خيط التطور التاريخي لكلا البيئتين غائر بعمقه في ضباب الاسطورة وغموض عوالمها الزئبقية الرجراجة بين الواقع والخيال . وهذا ما يؤكده مؤلفا كتاب (البحرين عبر التاريخ) في خلاصة مطافهما حين يقرران «ان تاريخ (البحرين) يتأرجح خلال مختلف العصور في حلقات غير متصلة بين أسطورة «أرض حياة الفردوس» وبين بعض الموجودات الأثرية التي عثر عليها ضمن حفريات البعثة الدانمركية بجزيرة البحرين ، وبين تلك الاساطير وهـذه النتف المتبقية من قطع العصر الحجري وأدوات العصر البرونزي يمكن القول بأن ساكني منطقة (البحرين) كانوا من الصيادين ثم أصبحوا كذلك مزارعين . ومن الزراعة اشتهرت هذه المنطقة وخاصة في عهد الجـرها بالتجارة ومقايضة مختلف البضائع مثل الأخشاب والذهب والنحاس ، كما كانت تصدر اللؤلؤ الى ما جاورها من أمصار . وان (البحرين) كانت كذلك أرضاً مقدسة ذات حضارة مستقلة في مقوماتها وخصائصها وآثارها . (١٢٧)

نحن نعرف ان اسطورة دلمون هي اسطورة نشوء الكون في تزاوج الأرض بالماء (١٢٨)

أي ان أساسها هو تلك الثنائية الأشكالية التي تطور عن طرفيها كل من البيئة البحرية والبيئة الزراعية . لذلك تعبر الاسطورة بجوها الضبابي المتداخل وزمنها الدائري والتفافها حول نفسها في حركة مزدوجة بين الداخل والخارج ، حاملة في طياتها اختلاف الذات بالعالم وتداخل الجزء بالكل وتزاوج الشيء بنقيضة ، تعبر عن أول صيغة جنينية جمعت المركز في المحيط ، والحركة في السكون ، والماء في التراب . لذلك فهي تشكل ذاكرة حية متناسلة في خلايا كل من طرفي الثنائية الاشكالية حتى وهو في أشد صوره اختلافاً وتمايزاً ، ما دام الواحد منهما يدل على الآخر ، في حالة التناقض ، ويشير اليه ويتكامل به ، تماما كما تشير الحركة الى السكون ، وتدل الدائرة على مركزها ، ويمتزج الماء بالتراب في حركة تكاملية سبق وان وقفنا عندها طويلاً (حبة الرمل وقطرة الماء) ضمن قانون حـركة المادة . وهذا يعني ان مضمـون الاسطورة يوازن بين طرفي ثنائية الحياة ضمن اطارها الاشكالي المتبادل الحركة والوضع والصورة . «وما أسطورة تلمون الا حكاية تدور حول التفاعل بين الأرض (التربة) والماء ... في تمازجهما وحدة ... أصل الكون» . (١٢٩)

غير ان تدقيق النظر في مضمون الاسطورة وصياغتها يكشف لنا عن فروق أساسية بين طرفي تلك الثنائية التي تعبر عنها . وهذه الفروق هي التي تجعل منهما طرفين صالحين لخلق اشكالية ثنائية قابلة للنمو والتوالد والامتداد . ان الفرق بين الماء والأرض أوضح من ان يشار اليه ،

فالأول ذو قوة ايجابية قادرة على الحركة والمبادرة والاخصاب ، اذ «يعتبر انكي سيد الأرض ومصدر الذكاء والفهم وانكي سيد الاخصاب ومن الاخصاب تنبع الولادة وهذه الأخيرة هي سر الحياة» . (١٣٠) في الوقت الذي تجد الطرف الآخر (الأرض) ذا قوة سلبية (وينبغي الالتفات الى كون السلبية صفة للقوة) فهو ساكن ، مستقبل للخصب ، متلق ، منطو على نفسه ، لكنه في نفس الوقت منتج ، بسبب تلك الصفات السالبة ، للعطاء ، دونه يصعب التكهن بمصير الطرف الآخر (الماء) وحتى بوجوده . «وهكذا نرى الأرض (كأنثى) ساكنة ومستقبلة للاخصاب ومنتجة للعطاء ... بينما الماء (الذكر) فيه خلق وهو متحرك يجري بارادة ولتحقيق غرض ما» . (١٣١)

وأوضح دليل على ضرورة التمييز بين الطرفين بقدر ضرورة التوحيد بينهما (وهذا هو الطابع الاشكالي في الثنائية) هو مخاطبة نص الاسطورة كلاً من الطرفين (الالهين : اله الأرض واله الماء) بصيغة الجمع (انتم) ، وليس بصيغة التثنية (المتوقعة في مثل هذه الأحوال) والتي تؤكد على ثنائيتهما التقابلية اللااشكالية ، وليس أيضاً بصيغة المفرد التي يمحي فيها أثر طرف على حساب الآخر ، دون ان يتيح فرصة لقيام مبدأ الثنائية . أما صيغة الجمع المستعملة فهي الوحيدة القادرة على طرح معادل لغوي قادر على تصوير حالة تفاعلية (اشكالية) نامية ومتطورة ومنتجة عبر قانونها الاشكالي الذي يداخل ضمناً بين صيغة المفرد وصيغة المثنى في اطار صيغة الجمع الشمولية . ذلك ان «كل هو فردي انما هو وجه للهو الجمعي» .(لعبة المعنى : ١٣٣) .

ان ما يلفت النظر ، حقاً ، في نص هذه الاسطورة الاشكالية هو ارتكازه بصورة واضحة وغنية على مفردة «الأرض» مسرحاً ومكاناً تدور على تربته حركة كل من الالهين المخاطبين : اله الماء (إنكي) والهة الأرض (نينهر ساجا) ، «وهذه الجزيرة كانت قد منحت للالهين إنكي ونينهر ساجا معاً وذلك عندما قررت الآلهة (في فجر الخليقة) تقسيم هذا الكون فيما بينها» . (١٣٢)

وهذا التأكيد على عنصر الأرض بتكراره في صياغة النص بصورة لافته متبوعاً بصفات الطهر والنقاء والحبور والنور والنداوة والعذرية والدوران والخلود (في الوقت الذي ينحصر وجود (انكي) في صيغة المخاطبة الجمعية) ، وبتكراره المزدوج بين الصياغة (التي كادت تقتصر عليه) ومضمونها الثنائي الذي كانت الأرض طرفاً فيه ، دليل قوي في نظرنا على اعتبار عنصر الأرض مركز العلاقة بين طرفي الثنائية (الأرض والماء) انها مركز الدائرة الذي مهما اتسع محيطها في حركة لا قرار لها كالبحر . فهو عائد اليها لا محالة ، لأنه موجود فيها وهي موجودة فيه . كل طرف يحمل الآخر بطريقته الخاصة وينطوي عليه ضمن نسيجه

وتركيبه ، تماما كعلاقة حبة الرمل بقطرة الماء حسبما فصلناها . واذا كانت الأرض واقعا ماديا صلبا فهي لا تعدم الاحتفاظ بامكانية السيولة والذوبان في قانون الماء متحولة الى طين لازب (هو خميرة الحياة) . واذا كان الماء سيولة دافقة فهو لا يعدم الانطواء على قانون صلابة المادة الرملية التي يتحول بموجبها أيضا الى نفس تلك الخميرة الحية ، حيث يلتقي الالهان : انكي ونينهر ساجا في لحظة اشكالية وسطى . (١٢٣)

لقاء متكافئا تسوده وحدة الضدين السالب والموجب على سرير الزواج (الأرض) . وهناك على سرير الأرض نفسه يتوالدان ويتكاثران وعلى سرير الأرض فقط ، لا الماء ، يتجذران ويؤسسان لهما وجوداً وخلوداً . (١٢٤)

في أرض الخلود . «وهكذا تتكرر الحكاية نفسها بين جريان وتزاوج وتوالد . لذلك تتكرر في نص الاسطورة مفردة الأرض ، وتقف واقعاً مادياً صلباً يصل بين الشكل والمضمون ، وسريراً مثيراً يتزاوج فوقه وتحته الالهان المتشاكلان . وبذلك لا يجد الماء نفسه الا في الأرض ، في حين لا تجد الأرض اشواقها الا بالماء . «فمن فاعلية تلك الالهة تأتي نباتات «المأكل» ونباتات الثياب (الملبس) ... ومن هذه وتلك تتوالد عدة قوى التي مهما صغرت فهي لم تزل زاخرة بنفعها للحياة» . (١٣٥)

ان عنصر الأرض في الاسطورة ، تؤدي ثلاثة ادوار وظيفية ، فهي تهيىء مهاداً للتزاوج بالماء ، وتتحول بفعل ذلك التزاوج الى خميرة حية ، وأخيراً تتحول تلك الخميرة الى رحم خصب وولود يرهص بكل امكانيات الخصب والولادة الى ما لا نهاية . ولكن يتم كل ذلك عبر قوانين ثابته ودورات منظمة في فصول متعاقبة ومتكررة غيرانها متجددة دائماً رغم تكرارها وتعاقبها وانتظامها ، تماماً كحركة النول في يد الحلاج (اذا شئنا تضييق مساحة القانون) ، وكحركة الأرض حول نفسها وحول الشمس في وقت واحد (اذا ما شئنا توسيع تلك المساحة) . لذلك فان الأرض أكثر ثباتاً وصلابة وقابلية للتحول والتفاعل من الماء وان كان ذلك لا يتم لها الا بالماء ذاته . فهي الماضي ، اذن ، والحاضر والمستقبل . أما الماء فهو تلك القوة التي يمكنها الربط بين تلك الأزمنة ، انه الزمن نفسه ، حيا ، متحركاً ، ومتحولاً الى مختلف اشكال المادة صعوداً الى البخار والحرارة ونزولاً الى الطين والصخر . (١٣٦)

ولكن الأرض هي الشكل الأوضح والأصلب من اشكال الماء ، انها المكان المنتج الخصب الذي يحقق فيه الزمان وجوده الحقيقي بحيث يتحول الى واقع . وهذه الاشكالية الزمكانية المجردة كما نلاحظ ، ترتبط اشد الارتباط بعلاقة الماء بالأرض ، تلك الاشكالية المادية ـ الاسطورية . وبهذا الارتباط تتغذى اشكالية الواقع بالمثال التي وقفنا عندها من قبل ، دماً

جديداً .

لقد كان للتفاعل بين الاله انكي والالهة نينهر ساجاً ، بعد الذي اوضحناه ، نتاج كثير متعدد الاشكال والصور ومتطور المراحل ، كله يميل الى تأكيد حقيقة الماء في الأرض بصورة ملحوظة وأكثر صلابة من تأكيد حقيقة الأرض في الماء التي هي موجودة ولكن تحتاج ، بسبب توزعها الحركي المتواصل واتساع محيطها اللا محدود ، الى رصد مختلف لتلمسها وحصر أشكالها . ومن تلك الصور والاشكال التي تعنينا هنا في اطار البيئة الزراعية في البحرين ، مختلف النباتات (منتوجات الزواج الالهي الأول بين اله الماء والهة الأرض ، والتي هي بدورها آلهة النبات باختلاف انواعها كما تقترح الاسطورة التي تضع لكل منها اسماً مثل أوتو Uttu الهة «الثياب والنسيج .[١٣٧]

أما أكمل أشكال هذه النباتات (الإلهية) وأكثرها صلابة وبقاء وتجسيداً لمركز حركة الماء في شكلها المادي المحسوس ، فيتمثل في شجرة النخيل ، تلك الإلهة الاسطورية المسماة انزك INZUK في العصر الدلموني والتي تمثل مركز الحركة بالنسبة الى الماء من حولها ومن خلالها .[١٣٨]

انها المسئولة عن حفظ الحياة والحضارة والوجود والحكمة والذكاء [وكلها من صفات الماء (الإله انكي)] في ما ضيها وحاضرها ومستقبلها ، وفي مختلف صورها وأشكالها من طورها الأدنى المتمثل في الاعشاب والطحالب الى طورها الأعلى المتمثل في الانسان بمختلف أبعاده .[١٣٩]

ولم تتزعزع مكانة هذه الإلهة الأم (النخلة) التي كانت تمثل محور البيئة الزراعية في البحرين وكل المنطقة الا مع بدايات القرن في وقت واحد تقريباً مع صنوها البحر (زوجها الماء) بعد ان تحول كل منهما الى اشكال جديدة من ، الواقع المعاصر ، وان كانت هذه الاشكال مناقضة لطبيعتهما الأساسية أو اشكالهما الأولى التي تمثلت في البنية العامة لكل من البيئتين البحرية والزراعية في وقتها ، مما دفعهما في الوقت الراهن أمام تطور وزحف اشكال الواقع المعاصر الى الانحسار والتراجع عن حياة الانسان الحقيقية ولكن لكي يسكنا ذاكرته بصورة حية فعالة تضغط عليه أكثر مما سبق في تحديد أشكال الواقع الجديد . وهذا ما جعل هذين العنصرين بالذات ينفجران انفجاراً في تجربة الفن والأدب والشعر والثقافة المعاصرة في البحرين والخليج أكثر من أي وقت مضى حين كانت البيئتان واقعاً حياتياً معيشاً كما هو النفط وغيره من الصناعات في وقتنا الراهن التي لم تستطع ان تخلق أدباً يعبر عنها بصورة مباشرة . ذلك ان الابداع أساساً ، وليد الذاكرة والحلم .

وأخيراً ، يمكن القول ان غياب عنصر الصحراء ضمن بيئات البحرين ، مما يشكل خلخلة في بنية

الحياة ونقطة ضعف واضحة في مجمل تاريخ هذه الجزر ، قد جعل البيئتين الأخريين الوحيدتين (الزراعة والبحر) يتعاونان ويتكافلان في حركة تفاعلية متميزة جعلت لكل منهما شأنا خاصا من جهة ، كما جعلت للعلاقة بينهما شأنا أكثر خصوصية تميزت به جزر البحرين على سائر منطقة الخليج . وهي خصوصية أفرزتها تلك التوالدات الاشكالية المستمرة التي ظلت تسم واقع البحرين على الصعيدين الجغرافي والتاريخي نظراً لعدم تكامل أضلاع المثلث البيئي ، مما دفع بالضلعين الوحيدين أن يقوما ، ولو بطريقة التصور والوهم أحيانا ، بدور ذلك الضلع الغائب وذلك بخلق علاقات اشكالية متواترة ومتوالدة تملأ الفراغ الواقع لشكل البيئة مما يخلق توازنا ، ولو وهميا كما ذكرنا ومؤقتا ، لذلك الشكل البيئي الناقص . يقول الدكتور محمد غانم الرميحي : «أما في البحرين والتي تبلغ المساحة المزروعة فيها أقل من عشر مساحتها الكلية فقد كانت الزراعة من المصادر الاقتصادية المهمة في حياة السكان قبل البترول» . (١٤٠)

وهذا يعني ان البيئة الزراعية بيئة ضيقة محدودة على أهلها ، لذلك كان دائما يكملها البحر ويوسع من افقها الضيق وهو ما جعل أهل البيئة الزراعية كثيراً ما يشتغلون بالغوص على اللؤلؤ وصيد الأسماك ، مما جعل العلاقة دائما بين البيئتين علاقة مباشرة ، ذهاباً واياباً ، يقول أمين الريحاني : «أما سكانها الذين لا يغوصون ولا يركبون لرزقهم البحار ، فهم يزرعون الأرض والذين لا يزرعون يتاجرون» . (١٤١)

ان غياب الصحراء ، في حقيقة الأمر ، عن بيئة البحرين كان عظيم الحضور ، وذلك بتحويل واقعها المفقود الى تمثلات فنية وواقعية ذات طابع اشكالي دائما ، تمثلة «الصورة البديل» ، سواء على صعيد الواقع أو الفن . ان الذاكرة هنا تلعب دور الواقع ، والواقع يقوم بدور الذاكرة . لذلك كان البحر والنخلة دائما رمزين على الرغم من انهما يمثلان دعامتي الواقع المعيش . تقول الدكتورة سهير القلماوي في دراسة لها عن أدب البحرين : «أما الطبيعة فتقف النخلة فيها وقفة الناقة عند الشاعر الجاهلي» .(١٤٢)

واذا كانت الناقة تمثل حركة الزمن في حياة البدوي ، فان النخلة تمثل لديه المكان المفقود أو الزمن الواقف عن الحركة . وذلك ما وجده الانسان في البحرين متمثلاً في البيئة الزراعية ، فتحولت لديه صفات الناقة (الزمانية) الى تعلق بصفات المكان الثابته أو المتحركة في سكون مكثف مضغوط أشبه بالزمن الدائري (فكرة الخلود) تماماً كما فعل جلجامش من قبل . يقول الدكتور فؤاد اسحق الخوري : «يعرف أهل البحرين بعضهم بعضاً ، كما يعرفون الاماكن والقرى والينابيع العذبة ، بألفة واضحة يصعب معها

فصل الحياة الخاصة عن الحياة العامة . يعرفون بساتين النخيل ومصائد الأسماك (الحضور) والمقامات الدينية والمزارات بأسمائها ومواضعها وتاريخ بنائها وملكيتها .

هذا هو الوضع قبل سنوات فقط حين استقرأ المؤلف واقع البحرين الحديث وعاينه معاينة ميدانية شخصية ، وهو وضع منحدر منذ آلاف السنين كشفت عن حقيقته الكشوفات الأثرية الحديثة في البحرين . وكان يمكن ان يكون مثل هذا الواقع الخصوصي متحجراً ومنعزلاً تماماً بعد مرور هذا الزمن الطويل عليه ، لو لا أن بيئة البحر تمثل وجهه الآخر المتحرك أبداً والذي يغذي بمده وجزره خصائص ومكونات الواقع الثابته في البحرين بنسغ من التجدد والتحول والاستمرارية . فالبيئة الزراعية التي تتسم حياتها بالثبات وقوانينها بالاستقرار وجوها بالسكون كثيراً ما تتعامل مع البحر ، بل نادراً مالا تتعامل معه ، سفراً أو تجارة أو غوصاً على اللؤلؤ أو صيداً للأسماك الى غير ذلك . والعكس صحيح أيضا بالنسبة الى بيئة البحر ، وان كان ذلك بصورة أضيق ولعل البيئتين الزراعية والبحرية تضيفان الى تسمية البحرين بهذا الاسم المثنى تفسيراً جديداً الى ما هو موجود من التفسيرات الموضوعية الكثيرة .

- الدكتور علوي الهاشمي
- جامعة البحرين
- كلية الآداب
- قسم اللغة العربية

- يوليه ١٩٩٢م

الهوامش :

٨١) انظر مادة (وقع) في : القاموس المحيط ، للفيروزابادي ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، ط ؟ ، تاريخ ؟
ولمزيد من التفاصيل في مادة (إيقاع) راجع مقالة (مفهوم الايقاع) لمحمد الهادي الطرابلسي المنشور في (حوليات الجامعة التونسية) كلية الاداب العدد ٣٢ عام ١٩٩١ .

٨٢) للتحقق النظري والعملي (العلمي) من تلك التحولات الثنائية ، يمكن الرجوع الى دراسة إنجلز : مقدمة «ديالكتيك الطبيعة» ، المنشورة في (مختارات ماركس انجلس ، الجزء الثاني ، موسكو ، دار التقدم . تاريخ ؟ ، ط ٢ .

٨٣) الوهم والواقع : ص ١٩٩

٨٤) إن ما يعنينا من مقولات انجلز واطروحاته ومنظوماته الفكرية ، بعدها الفلسفي المتصل بتفسير المادة وقوانينها ، وليس البعد الايديولوجي (الماركسي)

٨٥) حسب انجلز فالمادة وحركتها لا تفنى ، بل تتحول الى وجوه جديدة من المادة والحركة الى ما لا نهاية ، فهو يقول : «ان علم الطبيعة الحديث مضطر الى أن يقتبس من الفلسفة الموضوعة القائلة باستحالة زوال الحركة : وبدون هذه الفلسفة الموضوعة ، لم يعد في وسع علم الطبيعة أن تقوم له الآن قائمة» ...
هذا هو الدوران السرمدي الذي تتحرك فيه المادة : انظر مقالة انجلز (مقدمة : ديالكتيك الطبيعة) مختارات ماركس انجلس . دار التقدم ، موسكو . ترجمة الياس شاهين .

٨٦) فلسفة الحياة الروحية : د. مقداد يا لجن ، ط ١ دار الشروق ، بيروت ١٩٨٥ ، ص١٣ .

٨٧) الوهم والواقع ص ١٩٧ .

٨٨) مجلة «الوثيقة» ، البحرين ، العدد الثالث ، السنة الثالثة ، يوليو ١٩٨٣ .

٨٩) يرى بعض الباحثين ان تاريخ دلمون القديمة يمتد الى ما قبل أسطورة جلجامش نفسها بحيث يفترض أحدهم «ان (اينكي) كان في البداية إله ديلمون وان الملحمة الأسطورية انتقلت من ديلمون الى بلاد ما بين النهرين ، ومن المحتمل ان السومريين اعتقدوا بأن آلهتهم كانت تقضي جل وقتها في فجر البشرية على أرض ديلمون» انظر مقالة (بلاد دلمون الغامضة) بقلم ستيفان نيكيتوف . مجلة الوثيقة ، العدد التاسع ١٩٨٦ . وانظر ايضاً اثر دلمون بالنسبة الى الحضارة المصرية القديمة في مقالة (تلك الجزيرة على حافة العالم) بقلم مايكل رايس . مجلة الوثيقة . العدد العاشر ١٩٨٧ .

٩٠) يذكر ابن خلدون في مقدمته عن دور ذلك المحيط المائي واثره في حياة شبه

الجزيرة العربية مما يجعلها موطناً «صالحاً» للحياة رغم وقوعها فيما حدده بالاقليم الأول والثاني الذي تعسر فيه الحياة «فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث ... فكان لرطوبتها اثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر» ص ٦٦ ـ المقدمة الثالثة . دار العودة ، بيروت ١٩٨١ .

٩١) ديا لكتيك الطبيعة .

٩٢) مجلة «الوثيقة» ، البحرين ، العدد ٣ ، السنة ٣ ، يوليه ١٩٨٣ .

٩٣) يرى الدكتور سيد القمني انه «في مناطق الخصب ، التي بدأ الأقدمون يستقرون فيها ، بدأ صراع انساني رفيع القدرات بين الانسان والطبيعة ، من أجل أن يثبت أقدامه في مقرها ، رافضاً التراجع الى طور البداية والبداوة ، تطلعاً الى حياة أقدر على تحدي مزاج الطبيعة المتقلب ، وتحديها المستمر لهذا الكائن الذي نشأ من رحمها ، ويحاول السيطرة عليها وكبح جماحها لصالح وجوده واستمراره» .
انظر (الأسطورة والتراث) د. سيد القمني ، ط ١ ، دار سينا للنشر ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ١٥٧ .

٩٤) المصدر السابق .

٩٥) استخدامنا لمصطلحي القوة والفعل ، هنا ، بالمعنى الفلسفي المعروف حول الوجود المتحقق والوجود الممكن .

٩٦) هذا التحليل ينطبق على كل القوى التي حاولت الاستيلاء على البحرين ، خاصة القبائل العربية .

٩٧) لمزيد من التفاصيل حول اشكالية «الدولة والقبيلة» في البحرين يمكن الرجوع الى كتاب (القبيلة والدولة في البحرين) للدكتور فؤاد اسحق الخوري ، معهد الانماء العربي ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٣ .

٩٨) لمزيد من التفاصيل عن حياة البداوة راجع مقالة هارولد ديكسون (عرب الصحراء) في مجلة الوثيقة العدد ١٨ يناير ١٩٩١ .

٩٩) يتجاوز سحر دلمون الانسان البدوي ليبلغ انسان الحضارتين القائمتين آنذاك في أرض الرافدين ومصر راجع مقالتي (بلاد ديلمون الغامضة) و(تلك الجزر على حافة العالم) في مجلة الوثيقة المشار اليهما سابقاً .

١٠٠) ملحمة جلجامش : فراس السواح ـ المقدمة ص ٩ .

١٠١) البحرين عبر التاريخ : عبدالله بن خالد آل خليفة ، وعبدالملك الحمر ، ص ٢٥ ، ط ٢ ، ١٩٧٢ .

١٠٢) المصدر نفسه ص ١٥٤ .

١٠٣) انظر سورة الرحمن : الأيات (مرج البحرين يلتقيان .. الخ) والتي تشير الى ينابيع المياه العذبة وسط مياه البحر المالحة . وهو ذاته ما أشارت اليه ملحمة جلجامش . وطرفة بن العبد في معلقته يشير الى سفن البحرين .

١٠٤) اكتشفت في البحرين أدوات صيد بدائية ترجع الى عصور الانسان الأولى .

انظر (البحرين عبر التاريخ) ص ١٥ .

١٠٥) هذا الاسم كان يطلقه تجار حضارة ديلمون القديمة في سجلاتهم التجارية على اللؤلؤ . انظر (الوثيقة) .

١٠٦) انظر نموذج المركب البدائي ويسمى (بوبرية) وتوجد نماذج منه حتى اليوم على سيف البحرين . انظر (البحرين عبرا لتاريخ) ص ٢٢.

١٠٧) يقول السير ارنولدت ويلسون عن منطقة الخليج «فقد أعطاه موقعه المركزي على أحد الطرق بين الشرق والغرب منذ فجر المدنية ، أهمية خاصة ، حيث كان مسرحاً لأحداث عظيمة حددت اتجاه تطور الجنس البشري ، في الوقت الذي يرجح أن البحر المتوسط انذاك لم تمخر عبابه سفينة» ص ٣١ (الخليج العربي) ترجمه عبدالقادر يوسف ، مكتبة الأمل الكويت .
ويرى مايكل رايس في حديثه عن الفراعنة «ان تواجد الملاحة كعنصر هام يبطل فكرة وصولهم الى مصر عبر الصحراء العربية . وانه من المحتمل انهم انحدروا الى مستوطنة ما في الخليج «كجزر البحرين» انظر الوثيقة العدد العاشر ١٩٨٧ كما تروي بعض المصادر التاريخية ان الفينيقيين أيضا كان منطلقهم الأول من جزر البحرين .

١٠٨) الخليج العربي : قدري قلعجي ، فصل الملاحة والحركات البحرية في الخليج العربي ص ٣٧ ، دار الكاتب العربي والمزيد من التفاصيل عن التاريخ البحري وأهميته في منطقة الخليج انظر (الفصل الأول) من كتاب (الخليج العربي) للسير ارنولدت ويلسون . ترجمة د. عبدالقادر يوسف ، مكتبة الأمل ، الكويت : ط ؟ ، ت ؟ .

١٠٩) لمعرفة المزيد عن تفاصيل الغوص على اللؤلؤ وتجارته انظر (وثائق تاريخية عن صيد اللؤلؤ في البحرين) بقلم الدكتور علي أبا حسين وب.ك. نارين في مجلة (الوثيقة) العدد العاشر ١٩٨٧ .

١١٠) المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي ، اطروحة دكتوراة دولة ، الجامعة التونسية ١٩٨٣ ، مطبوعة على الآلة الكاتبة . ص ٥٨ . وقد طبع جزء هام منها تحت العنوان نفسه ضمن سلسلة كتاب (عالم المعرفة) الكويتية عدد ١٠٥ (سبتمبر ١٩٨٦) .

١١١) ملوك العرب : أمين الريحاني ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

١١٢) «يشكل هذا الارخبيل أكبر مجموعة جزرية في الخليج العربي وأقدمها عمراناً ، فقد أوردت النصوص التاريخية أن أول تقدم تجاري بحري ، في هذه الجزر على يد الفينيقيين والكنعانيين» ص ١٣٨ .
انظر للمزيد من التفاصيل «فصل ارخبيل البحرين» في كتاب (جزر الخليج العربي - دراسة في الجغرافية الاقليمية) لمؤلفه سالم سعدون المبادر ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨١ ، ط ؟ .

١١٣) لا تختلف أي من المصادر التاريخية على هذه الحقيقة المسلمة والتي أعطت

البحرين صيتها الواسع منذ عصر الحضارة الدلمونية ، إذ اقترن اسمها باللؤلؤ حتى العصر الحديث قبل أن يكتشف اللؤلؤ الصناعي وبعده النفط الأسود يقول الريحاني في ملوك العرب (ص ٢٢٦ ، ج ٢) : «ان اللؤلؤ مصدر الثروة في البحرين وأشهر ما اشتهرت به الجزيرة ..... وقد أجمع الاخصائيون ان مغاص البحرين هو أكبر مغاص في العالم ، مثلما أجمع الصاغة ان لؤلؤ البحرين يفوق صفاء وحسناً سائر اللآلىء» . ويتغير الأمر من حال الى حال خالقاً اشكالياته الخاصة المتصلة والمتولدة عما سبقه من واقع . انظر لذلك (وثائق تاريخية عن صيد اللؤلؤ في البحرين) المشار اليه سابقاً : (الوثيقة) .

١١٤) جزر الخليج العربي ص ٣٠ .

١١٥) مقدمة : ديا لكتيك الطبيعة .

١١٦) التجدد الاجتماعي : إيف باريل ، ص ٥٨ . انظر فصل (تعريفات اعادة الانتاج البيولوجي) .

١١٧) انظر كتابه الشهير (أصل الأنواع) ، خاصة فصل (الانتخاب الطبيعي) .

١١٨) انظر المقدمة الثالثة والرابعة والخامسة (ص ٦٥ ـ ٦٩) في مقدمة ابن خلدون . وليس من قبيل الصدفة أن يبدأ ابن خلدون مقدمته في أحوال المجتمع والعمران (أي التاريخ الاجتماعي) بتلك البسطة الواسعة التي تتناول أثر البيئة بمائها وهوائها وخصوبتها وجبالها وبحرها وانهارها وغير ذلك على أحوال البشر وألوانهم وأخلاقهم . ذلك ان صاحب المقدمة ، في اعتقادنا هو أول من أدرك بوعي ان الجغرافية هي عبارة عن تاريخ متجمد وان التاريخ بالمقابل هو جغرافيا متحركة .

١١٩) المصدر السابق : المؤلف بقسميه الأول والثاني .

١٢٠) ألمح ، هنا ، الى ذلك المفهوم الأيديولوجي الهش الذي ظل كثير من المثقفين يتشبثون به ، فوقياً ، مؤكدين على ضرورة دراسة الوطن العربي أو منطقة الخليج كوحدة متكاملة ، متهمين غير ذلك بالاقليمية والعنصرية والشوفينية . في الوقت الذي لا يمكن أن تكون هناك وحدة حقيقية (غير وهمية ولا فوقية) إلا بدراسة عناصرها المادية القائمة على خصوصية كل جزء وما يستطيع أن يقدمه من غنى وقوة لذلك الكل الموحد . وكما لا تكون هناك أية عالمية أو انسانية أو أممية دون خصائص قومية ووطنية ، فكذلك لا وحدة عربية أو خليجية دون ركائز من الخصوصية والتمايز الاقليمي . حتى في اطار الاقليم الواحد والوطن الواحد لابد من فحص التمايزات التي من خلالها تبنى وحدة الاقليم ووحدة الوطن على أساس من التنوع والتعدد والغنى في الخصائص والالوان كشأن قوس قزح .

١٢١) التجدد الاجتماعي : إيف باريل ص ٥٨ .

١٢٢) نفسه ص ٥٩ .

١٢٣) انظر (البحرين عبر التاريخ) ص ١٥ . ويرجع تاريخ هذه الأدوات الى

عشرين أو خمسين الف سنة خلت ، كما يذكر المصدر .

١٢٤) المصدر نفسه . انظر فصل (البحرين قديماً) .

١٢٥) انظر مقالة (أدب البحر) لأحمد محمد عطية ، مجلة الاقلام ، عدد نوفمبر ١٩٧٧ .

١٢٦) هذا لا يعني ان البيئتين لم تلتقيا ابداً قبل ذلك فالجغرافيا والتاريخ كلاهما يجبران على التقاطع في نقاط كثيرة يلتقيان فيها ويتداخلان من خلالها ، وقد أشرنا الى تجارة التمور البحرية والى القوارب المصنوعة من جريد سعف النخيل التي خاض عليها الانسان البحري أول مغامراته . كما ان اكثر صيادي الأسماك حتى عصرنا الراهن هم من البيئة الزراعية ومنهم صناع شباك الصيد والسفن .. الخ .
ولمزيد من التفاصيل عن هذا اللقاء ومواضعه وتقاطعاته بين البيئة الزراعية والبحرية يمكن مراجعة كتابنا (ما قالته النخلة للبحر) دار الحرية ، بغداد ١٩٨١ .

١٢٧) ص ٣٢ .

١٢٨) نفس المصدر ص ١٦٩ . انظر القسم الخاص بأسطورة تلمون .

١٢٩) نفس المصدر ١٦٨ (البحرين عبر التاريخ) .

١٣٠) نفس المصدر .

١٣١) يرى اريك فروم في تفسيره لأسطورة الخلق ان الآلهة الذكور استعاضوا عن الولادة البيولوجية (الطبيعية) ، حتى لا تتفوّق الالهات عليهم ، بالخلق الفني والابداع الفكري . «فحتى يتسنى للرجل أن يهزم الأم لابد له من البرهان على انه ليس أدنى منها قيمة ، وعلى انه يتمتع هو الآخر بموهبة التوليد . ولكن بما انه لا يملك رحماً يلد (أو يولد) فقد كان عليه أن يلد بطريقة أخرى : كان عليه أن «يخلق» بفمه ، بكلماته ، بافكاره» .
انظر (اللغة المنسية) مدخل الى فهم الأحلام والحكايات والأساطير : اريك فروم . ترجمة حسن قبيسي ، ط ١ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ١٩٩٢ ، ص ٢١٠ .

١٣٢) نفس المصدر ص ١٦٩ .

١٣٣) يوصف انكى بانه إله الماء (الآسن) . اما نينهر ساجا فهي تتحرق وتذوب شوقاً اليه . وفي لحظة مركبة من ذوبان الصلب وتصلب الذائب ، يلتقي الطرفان ويتزاوجان وينتجان .

١٣٤) نفسه ص ١٧٠ .

١٣٥) نفسه ص ١٧٤ .

١٣٦) مثلما قال داروين وغيره من علماء الحياة في العصر الحديث ، كان ابن خلدون يقول في تحولات المادة ويسميها (عالم العناصر المشاهدة) وكيف «تدرج صاعداً من الأرض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متصلاً بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد الى أن يستحيل الى ما يليه صاعداً وهابطاً ويستحيل

بعض الأوقات والصاعد منها الف مما قبله الى ان ينتهي الى عالم الأفلاك وهو الطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط وبها يهتدي بعضهم الى معرفة مقاديرها واوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها» . المقدمة ص ٧٦ (المقدمة السادسة) .

١٣٧) البحرين عبر التاريخ ص ١٧٠ .

١٣٨) للمزيد من التفاصيل الدقيقة في مسالة هذه العلاقة خاصة بين الانسان والنخلة والانسان والبحر أنظر دراستنا الموسومة (ما قالته النخلة للبحر) .

١٣٩) يرى ابن خلدون في رصده الدقيق (رغم عموميته) لأشكال المادة ان (النخل) هو آخر افق النبات الذي تمثله الحشائش وما لا بذر له والذي هو متصل مباشرة بافق المعادن قبله . وان افق النبات في شكله الأعلى المتمثل في (النخل) متصل بأول افق الحيوان مثل الحلزون والصدف . ويفسر ابن خلدون معنى التحول المادي عبر قانون ما يسميه هو (الاتصال) بقوله : «ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر افق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده» . ص ٧٦ ـ المقدمة السادسة .

١٤٠) البترول والتغير الاجتماعي ص ٥٦ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٥ .

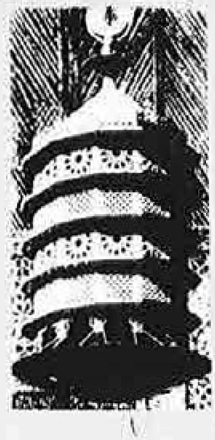
١٤١) ملوك العرب ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

١٤٢) دراسات في أدب البحرين : معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة .

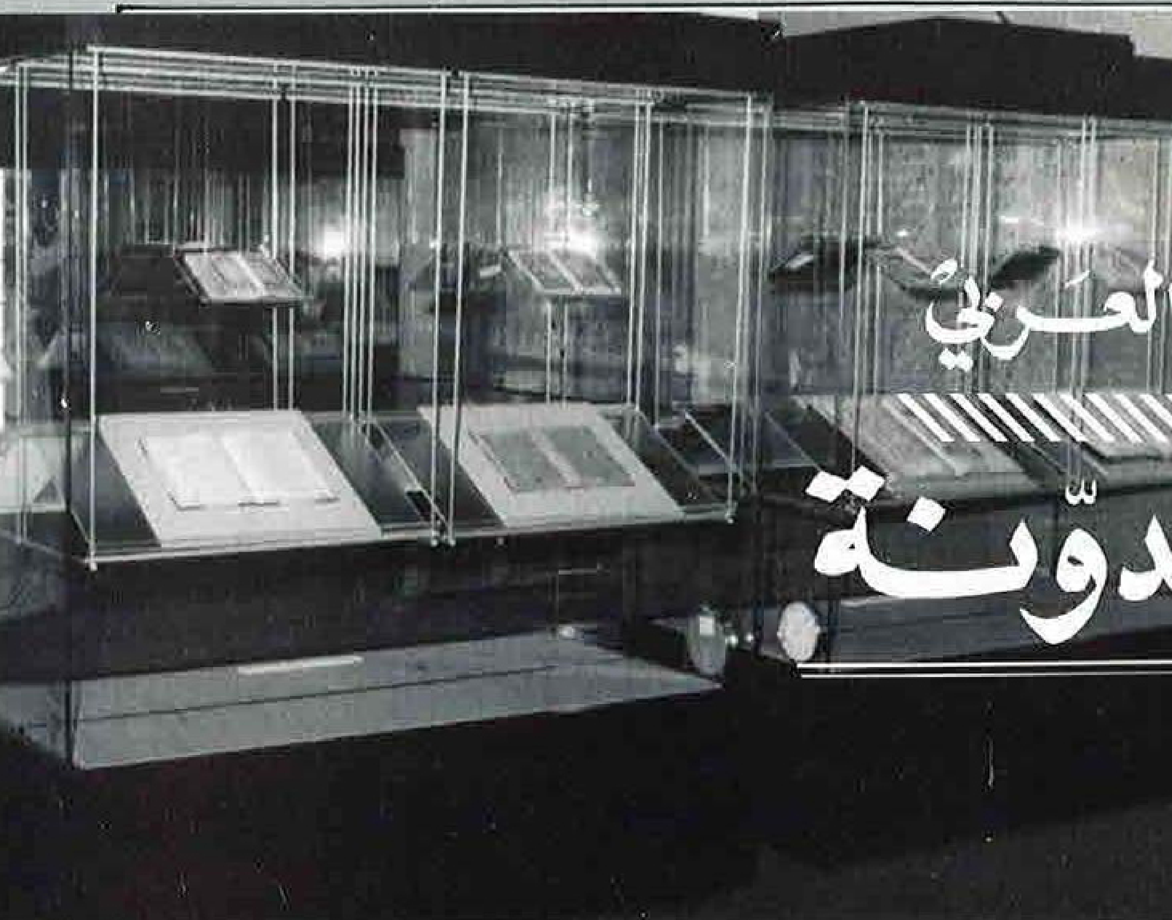
إعـادة ترتيب أوراق المؤرّخ

الرّواية الشفوية والمـ

اسماعيل نوري الربيعي



ما هو الهام وما هو الأقل أهمية بالنسبة لمصادر المؤرخ ؟ وأي المظان والمراجع التي عليه ، أن يوليها جهده وانتباهه ورعايته : فالمؤرخ يجد نفسه وقد أعياه البحث في الفرز والانتقاء بين كم المصادر التي تتناول موضوع بحثه . واذا ما تماثلت بين يديه عناصر البحث التاريخي ، حتى نراه يشق مدخلا جديدا في ترتيب الحوادث التاريخية ، وفق ما تقدمه النصوص التي قام بجمعها . وغالباً مايتجه نحو تبني وجهات النظر المدونه ، ليخلص نفسه من مأزق الدخول في اشكالية مدى الصدق وقوتها ورصانتها بالنسبة للرواية الشفوية . حتى عمد البعض من المؤرخين الى



التغاضي عن الروايات ، حتى واهمالها تخلصاً من فتح ثغرة يمكن من خلالها أن تكون سبة عليه حتى كانت الغلبة في النهاية للنص المكتوب ، ازاء مكانة ثانوية للرواية الشفوية ، يجعلها المؤرخون عادة في ذيل قائمة المصادر التي اعتمدوها .

وغالبا ما يرجع المؤرخ الى الرواية الشفوية ، في حالة فقدان النص المكتوب ، واتجاه كهذا يقود بكل تأكيد الى اهمال وقائع رئيسية تمتلك مفاتيح هامة لمعالجة الواقعة التاريخية . وبهذا يكون الانتاج التاريخي قد خسر حقائق هامة ومعطيات شديدة الالتصاق بالحدث . نتيجة للهامشية التي يقدم عليها المؤرخ في

تناولة للرواية الشفوية خلال المقابلات الشخصية التي يعمد اليها . وليس أبلغ دلالة من الأشارة التي يعمد اليها د . مسعود ضاهر حيث يقول : «ان من يعتقد أن الوثائق الشفوية لاتصلح كمستندات علمية لدراسة التطور الاجتماعي . يعزب عن باله ان الوثائق المكتوبة كانت روايات متناقلة قبل أن تدون . لذا فالوثائق المكتوبة ليست أكثر أهمية من الوثائق الشفوية ، ولا تمتاز عليها الا بالتدوين . واذا كانت هناك ضوابط منهجية كثيرة لاثبات أصالة النص المكتوب وخلوه من الزيف والتزوير فان من السهل وضع ضوابط مماثلة لاثبات أصالة المصدر الشفوي[1] . وليس المقصود بسهولة وضع الضوابط تبسيط المسالة أو تسطيحها ، بقدر ما هو اشارة الى حصر معطيات الرواية الشفوية من خلال ارجاع الاشياء الى أصولها واستلهام جدلية التضاد في الكاذب والصادق ـ المبالغ والدقيق ـ الثابت والمتحول ، واستيعاب معطيات الدراسة التاريخية النقدية . بالتحقق من صدق الرواية بواسطة التحليل والتأويل ، والاحتكام الى الرواية من خلال النصوص الموثقة .

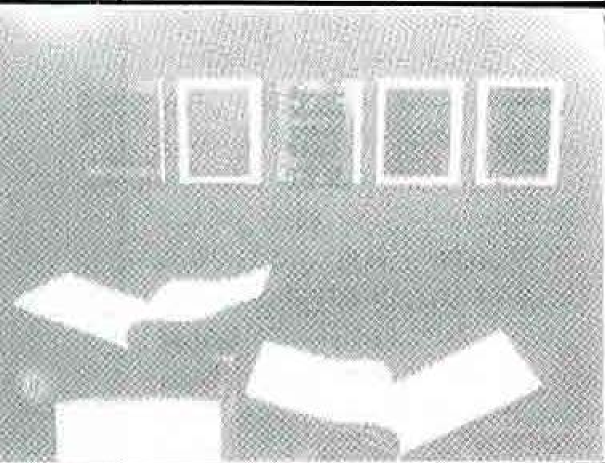
والمقابلة المباشرة تتيح للمؤرخ اللقاء الحي بمادته الأولية ليكسبها المفهوم التاريخي ، من الأحاطة بالتفاصيل والحيثيات التي يعجز عن بلوغها النص المكتوب ، وهي فرصة لاستجلاء معطيات وابعاداً جديدة ، تساعده في تقييم الأوضاع العامة للحقبة التي يعنى بدراستها والمتعلقة بتفسير الحوادث . وهو بالمحصلة ليس كاتب حوادث أو مجرد مدون نصوص [2] .

مراجعة في الأصول

مثلث الرواية المنقولة ، المصدر الرئيسي الذي تمت من خلاله تأسيس المعرفة التاريخية في مرحلة الاسلام الأولى . وقد عنيت بشكل مـركز بأحاديث الرسول (ﷺ) ، لما لهامن قيمة في الحياة . العقائدية . التي وسمت الأتجاة العام ، فكان «الاسناد» أساسا استوعبته السيرة النبوية ، التي مثلت بواكير الانتاج الثقافي التاريخي في الحياة الاسلامية ، ولكي لا نقفز على الحقائق لابد أن نشير ، الى أن السيرة النبوية قد أرست بدايات الوعي التاريخي ، ولم تكن مهتمة بانتاج تقارير عن الحياة الاسلامية ، وذلك امر استدعته حاجات المرحلة التاريخية ، التي ميزت حياة المجتمع

الاسلامي الأول . فكانت العقيدة بحاجة الى تفاصيل وشروحات كثيرة ، ولاعتبارات تتعلق بالقدسية والخوف من المنزلقات والشطط في التفسير ، نجد الرواة وقد أجهدوا أنفسهم في وضع سلسلة الأسناد حتى يرجعوها الى الرسول (ﷺ) مباشرة . فكانت نشأة علم التاريخ في حضن التجربة العقائدية «العقل ـ الوعي» كنقطة شروع بدأها المؤرخ العربي [٣] . فكان تدوين الحديث وجمعه محاولة لتفسير النص القرآني ووضع الأحكام الدينية بالأضافة الى تنظيم العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الاسلامي . فكانت كتب السيرة والمغازي تحقيقاً لهذا النزوع . وكان للاسلام فضل في انتشار القراءة والكتابة بشكل واسع ، مما وجه العناية نحو تدوين حوادثهم واحوالهم واخبارهم . فكانت وسيلة لتثبيت الخبر وتحجيم الاختلال فيه[٤] .

وقد استوعب المؤرخ العربي أهمية التدوين واثره البالغ في توجيه الافكار نحو تبني وجهة النظر هذه أو تلك . فعملوا على وضع أسس وقواعد لما له من خطر بالغ وشأن عظيم في ترسيم الذاكرة الثقافية لمجتمع أو أمة . والفرز والانتقاء ، ومحاولة الوقوف على الرواية الصحيحة ، ممارسة بدأها الصحابة والتابعون ، الذين شغلوا الذهن والعقل في جمع الاحاديث النبوية الشريفة ، ورجعوا الى مصدر الرواية الشفوية الذي شهد



الحديث بشكله المباشر[٥] .

ارتبطت الحضارة العربية الأسلامية ، بالاتجاه نحو التدوين ومثل هذا التوجه عاملا حاسما في تكوين الحضارة ذات السمات والخصائص المميزة واتاحت للعلوم أن تنشأ في كنفها . فبعد أن كانت «البداهة ـ الاعراف ـ الفطرة» المحركات التي تجعل العربي يعبر عن مشاعره وإبداعه في مجال الشعر ، من وزن أوقافية أو علم عروض ، اذ كانت الفصاحة تقوم على السليقة ، لا على قواعد ونحو بالاضافة الى ايلافهم الرحلات التجارية التي فرضتها الطبيعة والمسالك ، كما أن مجتمع البادية كان يسير وفق اعتبارات العرف والعادات والتقاليد . حتى إنهم حين كانوا يتذاكرون تاريخهم وايامهم انما كانوا يعمدون الى قصه وروايته شفاها . ومثلث الكتابة تعبيرا

عن نزوع الدولة الراشدية نحو التنظيمات ، فحين عمد عمر الى انشاء ديوان الجند ، كانت الأهمية تتلخص في تنظيم العطاء الى الجند ، وعثمان حين عمد الى جمع القرآن ونسخه ، انما كان ينطلق من رغبة صحيحة في ضبط وترتيب النص المقدس [٦] .

واذا كانت الرواية الشفوية قد ميزت الذاكرة الثقافية لعرب البادية ، فان حواضر اليمن والحيرة ، قد أنتجت تراثا مكتوبا تمثل في الخط المسند الذي زين المباني اليمنية وأشار الى تواريخها ، كما ضمت أديرة وكنائس الحيرة مدونات أخبار الممالك الغابرة[٧] .

لم يأت البحث التاريخي العربي الاسلامي «عفويا» ، أو صدر بدون ثوابت أسس عليها وارتكن اليها . فلقد نشأ «المخطط البحثي» نحو توجيه المعرفة التاريخية لتقديم الخدمة في مجال نمو المباحث التي تطلبتها «العقيدة والدين» وقد عمد المؤرخ العربي الاسلامي الى بناء دفاعات متقدمة لمواجهة المحاصرة والتشويه . فكان مشروع التدوين التاريخي ، عملية واعية كان الغرض منها بناء نسق فكري واضح ، الا أن العملية برمتها ، خضعت لوصاية النص وهيمنة المباحث التقليدية . حتى كان الخبر التاريخي وسند الرواية ، الاساس المعرفي المباشر ، الذي فعل فعله الواسع في النهج التاريخي[٨] وكان مشروع التدوين التاريخي فاصلا هاما بين الثقافة الجاهلية «الأيام ـ الشعر ـ الأدب» والمرحلة الجديدة التي أنتجت معطيات ثقافية تلائم المرحلة ومتطلباتها الفكرية والعقائدية . فقد أضفى الاسلام على الأيام والأخبار ، صيغة تاريخية عميقة ، بحيث أن الحارث بن كلدة تعرض للانكفاء حين أقدم على منافسة الرسول (ﷺ) في هذا المجال . فقد كان الخبر الجاهلي مفتقداً للروح .

دعت حاجات الدولة العربية الاسلامية الى تمثل حياة الرسول (ﷺ) بكل تفاصيلها وجوانبها . فكان الشروع في الاشتغال بموضوع الحديث النبوي الشريف والسيرة[٩] . الا أن هذا لم يمنع من ظهور نتاج تاريخي تعرض لأخبار الأمم القديمة والديانات والانسان [١٠] الذي حفزته جملة مبررات يقع في مقدمتها ، معرفة الانساب لتقدير عطاء الجند ، اضافة الى محاولة لاستيعاب حالات التماثل والالتقاء بين من سبق من الأمم في السياسة وتنظيم العلاقات الأجتماعية . كما استدعت حاجات الدولة العربية الاسلامية ، تدوين أخبار الفتوح لاعتبارات تتعلق بالجزية والخراج ، من حيث مافتح من البلدان عنوة أو بعهد [١١] . بالاضافة الى تدوين أيام العرب للوقوف على الأغراض الشعرية ومعرفة أسبابها[١٢] وبتطور التجربة السياسية العربية ، وعت السلطة

السياسية بشكل دقيق ماتمثلة الكتابة التاريخية من تهديد وفضح لأساليبها ودورها ، حتى أن عبد الملك بن مروان ٦٥ ـ ٨٦هـ امر باغفال الكتابة عن السيرة النبوية أو التعرض للخلفاء الراشدين خوفاً من وقوف الناس على مقارنة الماضي بالحاضر الاموي[١٣] .

وكان للاتجاهات السياسية أثرها الواضح ، في الانتقاء الذي تعرض له الخبر التاريخي ، حتى أن الرواية الرسمية الصادرة عن السلطة «البيانات» صارت تحظى بالرعاية والاعتماد [١٤] . الا أن هذا لايعني أن التدوين التاريخي ، قد أغرق في خضم المجاملة ، فلقد برزت العديد من النتاجات الموضوعية التي جعلت من تقصي الحقيقة ديدنها . فعمدت الى تنويع المصادر والأعتماد على الروايات المختلفة والتي تمثل فيها الشهادات الشخصية مكانة هامة .

(الفرد في مواجهة المجموع)

كثيرا ما تتلبس كاتب المذكرات الشخصية ، [١٥] حالة من تضخم الذات حيث تبرز بين طيات الكتاب وثناياه «الانا» المفخمة المضخمة ، حتى يعيا على القارىء في أحيان كثيرة ، من هو صاحب الدور الرئيسي والهام في حدث تاريخي بعينه . والواقع أن كتباً كهذه تدخل المختص في كثير من الحيرة والشك والإرتباك . وما اكثر الكتب التي ظهرت لتقص عن أدوار لأسماء مجهولة ، ادعت فيما إدعته ، بأنها كانت وراء نجاح العديد من العمليات الخطيرة . وأنه لولا جهودها ، لما تمت المصالحة بين الاطراف المتنازعة ... الخ .

ولا تقف معطيات الحكاية التاريخية الفردية ، عند حدود علاقة الفرد بالحدث ، إنما تتجاوزه لتبلغ الأثر الأجتماعي الهام من حيث «المكانة ـ التأثير ـ المشاركة» لتتيح للباحث إمكانية تلمس تأثير البيئة على الفرد ودرجة التفاعل التي يبديه معها . فعلى سبيل المثال تندرج معطيات الأدوار الشخصية في منعطفات تبرزها ، إسقاطات الانتماءات «القبلية ـ الاقليمية ـ الايديولوجية» . فالفرد لابد أن يتبنى وجهة نظر ما ، إزاء الاوضاع والأحداث طالما انه ابن المجتمع الذي يعيش فيه وتتأثر مصالحة بعلاقاته ونشاطاته . وهنا تأتي الفرصة الذهبية للمؤرخ التي تعني تميزه وتفرده في بلوغ إتجاه الرواية ، التي يستمع إليها مباشرة ، حيث يقدر له أن يقدر الأبعاد النفسية والانفعالات والحركات التي يعمد إليها «العينة» فهو هنا أمام مصدر تاريخي من دم ولحم .

لايمكن أن تنطلي على المؤرخ التلفيقات والمبالغات التي يعمد إليها بعض أصحاب الرواية الشفوية . وإلا فإن المقابلة التاريخية ستتحول الى مقابلة صحفية . فالمؤرخ مستوعب لأدواته خبير في مادته التي جاء يبحث عنها ، ويستقصي الحقيقة فيها بلوغاً لأتمام هدف البحث التاريخي الذي ينشده المؤرخ ويهدف إليه . لا الشخص المقابل . والعملية برمتها تسير الى صالح

المؤرخ الذي يكون في هذه الحالة الى جانب المجموع إزاء عينة المقابلة الذي يمثل نفسه فقط . وعليه تكون مواجهة الفرد إزاء المجموع غير مجدية بالمرة . فأي خلل في ترتيب الرواية وعدم وضوح ومبالغة أو إسقاطات يعمد إليها العينة ستكون فضحاً له ، لأن المؤرخ سيواجهه بكم المراجع والمصادر والوثائق والأخبار والانطباعات والتصورات التي توصل إليها وهو يواصل إتمام بحثه . وعلى هذا فأن الخشية على الحدث التاريخي من الرواية الشفوية ، امر غير مبرر ومبالغ فيه الى درجة بعيدة .

*** عقد التخلف ***

في مجتمعاتنا النامية التي عانت من الانقطاع وويلات الجهل والتخلف والتسلط ، تعرض قطاع الثقافة للانزواء وشحة الانتاج . حتى إن المدونات ظلت تقبع في خزائن الوجهاء والموسرين وبقيت تعز حتى على المتعلمين . في ظل ظروف اقتصادية وسياسية واجتماعية مريرة ، حتى كانت الذاكرة الشعبية ديوان الناس الذي يقص مآثر أسلافهم وسجايا الماضين . وتحت وطأة ثقل الأمية وندرة النص المكتوب ، تعرضت الحكاية الى الكثير من المداخلات والمبالغات التي كان يعمد إليها القاص ، لشد الأنتباه إليه واكتساب الأعجاب في وسط إجتماعي محدود الثقافة ، ذي عقلية ناقدة الا انها غير مدربة .

كان التصميم الثقافوي الذي ميز بنية المجتمع ، قد وقع تحت طائلة الرغبات والأهواء الجامحة غير المستقرة ، التي كانت تقدم عليها سلطة أجنبية تملؤها الخشية والحذر من أي فعالية إجتماعية ، بالاضافة الى محدودية النشاط الاقتصادي ، الذي قنع باداء مهام متواضعة تحت هيمنة الرساميل الأجنبية الطامعة والمستظلة بدولها القوية ، والتي جعلت منها أدوات لتنفيذ مشروعها الأستعماري في المنطقة ، حتى استطاعت ثقافة الغالب أن تتسيد وتفرض عناصر خطابها الثقافي للأوضاع والوقائع ، من خلال عناصرها المدربة الحاذقة عبر تقارير الرحالة وسجلات الشركات والوكالات المتمركزة في المنطقة العربية إضافة الى تقارير القنصليات والبعثات الدبلوماسية ، فكان النتاج التاريخي الحديث والمعاصر ، وعلى الرغم من المنهجية العلمية (١٦) التي استند إليها ، قد ضم ركاماً هائلا من هذه المصادر . حتى كانت الكثير من الدراسات مجرد صدى نقدي لما تقول به الرحالة والمندوبون والقناصل والاجانب .

مثلما تم تكريس النموذج الأجنبي كتعبير عن الاعجاب بما ينتج عن الغالب في مجالات عديدة من واقع الحياة العربية . فإن حيز الثقافة وأدوات التعبير الفكرية لم تكن بمنأى عن هذه التأثيرات . فكان الإنسياق وراء تقليد «الموديل» الذي طرحته المؤسسة الثقافية الغربية ، لتثبيت المصداقية ورصانة الأداء . حتى تناسى البعض من العاملين في حقل التأريخ الى أن الرواية الشفوية ، كانت من صلب المصادر التي إستند إليها المؤرخ العربي الاسلامي في مرحلة الأزدهار ، ليسندها الى تيارات ومدارس تاريخية إنبثقت من رحم الثقافة الغربية ذات الحظوة والجاه في مرحلتنا التاريخية

الراهنة .

* نحو تثبيت النص التاريخي *

عادة ماتكون النظرة الى المصدر الشفوي ، مجرد رواية ينظر إليها بشك وعدم إرتياح ، واذا مادرجت فأن المؤرخ عادة ما يحاول أن يثبتها بالنصوص الوثائقية أو المراجع المكتوبة حتى لتبرز مشكلة جديدة تتمثل في محاولة تأكيد الرواية بدلاً من التوجه نحو الأمساك بزمام الموضوع وتقديمه بالصورة التي تم تقديم النصوص السابقة أو اللاحقة في النص الذي يعمد المؤرخ الى كتابته .

وبدلاً من أن تكون الرواية الشفوية كشفاً لحقيقة جديدة لم يتوصل إليها الآخرون ، فانها تكون عبئاً على المؤرخ الذي يحاول بوسائل متعددة أن يشير الى اهمية صاحب الرواية وعلاقته بالحدث ، ومكانته وحياديته من خلال استعراض علاقته بالاطراف الاخرى . وقد تكون العملية هذه في مجال البحث الاجتماعي والاقتصادي «التاريخي» اقل عسراً مما لو كانت الرواية تتعلق بالتاريخ السياسي الذي يحمل بشكل واسع المبررات والتأويل والأتجاهات .

وعلى هذا وجدت الرواية الشفوية طريقها يسيرا في بحوث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي . والمجال الثاني بالذات حقق استيعاباً كبيراً ، من خلال رصده للعادات والتقاليد والمأثورات والاوضاع العامة ، التي كان يعيش في كنفها المجتمع . فالذاكرة الاجتماعية في هذه الحالة ، تكون قدرتها أدق من أي نص مكتوب يمكن ان يتناول أي موضوع في هذا المجال . وعلى هذا يمكن الأستدلال على أنه لا يمكن القول ، بان هناك مصدرا رئيسيا وآخر ثانويا ، فالمؤرخ بحذقه وخبرته وتجاربه ، هو الذي يوجه ويقود المصادر نحو خدمة البحث الذي يعمل فيه .

ولنعد الى التاريخ السياسي ، المجال الذي يمثل عسراً وإشكالية في التناول ، لنشير إلى أن الرواية الشفوية كان لها الدور البالغ في كشف النقاب عن مداخلات وعلاقات وأحداث . لم يجرؤ كاتب النص على تناولها لأمور تتعلق بالمنصب الذي يشغله ، ووعيه بالجهات العليا التي ترغب في حقائق بعينها لأسترضائهم . إضافة الى الصعوبة التي تكتنف طبع النصوص التي لا تحبذها الرقابة أو يعمد المقص الى قطعها . وفي هذا الاطار كثيراً ما حاول بعض الباحثين أن يلبسوا «ثوب المخبر» للوصول الى حقائق لم يجدوها في النصوص التي وقعت بين أيديهم . لتبدأ رحلة من التقصي نحو مشروع ترجيح الرواية الشفوية التي وقع عليها ، ليبقى يدور في حلقة مفرغة من «الأقاويل» مما لا يغني ولا يفيد حتى تتقمصه الخيبة ، ليرجع نحو أوراقه ليشير الى الرواية بشكل هامشي ، أو ربما يعمد الى إهمالها ، خوفاً من المطالبة بالقرائن ، التي يتطلبها منهج البحث العلمي السليم .

النص موجه نحو خدمة أغراض بعينها ، ولا يوجد في أي زمان ومكان نص من دون غرض أو غاية . وهذا القول لا نبغي من خلاله تسجيل حقيقة جديدة لم يبلغها الآخرون ، بقدر ما هي محاولة لتقريب فكرة تعن علينا ، نحاول من خلالها الأشارة الى الأهمية التي ينطوي عليها المصدر الشفوي . ولابد أن القارىء ، قد رصد التباين الذي تمت فيه الأشارة الى المصدر الشفوي ، فتارة ندعوها مصدراً واخرى رواية ، وذلك له مبرراته ، فهي رواية الى أن تستوفي

عرب الصحراء

مَعَ البَدْوِ في مُطـ



تأليف
هارولد ديكسون

ترجمة
حمد السعيدان

تقدم الوثيقة في هذه الصفحات الحلقة الأخيرة من كتاب هارولد ديكسون عرب الصحراء الذي ينشر لأول مرة بالعربية وقد ركز المؤلف في الحلقة الأخيرة على الحيوانات التى يربيها البدوى وخاصة الجياد والنوق كما رافق البدو في طرادهم للحبارى وغوصهم على اللؤلؤ والوثيقة بنشرها للكتاب انما تأمل أن تقدم صورة صادقة عن الحياة في البادية للأجيال الجديدة من الباحثين خاصة وأن الكاتب عايش هذه الحياة وشاهد بعينيه وسمع بأذنيه وعبر بقلمه هو دون النقل من الآخرين .

الوثيقـة

٦

...اردة الحبارى وصيد اللؤلؤ

يميل الناس في الغرب الى الاعتقاد بأن الجمال حيوانات لحمل الأثقال فقط ، ونتصورها نحن كأوروبيين تزرع الصحراء جيئة وذهابا مقيدة من الرأس الى الذنب كأنها ديناصورات طويلة تنقل الامتعة والحاجيات من مدينة الى أخرى . لكن هذه الصورة مختلفة تماما داخل الجزيرة العربية حيث تتجول القبائل البدوية الكبيرة ، فهنا موطن الجمال ، تنتقل من مرعى الى آخر بأعداد تصل الى مائة ألف جمل .

وتكمن أهمية تربية الجمال فى الدرجة الأولى فى كونها مصدراً للغذاء حيث يستفاد من حليبها ولحمها ثم تستخدم كوسيلة نقل . ويتم الاحتفاظ بمجموعة منتقاة لغرض التوالد ونقل الأحمال الثقيلة كالخيام من مخيم الى آخر . والقطعان الكبيرة تتكون من الإناث فقط والبعض منها يستعمل كمطية يسمح لها بالتوالد ومنها الذلول .

تتزاوج الجمال في فصلي الشتاء والربيع ، وفي تلك الأثناء يترك الجمل بين قطيع الاناث ليدبر أمره بنفسه . أما الجمال الضخمة فيشد وثاقها قرب الخيام الى أن يرغب مالكها بتزاوجها مع الأناث .

وتعشر الجمال مع الإناث راكعة ، تربط أرجلها الأمامية بكتفها للحفاظ على سكونها ويساعد الرجال فى إتمام عملية الجماع . ويعشر الفحل الجيد

(ذكر الجمل) حوالي مائة أنثى في موسم الربيع المزدهر . وبعد اثنى عشر شهرا تلد أنثى الجمل ويراقب الأطفال والنساء عملية الولادة وخروج الجمل الصغير الى الوجود ، ولا يصطنع البدو الحياء فى هذه القضايا .

ويجب أن نذكر بصورة خاصة الجمال الشروف وهى مفخرة قبيلة مطير منذ القدم ، الوانها غامقة جدا تميل الى السواد ويعد ما تملكه مطير من جمال الشروف الأصيلة بثلاثمائة جمل .

وتعتبر مطير الشروف رمزا مقدسا لها في السلم والحرب وتوليها إهتماما وحراسة شديدة ، وتدافع عنها بأغلى الأثمان وقد تخسر القبيلة كل ما لديها من جمال فى حرب أو غزوة ولكنها تكون سعيدة مادامت شروفها بخير . ولا يركب المطيرى الجمل الشروف لأن لهذه الجمال مرتبة الشرف وتسير في مقدمة المقاتلين أثناء الهجوم بانتظام وانسجام .

وترعى الجمال الشروف تحت حراسة مشددة بمعزل عن الجمال الأخرى ، وقيل أن الجمال السوداء تطرد أى جمال أخرى تدخل الى مراعيها وتختلط بها ، ولا يسمح للإناث الشروف الا بمجامعة الذكور الشروف فقط . وقد كنت وزوجتى الأوروبيين الوحيدين اللذين سمح لهما بالتطلع الى هذه القطعان المحروسة رمز مطير المقدس . كان ذلك في إبريل عام ١٩٣٩ عندما وجه شيخ الكويت دعوة خاصة الى الملك ابن سعود فقام الأخير بإرسال جماله الخاصة - خمسة وسبعين قطيعا - مع الجمال الشروف (مجموعها أربعة آلاف وخمسمائة جمل) إلى مقاطعات عريفجان والشعيبة في الكويت .

في السابع من إبريل سمعت وزوجتى أن الشروف ترعى في الطرف الجنوبى من تلال الظهر على مقربة من آبار القرين فأخذنا سيارتنا يرافقنا سالم المزين وسرنا بسرية تامة حتى أشرفنا قبيل الغروب على تلك القطعان الشهيرة وهى تسير كوحدة متضامنة على بعد نصف ميل من الجمال الأخرى . لم يكن في الجوار سوى راع واحد أخبرنا ، عند استفسارنا ، أن الشروف في رحلة يومية . لم يرنا أحد من الحراس الذين كانوا خلف التلة يجمعون شتات الجمال الشاردة . وهكذا دخلنا بين الجمال ورأينا عن قرب تلك الحيوانات السوداء البديعة وميزنا من بينها جمال ابن سعود والدوشان . بعد أن حققنا مرادنا واستمتعنا برؤية ذلك المشهد البديع انسحبنا بهدوء جهة الشمال بدون أن يلحظنا أحد .

بعد أسبوع وصلنا الى مخيم سالم المزين قرب الشعيبة لنقضى ليلتنا واليوم التالى ، وكنا قد دعونا خمسة من الشيوخ لتناول طعام الغداء معنا . عند وصولنا أخبرنا سالم أن جمال الملك ترعى فى الجوار وأن الشروف التى امضت الليلة السابقة قرب خيامه ترعى الآن فى المرتفع المجاور ، وأضاف أن الشيخ مسيار الشبلان المسؤول المباشر عن هذه الجمال

ينتظرنا في الخيمة لتقديم التحية والاحترام . كان مسيار قبليا جافا ولكننا قدمنا له الغداء والمبيت تلك الليلة فى خيمة سالم . ولما قررنا مشاهدة القطعان السوداء مرة أخرى استيقظنا مبكرين فى اليوم التالى وأخذنا سالم في سيارتنا وقطعنا حوالى مسافة ميل . وهناك فى منخفض رأينا الشروف مرة أخرى فنزلنا من السيارة وذهبنا تجاه القطيع بدون أن يعلم أحد بزيارتنا حتى لا نلفت الأنظار الى وجودنا .

وما أن أصبحنا على بعد نصف ميل من الجمال السوداء حتى سمعنا صراخ رجل مسلح يعدو بجمله ، وبادرنا بالسؤال عما نريد ، أجبنا بأننا نود مشاهدة الشروف ، قال : (الشروف ليست هنا .. ليست هنا .. إنها فى عريفجان) . بعد ذلك إنضم إليه ثلاثة رجال آخرين مسلحين ثم الشيخ مسيار نفسه الذي ظهر من حيث لا ندرى . فلما أصبح الأخير فى مواجهتنا قال بأن القطيع الأسود أمامنا ولكن لديه أوامر صارمة من ابن سعود بعدم السماح لأى شخص بالاقتراب من القطيع ولا بالتقاط صور له . قلنا له بأننا أصدقاء شخصيين للملك وأننا نجزم بأن لا مانع لديه ، ولكن الشيخ مسيار كان صلبا في موقفه بالرغم من أننا أعطيناه وعدا قاطعا بعدم نيتنا فى التقاط صور للجمال ولن نخبر أى إنسان بمشاهداتنا . لم يغير الشيخ مسيار رأيه بالرغم من تقديمى له طعام العشاء في الليلة الماضية ولا بالنظر الى أنني أنقذت حياة عمه ذات مرة . ولكن ولكى لايجرح شعورى أكثر أمر الشيخ مسيار ثلاثة من الحراس بإحضار سلطانية من حليب الشروف ، وفعلا رأينا من على بعد الجمال الشهيرة تحلب ثم جيء بالحليب الدسم لنا فشربنا وتلذذنا بطعمه واستمتعنا بتلك الحفاوة والتقدير من جانب مطير.

من أهم الخصائص الرئيسية التى تتميز بها الجمال الأصيلة وخاصة الباطنية مقدرتها وصمودها . وقد أخبرنى الشيخ نايف بن حميد من عتيبه بأنه لما هرب من السجن فى الرياض عام ١٩٢٥ وصل الى الناصرية فى العراق على ظهر أحد أحسن الجمال التي تربيها قبيلته في خلال ثمانية أيام قطع فيها ثمانمائة ميل . كذلك أخبرنى ابن سعود ذات مرة أن أنباء القتال فى الشعيبة ، عندما ضرب البريطانيون الأتراك ، قد وصلته بواسطة أحد مبعوثيه الذي وصل الى الزبير فى خلال خمسة أيام ونصف قطع خلالها مسافة خمسمائة وثلاثين ميلا ولكن جمله مات عند الوصول .

عند القيام برحلات عادية ، يكون السفر أثناء النهار في فصل الشتاء ، وأثناء الليل فى فصل الصيف يتخلله وقفات كل عشرين ميلا لشرب القهوة التى تكون جاهزة وتحتاج الى تسخين فقط . وسرعة الجمل العادي أربعة أميال في الساعة أثناء السير العادي ، وثلاثة أميال إن كان محملا . ويقطع الجمل عندما يستدعى الأمر السرعة

حوالى ثلاثة عشر ميلا في الساعة ضمن مسافة قصيرة أو عشرة أميال في الساعة لقطع مسافات طويلة تصل الى مائة ميل ، وتقطع الجمال العمانية أربعة عشر ميلا وتكون رؤوسها ورقابها ممدودة أمامها .

والاحتياجات الرئيسية اللازمة للقيام برحلة على ظهر الجمل هي ما يلي : سرج الجمل مع قربوسين طويلين في المقدمة والمؤخرة ثم عدلي السرج الكبيرة اللتين تتدليان على الجانبين ثم المريلة المصنوعة من الجلد التى تتدلى امام السرج وتمتد من على جانبى رقبة الجمل الى أسفل حتى ركبتيه . وتسافر النساء في سروج مغطاة تسمى المقصر . وفي الجنوب والجنوب الشرقي يستعمل الرجال نوعا آخر من السروج مفضلة للأعمال الخفيفة والسريعة . ويحتاج الراكب أيضا الى كيس جلد لبندقيته وعصا للجمل وكيس جلد للتمر وصندوق حليب مجفف وكيس لحمل القهوة وحب الهيل . ويحمل الرجل ذخيرته في حزامه ويحفظ الذخيرة الاضافية في كيس من الصوف يضعه في عدلي السرج .

يتميز الجمل بتعلقه الغريزي بموطنه وخاصة الجمال الصغيرة التى لم تترك ديرتها بعد ، لذلك عندما يأتى البدوى الى الكويت لابتياع مؤونته يحضر معه جمله مع حوالى دزينة أخرى من الجمال ومن المألوف جدا رؤية هذه الجمال تهرب من المدينة بأقصى سرعة وتعود الى مخيمها . وتنطلق وراءها صيحات المطاردة الجنونية التى لا تصدق الى أن تسمع . وقد حكى لي مريط بن حويله من العجمان كيف هرب جمله في الليل على مقربة من الكويت الى شمر في الدليمية على بعد مئة وخمسين ميلا وكان مريط قد اشتراه من شمر قبل عدة أسابيع .

الطعام الأساسي للجمل هو عشب النصى والعرفج في الصحراء والعرفج أفضل غذاء معروف لدى البدوى للجمال . لذلك ليس من قبيل الصدفة أن تنتج مقاطعة الحسا الغنية بشجر العرفج الوفير أجود أنواع الجمال . وفي الربيع تأكل الجمال أيضا الزهور البرية والأعشاب المتنوعة . كذلك تحب الجمال التمر ويقدم لها مع الحليب عند القيام برحلة شاقة وطويلة . ويتغذى الجمل المريض على التمر والشعير المخلوط بالحليب مثل العصيدة ويتبع ذلك قطع صغيرة من الخبز العربي . وفي الشتاء عندما تكون المراعي مزدهرة لا تحتاج الجمال الى الماء ، وعندما يبدأ الجو الدافىء تقدم الجمال للشرب كل سبعة أو تسعة أيام وتقل هذه الفترة كلما تقدم الصيف وزادت الحرارة حتى تصل الى شربة كل يومين في الأشهر الحارة جدا .

عندما يحين وقت شرب الجمال يمتطى البدوى ناقة ويصرخ على باقى القطيع للحاق به الى البئر . وتتبع الجمال البدوى بمنتهى الانصياع والطاعة ويصل عددها الى حوالى مئة جمل . ويسحب الماء من البئر بواسطة دلاء جلدية تصنع من قطعة جلدية



مستديرة تضم أطرافها بواسطة خيوط تتصل بحبل طويل . ويصب الماء بعد ذلك في وعاء جلدى أو في جرن يوضع على مقعد خشبى وهو يوجد في خيمة كل بدوي .

للحفاظ على أن تظل الجمال بصحة جيدة يجب أخذها الى مناطق تواجد الأشجار المالحة وتسمى الحمض ، فاذا لم يتوفر الحمض يعطى الملح للجمل باليد . والجمل السليم الذي يعطى الغذاء المناسب ويأخذ الملح على فترات منتظمة يكبر سنامه ويسمن . أما اذا أصبح السنام هزيلا وغير ملحوظ فالجمل يضعف وينحل . والجمل حيوان رقيق ويحتاج الى رعاية خاصة لذلك عندما تكون صحته

جيده وسنامه كبيراً لا يحتاج الى تدفئة فى الليل أثناء الجو البارد أما اذا كان ضعيفا وهزيلا يوضع بساط فوق ظهره وتترك فتحة للسنام . وفي الجو القارس البرودة عندما تكون الرياح شديدة يتم في الليل احضار جميع الجمال الى الخيمة وتركيعها في زاوية بحيث تكون رؤوسها ورقابها في الداخل وهو ما يقيها عصف الرياح القارسة ويقى الحراس القائمين على حراستها .

من الأمراض التى تصيب الجمال الجرب أو الحكاك ، وينتشر هذا المرض بين القطعان مثل البرق وقد يؤدي الى وفاة الجمل فى خلال أربعين يوما وخاصة في فصل الصيف ، ويعالج هذا المرض بنزع شعر الجمل بواسطة خليط من الزرنيخ والليمون يوضع فوق كل جسده . ثم يفرك جسده بخليط معد من الزبد المصفى وبودرة الكبريت وفلفل أحمر ثلاث مرات كل أربعة أيام . بعد ذلك يغسل فى البحر أو في ماء مملح بدرجة كبيرة .

وهناك أيضا مرض الغش الذي يصيب الجمل عن طريق لسعة ذبابة تعيش على ضفاف الفرات وجنوبى بحيرة الحمار وينتشر هذا الذباب فى فصل الصيف . وعندما تلسع هذه الذبابة جملا يصاب بمرض النوم ويرفض الطعام ثم يموت بعد أربعين يوما . ويكوى البدوى الجمل فى بطنه بخطين متقاطعين على شكل صليب ولكنه يعلم بأن لا تأثير يذكر لذلك .

ويؤدى الاكثار من أكل نبات الهرم المالح الذي ينمو فى الأرض السبخة الى اصابة الجمال بمرض رئوي يسمى المنحوس . وهو مرض معد ينتشر بسرعة كبيرة لذلك يبعد الجمل المصاب بهذا المرض عن باقي القطيع في الحال . ويموت حوالى نصف المصابين به .

وهناك عادة غريبة عند بعض القبائل وهى ايمانهم الشديد بالعلاج بالسحر . فاذا كان أحدهم يملك جملا أبيض اللون وآخر أسود وأصيب احدهما على سبيل المثال ، بعرج أوكساح فإنه يكوى الجمل الآخر فى نفس الموضع ، معتقدا أن هذا الكى سيزيل كساح الجمل الأول .

وصاحب الجمل عادة ما يكوى جمله بعلامة (وسم) أو بشعار القبيلة أو فخذ القبيلة الذي ينتمى اليه . ومثل هذه العلامات تستعمل ايضا على الآبار للدلالة على أصحابها . ويتم كى الغنم بخط صغير أو علامة خاصة على الأذن للدلالة على أصحابها . ويستثنى من ذلك الجياد والمهر . كذلك يستعمل الوسم لحماية الامتعة الخاصة مثل حمولة جمل قد يموت فى الطريق فتترك الأمتعة في الصحراء ويرسم بجانبها على الأرض علامات الوسم وبهذه الطريقة لا يقترب أحد من هذه الأمتعة . والوسم عبارة عن علامات هندسية ، وفيما يلى نماذج من وسم العجمان حصلت عليها من مبارك بن هيف الحجرف ، شيخ السليمان من العجمان فى العاشر من إبريل عام ١٩٢٤ :

الهذلان : على الخد الأيسر
الهادى : على الخد الأيمن
الحجرف : على يسار الرقبة
السليمان : على أسفل يسار الرقبة
ابن عصيدان (شيخ السليمان) : على يسار الرقبة .
المحفوظ : على الفخذ الأيسر
الصفران : على يمين الرقبة
الحجان : على الفخذ الأيمن
الصالح : على يمين الرقبة
الريما : على أعلى يسار الرقبة
الهذلان : تحت الحنجرة
الثانى : على يسار الرقبة .

وينظر داخل الجزيرة العربية الى أحقية الفرد في جمله كحق مقدس ربما أكثر قدسية من حياته نفسها . هذا وقد تحدثت في فصل سابق عن أهمية العرف وسوف أتحدث هنا عن بعض الإجراءات الأخرى التى يتخذها البدوى في حل النزاعات الخاصة بالجمال .

إذا فر جمل أو أكثر من قطيع قبيلة ثم اكتشف أمر وجوده لدى قبيلة صديقة تتقدم القبيلة صاحبة الجمل الى شيخ القبيلة الصديقة وتسترد جملها عادة ، أما اذا لم تسترده فإنها تتحين الفرصة لتستولى على ممتلكات أو مواشى أو حتى رجال من القبيلة المعادية وتحتفظ بهم حتى يتم ! استلامها لمتلكاتها الخاصة وتعتبر سرقة الجمال الشاردة من أفعال الذكاء وليس الخطأ فإذا اكتشف أمرها تعاد الى أصحابها والا فهى مكسب كبير .

وهناك بعض الغرامات التى تنص عليها هذه القواعد العامة . فالرجل الذي يجد جملا شارداً ويرعاه يحق له أن يطالب صاحبه عند استرداده بمبلغ ريالين عن كل جمل . وتدفع نفس القيمة مكافأة للرجل الذي يعثر على جمال هاربة فى الصحراء ويعيدها الى أصحابها . أما اذا خبأها فيضطر المالك الى إستئجار شخص يتجسس له على قطعان الجمال المجاورة لاكتشاف أمر الجمال الضائعة ، فإن وجدت تعاد الى أصحابها ويدفع الجانى - الى جانب الغرامة - أجرة الجاسوس ، وبذلك يبلغ مجموع ما يدفعه حوالى عشرين ريالا وهو مبلغ باهظ بالنسبة للبدوى .

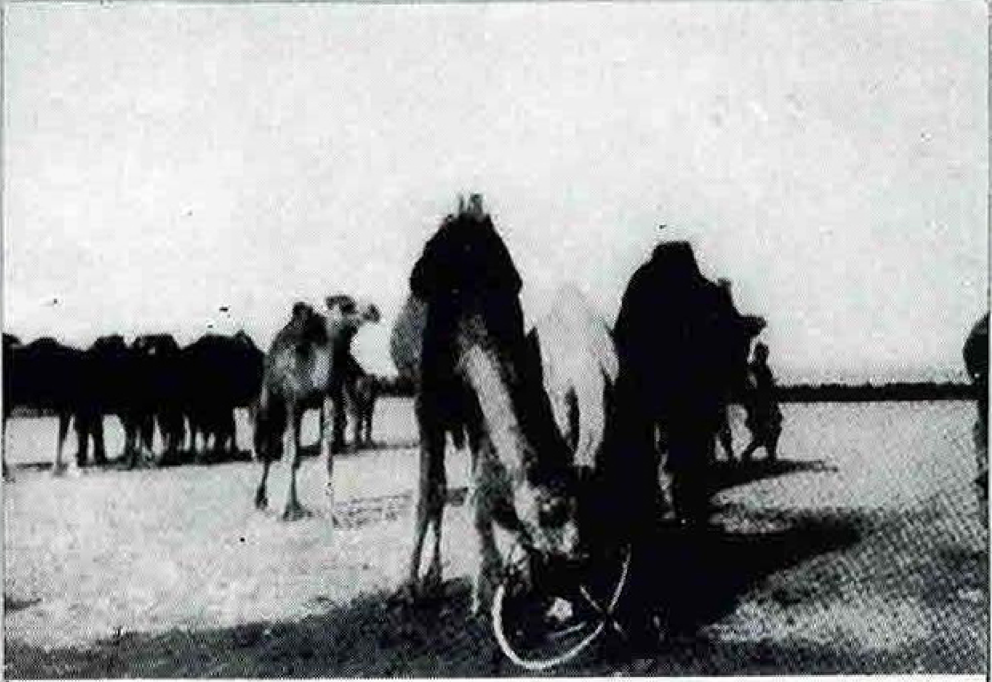
إذا نشبت قضية بين قبيلتين حول جمال مسروقة أو مخبأة أو شاردة ولم تتفق القبيلتان على تسوية الخلاف ، فى تلك الحالة تحال القضية الى (الحاكم المحلي أو الى حاكم البلاد ، وبعد الفصل في القضية تدفع الجهة المخطئة (مصاريف خدمة) إلى معاونى الحاكم الذين قاموا بتحري

أبعاد القضية وأحضروا دلائل الإثبات والشهود .

وهناك بعض المفقودات الأخرى التى تعاد الى أصحابها بأساليب مماثلة . فعندما يكون البدو وعائلاتهم على سفر وخاصة وقت ترحال القبيلة بأكملها يحدث أن تتساقط بعض البسط والثياب أو معدات الخيمة عندما ترتطم الجمال ببعضها البعض خاصة في الليل ولا يعتبر - وفق قانون الصحراء - أثما من يلتقط أى شيء من الأشياء الملقاة ولكن عليه أن يعيدها الى أصحابها عند التعرف عليهم حتى لا يتهم بالسرقة ، فإن كان الشيء المفقود جملا أو مهرة أو رأس غنم يقدم صاحبها عادة مكافأة صغيرة لمن يعيدها اليه .

ويطمح البدوى ، بعد بندقيته وجماله وزوجته ، الى الحصول على مهرة وفلو . والبدوى العادي لا يملك مهرة بأكملها ، وإنما يتقاسم ملكيتها حوالى ستة أشخاص او تكون لهم حصة في كل مهرة وعادة ما يعيش الشركاء على بعد مسافات كبيرة عن بعضهم البعض وكم هو مضحك ومقبض فى أن واحد بالنسبة للأوروبى الذي تعجبه مهرة فى الصحراء ويبغى شراءها أن يخبره صاحبها بـأن لا مانع لديه أن يبيعه مقدمتها ولكن عليه أن يذهب الى شخص أخر قد يعيش على بعد مئة ميل ليشترى بقيتها ! وهذه الملكية المشتركة تنطوى أيضا على شروط تحدد من سيكون صاحب الفلو الأول والثاني وهكذا ، كذلك بعد أن يتفق الشارى مع جميع الأطراف المالكة بعد إجراء مفاوضات طويلة طبعا قد يقال له أن فلانا الذي يعيش على بعد ثلاثمائة ميل له حق إمتلاك أول مهرة صغيرة وعلى الشارى أن يذهب اليه لأخذ كلمته فى هذه الصفقة وعادة ما يرفض الأخير عملية البيع اذا علم أن المهرة ستغادر البلاد وبالتالى لن يحصل على مولودها .

والحصـان العربى ليس ذلـك الحيوان المعتنى بهيئته وتنظيفـه وتغذيته وإسكانه كما هو الحال في الاسطبلات الأوروبية . ففى البادية تترك المهرة شعثاء بدون تنظيف أوصقل وتطلق شعورها على مداها وعادة ما تكون نحيلة الجسد مزرية الشكل فيما عدا وضع شكـالات حديدية فى قدميها الأماميتين وفي الشتاء يوضع بساط رث فوق ظهرها ليقيها البرودة . وتعامل المهر مثل الجمال والغنم فتتجول فى منطقة الخيام السوداء ترعى حيث تشاء ثم تعود الى البيت لإرواء عطشها . ولا تسقى المهر على فترات منتظمة ، ولكنها متى أحست بالعطش تأتى الى جناح النساء وتصهل او تقف تنتظر . وفي الشتاء عندما تكون المراعى مزدهرة ووفيرة فهى لا تحتاج الى الماء لبضعة أيام . وتقدم الحبوب للمهر لمدها بالقوة والنشاط اذا استدعى الأمر القيام باغارة أو حرب بين القبائل ، وفي الصيف عندما تكون المراعى فقيرة تعطى بالقدر الذي يبقيها على قيد الحياة . لذلك فإن



جواد البدوي مهما كان ثمينا يعتمد بالدرجة الأولى في غذائه على الطبيعة وليس على ما يجود به الإنسان . وتكون المهر صحيحة وقوية البنية في الربيع وأوائل فصل الصيف حيث تكون المراعي مزدهرة وغنية بالأعشاب ولكن حالتها تسوء في الصيف .

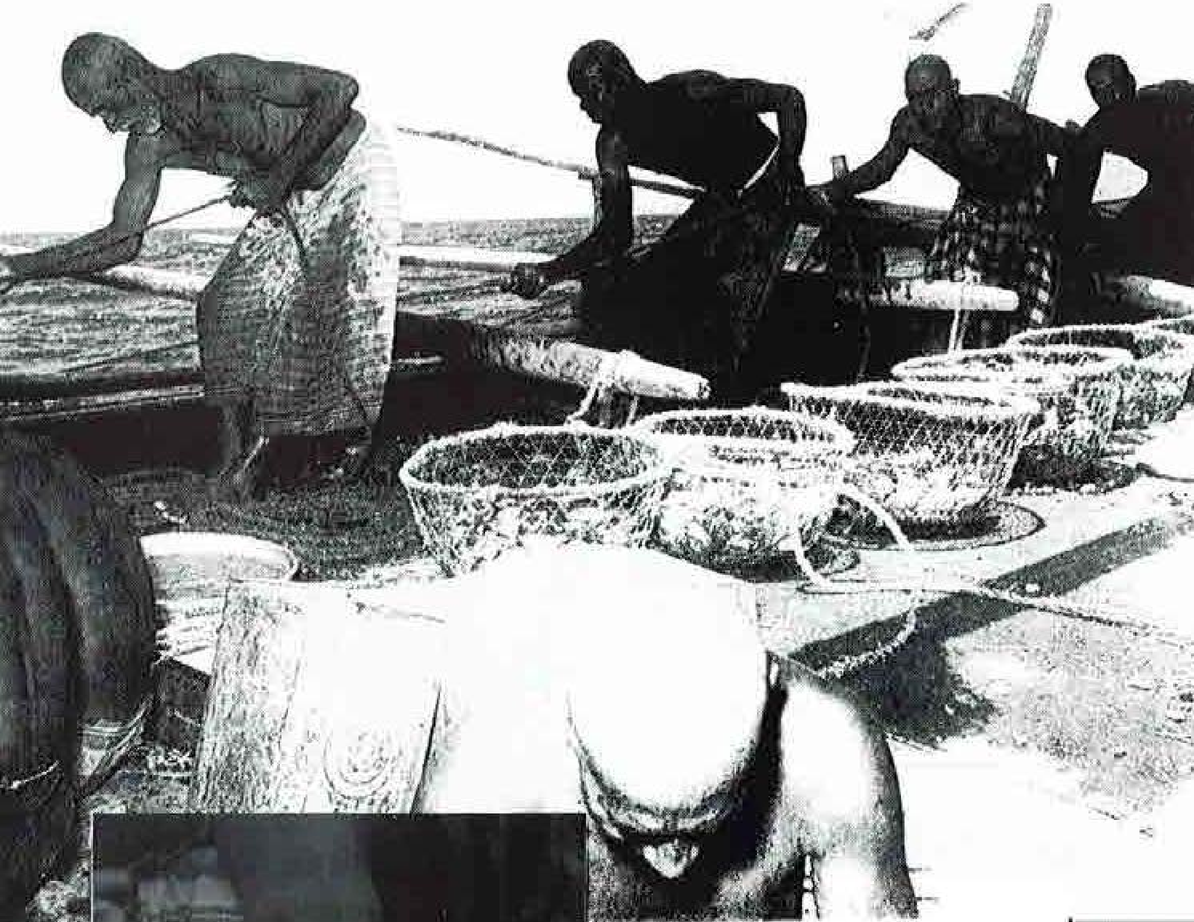
وتعامل المهر داخل الخيمة بمحبة ورعاية من أصحابها وكأنها ابنة لهم . ومن الظريف جدا أن ترى كيف تدخل المهرة خيمة سيدها طلبا للدفء . في ليلة باردة أو تخطو الى جناح النساء في منتصف نهار شديد الحرارة لتحتمي من أشعة الشمس اللاذعة في صيف عربي حارق . وتأخذ المهرة مكانها في الخيمة كحق طبيعي لها وتستقبل بترحاب ويقدم لها التمر والماء .

ولا يحتفظ بالمهرة الا اذا كانت من أصل نبيل وحتى أن قيمتها قد تعلو أو تهبط بحسب العلامات التى تحملها في جسدها . ويميز العرب خمسة انواع رئيسية من الخيول الأصيلة وهى :

الكحيلان
عبيان
الصقلاوى
حمداني
العدبان

وخمسة أنواع فرعية هى :

دهمان
مناقى
شويمان
جلفان
أبو عركوب





وقد نتج عن تزاوج النوعين ما يفوق مائتى نوع من الجياد الأصيلة لكل منها إسمها الخاص . وعلى كل شيخ ذي مكانة رفيعة أن يوفر لأصحابه مهرة أو أكثر لكى تلد له نوعا خاصا . فمثلا يحتفظ ابراهيم بك بن مزعل باشا السعدون من المنتفق بحوالى ثلاثين مهرة أو أكثر من نوع الدهمان الشهير بينما يحتفظ شيوخ البحرين بمهر الشواف ذوات الأنوف الرومانية ويحتفظ آل الدويش من مطير بجياد الكروش الشهيرة . وهذه الأنواع الثلاثة كلها تعود الى كحيلان ، أحد الأنواع الأصيلة الخمسة .

من بين العلامات التى تحدد نوعية وقيمة الحصان خصلة من الشعر على جبهته تخرج من منبت واحد وتنمو على شكل دائرة . ومن العلامات الجيدة الأخرى خط مستقيم من الشعر المتقابل على كلا الرجلين الخلفيتين أو خط مستقيم تحت البطن . واذا كان للجواد مثل هذين الخطين بين قدميه الأماميتين فهو ما يدل على حسن طالعه ولن يصاب راكبه بأذى . ويعتبر اللون الكستنائي احسن أنواع الجياد لأن الجواد الكستنائي معروف بهدوئه وإخلاصه وإذا اعترضه حادث لا يلقى براكبه . أما الجواد الرديء فذلك الذي يملك رجلا بيضاء وثلاثة أرجل سوداء أو كستنائية والجواد الذي يكون لقدميه الأماميتين ما يشبه الجوارب البيضاء يؤدي الى موت راكبه اذا تعرض لحادث . وهناك أيضا علامة شؤم على الحنجرة وهى من الشعر المتقابل تشير الى أن الراكب سيمزق ثيابه من الخزى والحزن .

من أهم صفات المهرة الجيدة قدرتها على السرعة والتحمل حيث يبلغ مدى سباق الخيل الذي يعقد باستمرار من عشرة الى خمسة عشر ميلاً والاستعمال الأول للمهر هو الاغارة ومن الأهمية القصوى أن ينقذ الراكب بأمان إذا دارت المعركة ضده . وقد سبق لى أن ذكرت حادثة تدل على القوة العجيبة للجواد العربى وتلك كانت مهرة (عزيز الدويش) التى قطعت مئة وثمانين ميلا بعد كارثة أم الرثامة . وتعمر المهرة العربية طويلا ويمكنها أن تؤدى عملا مرضيا وهى في سن العشرين وفى هذه السن أيضا أو حتى أكبر يمكن أن تلد المهرة فلاء .

يحتفظ كل شيخ رفيع المقام بمجموعة من الجياد الفحول الأصيلة لغرض النسل وهذه تكون فى مكان منعزل عن المهر . وهذه الجياد تكون فى رعاية عبد محظى يتقاضى مبلغا زهيدا من المال من كل شخص يحضر مهرته لغرض تناسلها مع الجواد الفحل وتتم هذه العملية بموافقة الشيخ طبعا . ويتم إحضار المهرة للمجامعة عندما تبدو عليها علامات الشبق وأفضل وقت للمجامعة بالنسبة للمهرة الكستنائية اللون فى الليل عندما يكون القمر مكتملا ، وعندما يكون القمر هلالا فى حالة المهرة الرمادية . وعادة ما تأتى النتائج إيجابية .

ويعتقد البدو أن الفلو الذي يولد في النهار يكون محظوظا ، إحتفاء بهذه المناسبة يشق طوليا رأس إحدى أذنيه وتخاط رؤوس أذنى الفلو عند مولده لمدة أسبوع حتى تنمو مستقيمة وتسحب قدماه وتحك جيدا لتستقيم . ويحرص البدوى حرصا كبيراً على أن يرضع الفلو من أمه لمدة إثنى عشر شهرا كقاعدة وما يزيد عن هذه المدة إذا كانت الأم ما تزال تدر الحليب مخافة ان تنمو عظامه ضعيفة . وعندما يبلغ الفلو من العمر سنتين ونصف السنة أو ثلاث سنوات تمتطى صهوته ، ثم يؤخذ في نزهات تطول مسافتها تدريجا لاكتشاف أى ضعف

قد يوجد فى عظامه أو تضخم فى قصبة قائمته . وعندما يبلغ سن الرابعة يعدو به راكب خفيف الوزن فى كل أرجاء المكان . ويقيس البدوى بإبهامه المسافة من فوق حافر الفلو الى عظم الركبة ليعرف مدى طوله عندما يكبر ، فإن بلغت المسافة سبعة عشر إبهاما فأكثر يعني هذا أن الفلو سينمو طويلا إلى حوالى أربعة عشر شبراً ونصف الشبر أو أكثر .

وتزود جميع الجياد والمهر فى الصحراء بحدوة في أقدامها . ويستعمل النعل المسطح الذي يغطي أسفل قدم الحيوان بكامله ويحميه من كدمات الحجارة والحصى . والبدو لا يستعملون اللجام مطلقا . ويقاد الفرس بواسطة الرسن ويتكون من قطع مزركشة من خيوط الصوف الملون وهذا الجزء من الرسن يحيط بوجنتى الجواد وينتهى بحلقة معدنية واسعة تمر فوق الخياشيم ثم إلى أسفل تحت الذقن ويتصل بهذه الحلقة من تحت الذقن قيد من الصوف هو الوسيلة الوحيدة للتحكم بالجواد ، ويمسك الراكب هذا الحبل بيده اليسرى لأن المهرة العربية تميل إلى حمل رأسها على الجانب الأيسر . وتستعمل الشكيمة لدى بعض شيوخ القبائل فى العراق وبعض أمراء وحكام الجزيرة العربية .

والبدو لا يلبسون جيادهم السروج والا الركاب ويمتطون ظهورها عارية فيما عدا الرسن الذي يتحكمون بواسطته في المطية . وأثناء الهجوم لا يستطيع أحد أن يحدد حجم الهجوم ومهما كانت النيران مدمرة ومهما حاول الراكب أن يتراجع فلا يستطيع عمل أى شيء حتى تفسح له الجياد المهاجمة مجالا للانعطاف شمالا أو يمينا أو عندما يعدو خلال قوات العدو . ومع أن البدوى يركب ظهر فرسه عاريا ، إلا أن الشيوخ وميسورى الحال يضعون فوق ظهر الفرس سرجا من القماش الخفيف بدون ركاب .

عندما تتقدم المهرة فى السن يقل إمتطاؤها شيئا فشيئا الى أن تتقاعد ـ إن صح التعبير ـ نهائيا عن العمل . وتعامل معاملة حسنة إلى أن تموت ولا تقتل أبدا . وعندما يحين أجلها ترقد وتموت مثل أختها الناقة . وتقضى المهرة شيخوخة سعيدة إذا كانت ملكا لأمير أو شيخ لأن هؤلاء يستبقون لحيواناتهم الخاصة سواء كانت مهرا أو جمالا أو غنما مساحة كبيرة من المراعي الجيدة . وتطلق المهر فى هذا المرعى على سجيتهاإلى يوم وفاتها . وتعطي حاجتها من الماء من خيام الحراس الرسميين وفي الصيف تعطى كميات صغيرة من الحبوب لتقتات بها في شهور الصيف الصعبة .

الغنم والماعز

توجد فى كل مدينة في الجزيرة العربية قطعان كبيرة من الماعز ، فكل عائلة تربى عنزة او إثنتين وذلك للاستفادة بحليبها . ولا تحتاج الماعز

إلى رعى بذلك القدر . الذي تحتاجه الغنم وفوق ذلك فهى أشد صلابة منها . وعند شروق كل صباح تأخذ المرأة كل ما لديها من ماعز الى باحة أحد الرعيان الذين يعيشون فى مناطق متعددة من المدينة . وبعد أن تتجمع القطعان فى تلك الباحة يخرج بها الراعى من الكويت الى المراعى فى الصحراء ، ثم يعود بها عند الغروب . ومشهد عودة الماعز الى ديارها مشهد مألوف وجميل ، إذ تتجمع البنات الصغيرات حول مدخل كل باحة في انتظار عودة القطعان ثم تأخذ كل فتاة ماعز عائلتها وتعود بها الى البيت . وكثيراً ما تترك الماعز بنفسها القطيع وتذهب مباشرة الى بيتها حيث تكون أثداؤها مليئة بالحليب فتهرع الى سيدتها التى تحلبها في الحال .

أما في الصحراء فتربية الماعز غير مألوفة إذ يفضل البدو إقتناء الغنم . ومع هذا يربى من تيسرت حاله مجموعة من الماعز للاستفادة من شعرها فى أقسام محددة من الخيمة نظراً لأن شعر الماعز أغلى وأفضل من صوف الغنم . وفى الصحراء يقود الراعى الغنم فى الصباح الى البرارى لترعى هناك وتظل عينه تحرسها الى أن يحين موعد العودة بها . وعندما يحس بالحاجة الى الراحة يغرز عصاه في الأرض ويعلق عباءته عليها وبذلك تتوهم الغنم بأن راعيها يقف مراقبا فلا تحاول الابتعاد . وفي الليل ترقد الغنم (والماعز إن وجدت) فى زاوية مكنونة من الخيمة طلبا للدفء والحماية وخاصة فى الشتاء حيث تكثر الذئاب الجسورة . وتكون الغنم ملتصقة بالخيمة لدرجة أن حوالى نصف عددها يكون مستظلا تحت رفراف الخيمة . ويربط كل حمل من رجله ورقبته بحبل مشدود إلى وتد داخل الخيمة . وتدور كلاب الحراسة حول الخيمة طوال الليل واذا أحست بوجود ذئب في المنطقة تنبح نباحا مستمرا . وعندما تكثر الذئاب فى المنطقة تربض الجمال مقيدة القوائم حول الغنم فتشكل حزام أمان لها وخارج حلقة الجمال تشعل نار ويجلس بجانبها راعي الحراسة طوال الليل . واذا كانت الخيمة لا تكفي لضم جميع الحملان تضم خيمتان إلى بعضهما البعض وتظل العائلة والضيوف في كلا الطرفين .

وبالرغم من هذه الاحتياطات فإن الذئب الجسور يتسلل من بين الجمال ويمسك بحمل من عنقه ويهرب به بينما تحتال أنثاه في تلك الأثناء على كلاب الحراسة فى إتجاه معاكس إلى أن ينفذ الأول بفريسته . ولحماية الحمل توضع ياقة غليظة من الصوف حول عنقه لأن الذئب عندما يخطف حملا فإن أول شيء يفعله به هو أن يمزق رقبته . فإذا اكتشف أمره وطورد في الحال فسوف يعض الياقة ولن يكون لديه الوقت الكافي لقتل الحمل لأن الكلاب ستكون قد أطبقت عليه .

من الأمور المدهشة عند البدو وقطعانهم الطريقة التى يتعرف بها

ويقطعون مثل هذه المسافة بحثا عن الأرانب . ويتم تدريب الكلاب على الصيد منفصلة عن بعضها البعض كل في منطقة تبعد عن الأخرى حوالى عشرين أو ثلاثين ياردة . وعندما يرى الكلب أرنبا يظل يلاحقه الى أن يمسك به ثم يكسر ظهره أو يطرحه أرضا الى أن يأتي سيده ويأخذ الطريدة .

ويجرى صيد الأرانب بواسطة الكلاب السلوقية مشيا على الأقدام أما صيد الغزلان فركوبا على الجمال لأن علو الجمل يمكن الصياد من رؤية الغزال من على بعد ومن ثم ملاحقته لعدة أميال . ومن المدهش أن الكلاب السلوقية المدربة تدريبا جيداً إذا ما أبصرت أرنبا فمن النادر أن يفلت منها إذ أنها تظل تعدو خلفه عدة أميال الى أن ينهار ويقع على الأرض إما من الرعب أو من شدة الإرهاق ، عند ذلك يمسك الكلب بفريسته حتى وصول الصياد الذي يترجل عن جمله ويقطع رقبة الأرنب . والسعادة الكبرى التى لا توصف عندما يعود الصياد إلى خيمته باللحم . فاذا كان الصيادون على بعد مسافة طويلة من الخيام قد تؤدى الى فساد لحم الطريدة قبل الوصول الى الخيمة فإنهم فى تلك الحالة ينزعون الأضلاع والعظام الكبيرة ثم يقطعون اللحم شرائح طويلة ويملحونه ويفرشونه فوق ظهور الجمال ويتركونه مشكوفا .

والكلب السلوقي بالنسبة للبدوى كلب شديد التوتر ويجب الا يصفع أو يضرب بالسوط أثناء التدريب لأن مثل هذه المعاملة تفسده وتضعفه ، لذلك يحتاج الكلب السلوقي في تدريبه إلى صبر طويل . وعندما تلد الكلاب السلوقية لا يتخلص البدوى من صغارها وإنما يحفظها مع أمها لمدة شهر لأن حرمان الأم من صغارها في مراحل الطفولة له تأثير سيء عليها . وفى الشتاء يشعر الكلب السلوقي بالبرد فيلبسه صاحبه معطفا يقيه برد الصحراء القارص .

يستطيع البدوى أن يميز الكلب السلوقى الجيد بالنظر الى عدة أمور وهى أن يكون خرطومه طويلاً وضيقا وهو ما يشير الى نوعه وأن يكون صدره غويطا وهو ما يدل على قسوته وأن يكون وسطه رقيقا وهو دلالة على خفته وسرعته وأن يكون عرقوبه واطئا . وأن يكون عرض المسافة ما بين رأس عظم الفخذين من الخلف شبرا واحدا ، بعد ذلك فإن الكلب الذي يوجد تحت ذقنه كتلتان من الشعر افضل ممن له خصلة واحدة ، ومن له ثلاث أو أربع خصلات أفضل من غيره .

وأحسن الكلاب السلوقية تلك التى تربيها قبيلة العوازم وهم أمهر مدربين فى هذا المجال في شرقي الجزيرة العربية ويأتى بعدهم العجمان وأبناء عمومتهم المرة ثم مطير . ويحرص البدوى على ألا يحدث جماع بين كلبة سلوقية وكلب حراسة عادى أو كلب نصف سلوقى . ذلك عندما تكون الكلبة فى حالة شبق تحتجز في الخيمة أو تربط رجلها الخلفية برقبتها

بواسطة حزام من الجلد . وهذا الوضع غير مريح بالنسبة للحيوان الذي يجد الراحة فى الاستلقاء . وفى الصيف عند دنو ولادة الكلبة السلوقية تحفر المرأة أو أحد خدمها حفرة خارج جناح النساء وتغطيها بالقش وأغصان الشجر وتضع فوقها طبقة من التراب وتترك فتحة تعبر منها الأم الى مضجعها فتضع صغارها بهدوء وسلام .

ينظر العرب منذ القدم إلى الصيد بواسطة الصقور على أنه رياضة الملوك . وقد أدخلت هذه الرياضة الى أوروبا بعد الحملات الصليبية ثم دخلت أسبانيا عن طريق الفتح العربى لها . وموطن هذه الرياضة فى الوقت الحاضر . شمال وشمال شرق الجزيرة العربية وهى المنطقة التى تستقبل الهجرة السنوية الأولى من الحبارى . ويعتبر صيد الحبارى بواسطة الصقور الرياضة الرئيسية ، ومع هذا فإن صيد الغزلان والأرانب الوحشية نوع آخر من الرياضة .

تظهر الحبارى على الشاطىء الشمالي الشرقي من الخليج العربى حوالى شهر أكتوبر من كل عام وتستمر الطيور في الظهور حتى شهر إبريل عندما تبدأ تدريجا فى الرحيل الى مناطق باردة ، ويبقى عدد قليل منها في كل عام يتوالد محليا ولكنها بصورة عامة تهاجر وتعود الى هضاب إيران ، كما يعتقد العرب ، أو ربما الى وسط أسيا حيث تهاجر من هناك الى الجنوب عبر إيران فتتفادى المناطق الباردة .

وعندما تصل الحبارى الى الجزيرة العربية تتغذى على الحشائش الصغيرة التى أفرزتها أمطار أوائل شهر أكتوبر فاذا ما تقدم الشتاء أكثر فأكثر تكثر الحشائش والأعشاب وتتفرق الطيور فى المنطقة وتأخذ فى التقدم شيئا فشيئا الى المناطق الداخلية في الشمال حتى الصحراء السورية وفى الجنوب حول الرياض وحول جبرين . ولا يتعدى قليل من الطيور غرب هذا الحزام .

وفي الزبير وساحل عمان ينتظر موسم الحبارى بشوق كبير . ويذهب الى هذا الصيد كل أمير وشيخ سواء كان كبيراً أو صغيرا وكل من استطاع أن يدخر بعض النقود يشترى بها صقرا . وفي الحقيقة يمارس هذا الصيد كل من ينظر لنفسه نظرة تقدير واحترام ويأمل في الحصول على صقر .

ويستعمل العرب نوعين من الصقور أحدهما الحر أو الحرة والثانى الشاهين . والأول هو الأفخم والأغلى ثمنا . وتأتى أحسن الصقور من سواحل إيران ويتراوح سعر الواحد منها بين خمسين ومئة وخمسين روبية . ويصطاد البدو المهرة فى القنص صقور الحر والشاهين . وتعتبر جزيرتا وربه وبوبيان أفضل مناطق القنص بالنسبة للبدو الكويتيين وتأتى بعدهما ، فى اعتقادي ، شبه جزيرة الظهر أو جنوب القطيف .

هناك طريقتان للقنص . الأولى :

عند العلم بوجود صقر في المنطقة تنصب شبكة مربعة منسوجة من خيوط خفيفة ورقيقة طول ضلعها ثلاثة أقدام تنصب على الأرض بتحدر فتشكل زاوية قدرها ستون درجة . يثبت طرفها الأسفل على الأرض بواسطة اوتاد أو مسامير ويمسك الطرف العلوى بواسطة دعامتين عبارة عن عودين رقيقين ممسوكين بحبلين مثبتين الى الأرض ثم يوضع تحت الشبكة يربوع او حمامة مربوطة الرجلين ومثبتة بوتد إلى الأرض وعندما يبصر الصقر الحمامة من على بعد ينقض عليها بدون أن يرى الشبكة التى تقتلع من الأرض فى الحال وتلتف حوله ، وكثيراً ما يدخل راس الصقر ورقبته فى عيون الشبكة مما يسهل الإمساك به .

والشبكة سهلة الحمل اذ يمكن طيها مثل كرة صغيرة ووضعها فى محفظة الصياد ويحمل الدعامتين الرقيقتين داخل عصا خيزرانة يلقي بها فوق ظهره على غرار حمل البندقية ويحملها معظم البدو في الحسا والكويت كجزء من معداتهم خلال فصول الخريف والشتاء والربيع حيث تنتشر الحبارى فى هذه الفصول .

أما الطريقة الثانية للصيد فهى باستعمال شبكة ذات فتحات أصغر بكثير من الأولى مساحتها (٧ × ٣) أقدام . تفرش الشبكة على الأرض ويتصل بها عيدان وخيط طويل ، وعند سحب الخيط ترتفع الشبكة الى أعلى ثم تهبط فتطبق على أي شيء يوجد على الأرض . بعد ذلك يؤتى بحمامة وتثبت في الأرض بواسطة ربط أحد جناحيها بالقرب من أحد أطراف الشبكةويجلس القناص فى حفرة تبعد حوالى مئة قدم فى عكس إتجاه الشبكة ويغطي رأسه بأغصان الشجر ويمسك بيده خيطا طويلا آخر ينتهى طرفه الآخر بحلقة تقيد الحمامة . ثم يحضر الصياد غرابا مدجنا ويضع بين رجليه قطعة من الصوف سوداء اللون ليوهم الصقر بأن هناك فريسة بين براثن الغراب ويربط رجل الغراب بخيط ثالث طوله مائتى قدم يمسك بطرفه ويطلق الغراب فيطير ويهبط فوق الشبكة وفى هذه الحالة يتوهم أى صقر أن بين مخالب الغراب طيرا فيهجم فى الحال لخطفه .

عندما يرى الغراب الصقر ينعب بشدة ويهبط على الأرض فيسحبه القناص ثم يهز الحمامة بواسطة الخيط الثانى ليجعلها تتخبط فيراها الصقر ويهجم عليها في الحال ويقتلها ويبدأ فى التهامها ، في تلك الأثناء يسحب القناص الصقر وفريسته باتجاه الشبكة وعندما يصل الى الوضع الصحيح يهز خيط الشبكة فيسحبها فوق الصقر وبذلك تطبق عليه .

ويعتبر رجال قبيلة الرشايدة أحسن مدربى الصقور في المناطق حول الكويت والرياض وقبيلة المرة في الجنوب . عند الامساك بصقر يتم إدخال خيط رفيع فى جفنه الأسفل ثم يمرر من رأسه عبر الجفن الأسفل

الآخر مما يؤدي الى إغلاق عينيه . بعد ذلك يغطى رأسه بغطاء من الجلد أو برقع .

يحتاج الصياد الماهر إلى ثلاثة عشر يوما لتدريب صقر عمره عام ، ومن عشرين الى خمسة وعشرين يوما إذا كان عمر الصقر سنتين أو ثلاثا . ويستطيع الصقر الجيد أن يقتل من أربعة الى خمسة حبارى فى يوم واحد وقد علمت عن صقر غير عادى يقتل من سبعة الى ثمانية فى اليوم . وقد كان لشيخ الكويت صقر بارع لا يقدر بمال إسمه (بترول) يستطيع ان يقتل أحد عشر طيرا ، والصقر البارع الشهير هو الذي يكون دائما مستعدا للصيد وقد رأيت (بترول) ذات مرة بعد أن قام بقتل عشرة طيور مستلقيا على ظهره فى غاية الانهاك وكأنه على وشك الموت . وفي هذه الحالة يعطي جرعة من الاسبرين مذابا في الماء فيعود اليه نشاطه .

هناك طريقتان متبعتان فى الوقت الحاضر (١٩٣٥) لصيد الحبارى بواسطة الصقور . الأولى ابتكرها ابن مشرى من الزبير وتبناها من بعده شيوخ الكويت ، وحسب هذه الطريقة يربط الصياد أطول ريش في طرف جناح الطير بعضه ببعض بخيوط صغيرة مما يقلل من سرعته ويمنعه من اللحاق بحبارى قد تكون على بعد كبير من الصياد . وهذه الطريقة سائدة فى الـزبير . والكـويت . ثم الطريقـة القديمة والتى استبدل بها حاليا الطريقة المستحدثة فى الكويت وهى أكثر رياضية لأنها تعطي الصقر حرية . تامة فى الطيران ولكن بهذه الطريقة ضاع عدد كبير من الصقور وإن كانت مدربة تدريبا جيدا .

اما الطريقـة الحديثـة فيطلق بموجبها الصقر في أرض مكشوفة فاذا أبصر حبارى ينطلق من يد الصياد ويطير بأقصى سرعة بمحاذاة الأرض وينقض على فريسته ممسكا إياها من العنق حتى وصول الصياد إلا إذا استطاع الحبارى الإفلات بمساعدة طير آخر . ويستطيع الحبارى أن يعطل الصقر عن عمله لبقية اليوم بافراز مادة لزجة من فتحة شرجه على ريش الصقر وعينيه ورأسه مما يشوش بصره ويدبق ريشه فيلتصق بعضه ببعض ولا يقوى على الطيران إلا بعد غسله وتجفيفه .

ويمكن أن يحاول الحبارى النجاة بالإستلقاء ساكنا وبدون الإتيان بأى حركة بحيث لا يراه الصقر عندما يصل للموقع ، ولكن الصقر المدرب تدريبا جيدا يعلم أن الطريدة تقبع فى تلك المنطقة فيجثم في الحال وينتظر قدوم الصياد الذي يجول هنا وهناك حول الصقر فما أن يحاول الحبارى النهوض حتى يطلق الصياد عليه النار في الحال . وعادة ما يتم صيد حوالى نصف دزينة من الطيور بهذه الطريقة لأن الطير يخاف أن يتحرك طالما يقبع الصقر في المنطقة وبـذلك يعطي الفرصة للصياد أثناء تفصحه المنطقة بالدوس فوقه بدون أن يتحرك . واذا كان الصياد يعتقد بوجود الحبارى فى

المنطقة ينزع برقع الصقر ويرفعه عاليا ويطلق صرخة مثل (اهوه .. اهوه .. اهو) يعقبها بطلقات نارية (ها .. ها .. ها) . والغرض من ذلك هو ترويع الطائر وتجفيله مما يجعله يدير رأسه ولو بحركة خفيفة فيلاحظ الصقر الحركة ولو من على بعد نصف ميل فينطلق من يد الصياد مسرعا نحو فريسته .

وعندما تكون الهجمة ناجحة ينقض الصقر على فريسته فيقتلع ريش صدرها الذي يتطاير فى الحال فى الهواء ثم يمسكها من عنقها فى محاولة لنهش لحمها ، في تلك الأثناء يجب على الصياد أن يسرع قبل اللحظة الحاسمة فيذبح الحبارى ويسمح للصقر بأخذ عدة عضات من صدره ثم يبعده عن الفريسة بحيلة وهى أن يضع قطعة كبيرة من الجلد مستديرة الشكل بين الصقر وبين الفريسة ويزلقها بحركة خفيفة ثم يلبس الصقر البرقع مرة أخرى ويضع الحبارة فى كيس .

كذلك يمكن اصطياد الغزلان بواسطة الصقور . ويمارس البدوى هذا النوع من الرياضة أكثر من الحضرى لرغبته فى الحصول على لحم طازج ، وكثيراً ما يستعين بالكلب السلوقي فى عملية الصيد هذه . فأولا يتم تدريب صقر خاص على مهاجمة الغزال حال رؤيته له ثم يفصله عن باقى القطيع ويبدأ بالدوران حول رأسه من مسافة قريبة وبسرعة شديدة ويحاول أن يخمش الغزال بمخالبه فى وجهه وعينيه فيحاول الغزال البائس الفرار ولكن لا مفر من عدوه ، عند ذلك يقف ساكنا ويحاول أو ينطح الطير عندما يهجم عليه ولكنه سرعان ما يصاب بالدوار والارتباك إثر الهجوم المتكرر من الصقر الذي يبدأ بتجريح وجه الغزال ببرائنه الى أن يعميه في بعض الأحيان وفي هذه المرحلة ينهار الغزال على الأرض ويأتى الصياد الذي يحصل على فريسته فى غاية السهولة .

وهناك عدة أنواع من الطيور إلى جانب الحبارى تحلق فى سماء الكويت خلال فصل الربيع ، وتقل في فصل الخريف موسم هجرة الطيور ويذهب معظم صبيان الكويت والقبائل التى تقيم على الساحل الجنوبى لاصطاد هذه الطيور من باب التسلية . وتؤكل طيور الصيد أو تباع الى أطفال آخرين أو للصيادين فيطعمونها صقورهم خارج موسم الصيد . وتستعمل عدة أنواع من الفخاخ لصيد الطيور الصغيرة تختلف كلية عن فخاخ الصيد بالصقور وهى بالنسبة للأطفال ضرب من أنواع اللعب . ويستعمل الفخ لاصطياد صقر العوسق (الشرياص) الذي يظهر بعشرات الآلاف فى مدينة الكويت خلال أواخر شهر مارس وإبريل . ويستعمل العوسق كطعم في فخ حيث تربط رجلاه بحجر ثقيل بالقرب من شجرة تجثم حولها الطيور وتنصب حول الطير الأسير عدة فخاخ مثبتة بوتد فى الأرض ومغطاة بطبقة رملية رقيقة

لا يبدو منها سوى ديدان عالقة بها . وعندما ترى الطيوررفيقا لها على الأرض تتجمع حوله وتقترب شيئا فشيئا منه وما أن تحاول التقاط الديدان حتى تطبق عليها الفخاخ فيخرج الصبيان أصحاب الفخاخ من مخابئهم خلف جدار أو في بقعة متوارية فى المنطقة ويندفعون لالتقاط الطيور التى ترفرف فى محاولة منها للافلات . بعد ذلك يحمل كل صبى طيره على رسغه ويمشى مقلدا الشيوخ صيادي الصقور . وتصاد طيور الصرد (الحمامى) بمثل هذا النوع من الفخاخ أيضا .

وهناك أيضا فخاخ (الصلابة) وتنصب على سطوح المنازل فى الكويت داخل أجمة مقطوعة من أغصان الشجر ترتب وتوضع بعناية فوق السطوح لهذا الغرض . ويمكن نصب حوالى ستة فخاخ فى كومة واحدة من الأغصان . كذلك ينصب هذا النوع من الفخاخ بمحاذاة جدران واطئة من الطين فى حدائق واطئة خارج المدينة أو بين الورود أو أى مكان آخر . وتنجذب الطيور إلى مثل هذه الأغصان لوجودها فى أماكن يندر فيها وجود الشجر ، فيحط الطير على وتد يتصل به خيط فما أن يقع الوتد حتى تمسك قدماه بالخيط . ثم تؤخذ الطيور وتوضع فى سلة صغيرة مصنوعة من سعف النخيل وتباع فى الشوارع والأسواق .

وهناك نوع ثالث من المصائد يسمى (ساليه) ويتكون من شبكة مثبتة باطار مقوس من الخيزران . وتنصب هذه المصيدة فوق شجرة صغيرة بحيث يميل طرفها وجوانبها الى الأرض حيث توضع حجارة ثقيلة مما يوهم الطيور بوجود جحر مدخله إلى أعلى فوق الشجرة وتأتى الطيور فتحط فوق الشجرة . وفى الصباح الباكر تدفع الى أسفل وتقع فى شرك الشبكة على الأرض ثم تمسك بسهولة .

صيد اللؤلؤ

فى خلال الفترة من ٢٠ مايو الى ١٠ يونيه من كل عام تعم البهجة شواطىء مدينة الكويت ، فهذا موسم صيد اللؤلؤ والسفن على أهبة الاستعداد للغوص . ويشارك في هذا الموسم إلى جانب القطاع الأكبر من سكان الكويت عدد كبير من بدو العوازم والعجمان والمطران الذين يتركون خيامهم فى فصل الصيف ويأتون الى الداخل لينالوا حظهم من اللؤلؤ في موسمه السنوي.

ومع اقتراب موسم الغوص يبدأ قبطان السفينة بجمع أفراد بحرية سفينته الذين يحتفظ بأسمائهم مدونة فى كتابه من السنة السابقة . وبما انهم مدينون للنوخذة فإنهم يلبون النداء فى الحال . ثم يجرى تنظيف السفن ودهن جزئها العلوى بزيت سمك القرش وطلاء الأجزاء السفلية المغمورة تحت سطح الماء بخليط من دهن الغنم والنورة لوقايتها من

العفن . بعد ذلك يقوم البحارة بسحب سفنهم من اليابسة إلى الماء على وقع دق الطبول والأغاني والأهازيج .

بعد أن يتم إعداد السفينة ووضع الماء والطعام ـ مؤونة الرحلة ـ يسمح للبحارة الذين يتراوح عددهم من اربعين الى ستين رجلا بزيارة بيوتهم وتوديع أهلهم وزوجاتهم وعائلاتهم . يدفع القبطان لكل منهم مبلغ خمساً وثلاثين روبيه كمقدم أجر يتركها البحارة لعائلاتهم ينفقون منها أثناء غيابهم . ويحدد شيخ الكويت هذا المبلغ فى كل عام .

تسافر السفن التى تتكون من السمبوك أو الشوعي أو الجالبوت عبر ساحل الجزيرة العربية لمسافة حوالى مئة ميل جنوبى الكويت حيث تكون الضفاف مالحة وعميقة بدرجة معقولة . وتلتقى مئات السفن هناك وينضم اليها أميرال أسطول اللؤلؤ في (البتيل) وتبدأ عمليات الغوص .

يقسم طاقم البحارة الى سيوب وغواصين . مهمة السيوب ملاحظة الغواصين فى قاع البحر بواسطة الحبال التى يمسك بها الطرفان ومهمة الغواصين البحث عن المحار . يقف كل غواص عند نزوله الى القاع بواسطة ثقل من الحجارة يتصل بالسفينة بواسطة حبل . وهذا الحجر يسهل عملية نزوله فى أقصر وقت ممكن مما يحفظ له نشاطه ويجنبه الارهاق ، وعندما يحين وقت التنفس يسحب السيب الحبل والحجر الى أعلى يعوم الغواص الى سطح الماء . يسد الغواص أنفه بواسطة (فطام) ملقط خشبى منعا لنفاذ الماء الى خياشيمه ثم يعلق سلة فوق صدره مدعومة بأنشوطة يمررها حول عنقه كما أنه يتسلح بسكين يخلص بها المحار من قاع الصخور ويلبس فى كل يد قطعة صغيرة من الجلد مثل الكف لحماية أصابعه .

والغواص لا يلبس عادة إلا مئزراً صغيراً يستر عورته . أما في حالة وجود مخلوق (الدول) سمك الهلامى (أو رئة البحر) اللساعة فإنه يلبس بدلة سوداء تغطى كل جسده ورأسه ويديه وقدميه ويترك بها فتحتان للعينين فقط . يغطس الغواصون الى القاع ثم يطفون الى السطح لمدة حوالى ست أو ثمانى ساعات يوميا يتخللها دقائق قليلة على فترات محددة للأكل والراحة . أما عمل السيب فيعتبر سهلا نسبيا بالقياس الى عمل الغواص وإن كانوا يسحبون الحبل والحجارة عدة مرات في اليوم .

بعد أن يمسح الغواصون المنطقة الواقعة تحت القارب مباشرة ومن حوله من المحار يحركون القارب الى منطقة أخرى بواسطة المجاديف أو بسحب الحبال المشدودة إلى المراسى .

ومع غروب الشمس يأتى الفرج للغواص والسيب . ويتناول كلاهما وجبة خفيفة لأن الاكثار من الطعام يقلل من نشاطهما وقدرتهما على التحرك وفي المساء تفتح أصداف المحار ويأتى التجار فى قوارب شراعية أو قوارب بخارية ويقومون بدورات

حول الأسطول يتفحصون خلالها اللؤلؤ ثم يأخذون ما يريدون من مشتروات وتتم الصفقات على الحساب حيث تسجل فى سجل الديون وإن كان بعض النواخذة (القباطنة) يصرون على استلام الثمن نقدا .

في منتصف شهر سبتمبر وبعد أربعة شهور مضنية يأتى أمير الغوص إلى مكان وجود الأسطول ويطلق أعيرة نارية إيذانا بانتهاء الموسم . وفى الحال يهب الجميع مهللين فرحين بالعودة الى بيوتهم . فاذا كانت الريح مواتية يبحر ثلاثمائة أو أربعمائة قارب فى وقت واحد وبكامل أشرعتها في سباق إلى الكويت . فما أن تبدأ هذه القوارب فى الظهور على شواطىء الكويت حتى يزداد دق الطبول وإطلاق النار . وتلبس النساء أحلى ثيابهن وتهرعن الى الشاطىء ويسود المنطقة جو من الفرحة والترحيب . فتصطف النساء والأطفال مبتسمين ضاحكين فى انتظار أول طلائع موكب عودة الأزواج والآباء .

عند الوصول يسمح للغواصين بالذهاب مباشرة الى بيوتهم أما السيوب فيتخلفون الى حين الانتهاء من جمع المعدات وحفظها حتى الموسم التالى وسحب القارب من البحر وكشط بدنه ثم اعادة تزييته . ويحمل القبطان اللؤلؤ الى السماسرة ويبدأ فى مساومات البيع . وبما أن هذه الفترة قد تستغرق من شهر الى ستة أسابيع فإن القبطان يدفع للطاقم الذي لا يتقاضى راتبا وإنما جزءا من مردود المبيعات ، دفعة أخرى على الحساب . وهذا المبلغ مثل سابقه ينفقه البحارة على عائلاتهم ولكنهم فى نفس الوقت يرتبطون مع النواخذة للعمل في الموسم التالى . بعد الانتهاء من عملية البيع يبعث القبطان فى طلب طاقمه ويدفع لكل منهم حصته بعد أن يخصم منها جزءا من أو كل المبالغ المدفوعة مقدما وكذلك المصروفات . وينال الغواص حصته راضيا هانئا عندما يكون مردود البيع جيداً ، وفي هذه الحالة يعتمد أفراد البحرية على أمانة القبطان إذ لا يسمح لأى منهم بحضور عمليات البيع أو المشاركة فيها . وهكذا بعد أن يتم فرز اللؤلؤ ووزنه وبيعه ينقل الى البحرين وهو السوق التجارى للؤلؤ في الخليج حيث يتجمع هناك فى كل عام التجار الهنود والأوروبيون لعقد صفقاتهم .

والغوص فى الخليج بحثا عن اللؤلؤ من أشق وأقسى الأعمال التى من الممكن أن يقوم بها الانسان لأسباب كثيرة .

أولها : أنه لا يسمح باستعمال بدلة غوص على النمط الأوروبى .

ثانيها : أن موسم اللؤلؤ يستمر خلال أربعة أشهر الصيف شديدة الحرارة حيث تكون الشمس حارقة والسكون الذي لا يتخلله نسمة هواء .

ثالثها : يتناول الغواص الحد الأدنى من الطعام ويقتصر طعامه على قليل من التمر والأرز للحفاظ على قدرته على البقاء تحت الماء لأطول وقت

وجنة الأخرى من تحت البرقع أو عبر زاوية مفتوحة في الحجاب ومثل هذه التحيات مسموحة أمام الرجال .

والإبن لا يصافح والده كما يصافح أى رجل آخر إذ عليه أن يظهر لوالده المزيد من الخضوع والإحترام . ويشير إلى والده بـ (الوالد) أكثر من (أبوي) وهى عبارة متداولة في المدن . وينادي الإبن الشاب أباه بقوله : يا طويل العمر) او يا حضرة الوالد) وينادى الأب ولده بالقول :

(يا ولدي) ويستعمل الشيخ هذه العبارة عندما يخاطب أحد رجاله .

وينادي الأب أبناءه للسلام على ضيف بالقول : (يا عيال .. تعالوا سلموا على فلان) .

ويخاطب العبد سيده بالقول : (ياعمي) ويسلم عليه بتقبيل يده . ولا يصافح السيد عبده ولكنه يسأل عن أحواله وصحته إذا لم يره لفترة ما .

في الكويت وغيرها من مدن الجزيرة العربية لا يقف الرجل الجالس للسلام على من هو أعلى منه شأنا لأن في ذلك تقربا وتملقا يهدف إلى الحصول على منافع خاصة . والقاعدة المعمول بها أن يبدأ كبير الشأن بالقاء التحية ، كذلك يطرح السلام أولا الواقف أو الماشي على الجالس ، ومن كان على ظهر فرس يلقي بالتحية على الجالس أو الماشي ، عندها فقط ترد التحية بالقول :

(عليكم السلام) .

الأكـــل :

يدعو المضيف ضيوفه للبدء في الأكل بالقول : (تفضلوا) ، ويستعمل نفس العبارة للترحيب بشخص ودعوته إلى خيمته أو بيته . وقبل البدء في تناول الطعام يذكر كل شخص إسم لله بالقول : (بسم لله) . ويقال للضيف هنيئا بعد أن يشرب والجواب عليها : (الله يهنيكم) أو (هناكم الله بالايمان) وكذلك بعد الانتهاء من الطعام. ومن باب الأدب أن يشكر الضيف مضيفه بالقول: (الله يكثر خيرك) أو (أنعم الله عليك)، والجواب على ذلك: (هني وعافية) أو (مال الله ومالك).

التعــازي :

عبارات التعزية المتداولة هي : أن يقال لمن فقد ولدا له : (الله يخلف عليكم) والرد على ذلك (لله الحمد والشكر) ، ويقال لمن فقد قريبا له في ريعان الشباب : (الله يعظم أجركم) ولمن فقد طفلا : (الله يحسن أجركم) .

عبارات متداولة أخرى :

* (والله) و (بالله) ، و (إيه بالله والله) : هذه العبارات يقسم بها المتكلم ليؤكد بأنه يقول الحقيقة .

* وتقال العبارات : (في أمان الله) ، و (حفظكم الله) ، و (وداعة الله) لتوديع صديق أو ضيف وهى بصورة عامة عبارات الوداع .

* وتستعمل العبارات : (توكل على الله) ، و (توكلنا على الله) ، للمباشرة في القيام بعمل أو سفر أو ما شابه ذلك .

* وتستعمل عبارة : (الله كريم) ، للتعبير عن الاستسلام لأمر الله أو

الأمل في العوض عندما لا تسير الأمور حسب المشتهى .
* وتقال عبارة : (ساعدكم الله) ، و (قواكم الله) التي تختصر إلى (القوة) لتشجيع شخص على القيام بعمل ما .
* وتستعمل عبارة : (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) ، للتعبير عن الإندهاش إثر حادث أو منظر غريب .
* ويقال : (استغفر الله) ، و (لا إله إلا الله) ، لدفع الأذى .

مختارات من الأمثال والأقوال العربية :

* هناك ثلاثة أشخاص يسيطرون عليك إذا لم تسيطر عليهم وهم : من يعمل في أرضك ، وزوجتك ، وعبدك .
* ثلاثة أشياء تنزع الحيطة من صدر الرجل وهي : الماء الجاري ، والمرج الأخضر ، والوجه الحسن .
* جارك ، ثم جارك ، ثم جارك : (واجبك تجاه جارك يأتي قبل كل شيء) .
* (ياضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل) .
* إضرب الكلب يتأدب الأسد .
* البيت بيتك لكن المسجد أدفأ لك ، (إشارة للضيف بعدم الترحيب به ، ويعتبر الجامع ملجأ وملاذا شرعيا لمن لا بيت له) .
* ما دمت في دارهم فدارهم .
* (إذا دليت البدوي على باب بيتك إفتحه علشان يدخل بعيره) هذا القول يدل على أن البدوي طماع فإن دعوته إلى بيتك يحضر معه قبيلته .
* لماذا تشغل نفسك بشجرة ووجودها ؟
* المشاهد غير اللاعب ، (معناها من السهل عليك أن تنتقد إن لم تكن أنت اللاعب) .
* حافظ على سرية مهامك أو أعمالك الهامة .
* (خبز خبزتيه يالرفلاء أكليه) ، أيتها المرأة البلهاء عليك أن تأكلي الخبز الذي خبزتيه بنفسك .
* لا تركب ناقة عمانية ولا تتزوج من بنات قبيلة زعاب . فالأولى تنهك الإبل من الجيش والثانية ستغضب زوجاتك من الغيرة . (مثل بدوي يمدح سرعة الجمل العماني وجمال وذكاء نساء قبيلة زعابية) .
* الصبر مفتاح الفرج .
* في التأني السلامة وفي العجلة الندامة .



دراسة موضوعيّة وفنية ١

الشاعر علي بن المقرّب العيوني



بقلم: الدكتور/ أحمد موسى الخطيب

بالشعرِ.. أرّخ ابن المقرب



ـدولة العيونيين

هـــذا البحـــث

الشاعر البحريني القديم والشهير علي بن المقرب العيوني لا تكمن أهميته فقط في أنه أحد الشعراء المجيدين الذين عرفهم تاريخ الأدب العربي وإنما ترجع اهميته في أنه يعتبر المرجع الأهم بل يكاد يكون المصدر الوحيد . لتاريخ دولة كاملة هي دولة العيونيين التى حكمت البحرين لأكثر من ١٥٠ عاما بدأت مع أوائل القرن الثالث عشر الميلادي وشغلت مساحة ليست بسيطة في تاريخ هذه الجزر العريق .. وكأنما كان الشاعر علي بن المقرب يعرف أن مصادر تاريخ هذه الدولة سوف تضيع فأرخ بشعره لها ولحكامها ورسم بقلمه صورا دقيقة لواقع الحياة خلال الفترة التى عاشها وعايش فيها دولة العيونيين . وإذا كان البحث في تاريخ علي بن المقرب وشعره أمرا اكثر أهمية بالنسبة للباحث في الأدب واللغة الا أنه سيظل دائماً أمراً هاماً بالنسبة للباحث في تاريخ دولة البحرين بصفة عامة وعصر العيونيين بصفة خاصة وذلك ما دفعنا إلى أن نعرض على صفحات الوثيقة هذا البحث القيم للباحث الدكتور / أحمد موسى الخطيب راجين أن يحقق الهدف منه وهو توفير بعض المادة التاريخية عن تاريخ هذه الدولة للباحثين في تاريخ البحرين .

(الوثيقـــة)

الرجل .. عصره .. وحياته
(عصره : الزمان)

حرى بنا قبل الوقوف على البيئة الخاصة للشاعر ، أن نلقي نظرة على البيئة العامة له ، ونقصد بذلك عصره ، وأحوال سائر الأمصار العربية الأخرى ، وذلك لأن الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية للأمة العربية كل لا يتجزأ ، مهما تباعدت أقطارها ، فهى مشدودة - دائما - بأواصر متينة اذا فدراسة أى قطر عربي بمعزل عن الاطار القومي العام ، تعد دراسة ينقصها الكثير من الكمال .

لقد ظلت الشعوب الاسلامية مجموعة الى لواء الخلافة زهاء قرنين من الزمان ، ثم بدأت الخلافة المركزية في الضعف ، وأخذت أجزاؤها تتفرق واحدة بعد

واحدة ، ولم يكن هذا التفرق نتيجة لضعف الخلافة العباسية وحده ، وإنما يرجع في بعض أسبابه الى تطور الوحدات والشعوب الاسلامية تطورا ، جعل بقاء الوحدة الشاملة أمرا غير ميسور ، ونعنى بهذا التطور نهوض بعض الأجناس الاسلامية ، واتجاهها نحو القوة ، وميلها الى بدء حياة قومية جديدة . فلما كان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، والسنوات الأولى من القرن الرابع . كانت الدولة العباسية الكبرى قد بدأت أركانها تتصدع ، وأمصارها تستقل ، وولاياتها تنفصل عنها ، وأصبحت العاصمة «بغداد» مركزا للدسائس والمؤامرات ، فتقلص ظل الخلافة ، وذابت سطوتها ، وأصبح الخليفة أسير قصوره وقواده ، لايكاد يملك من أمر نفسه شيئا .[١]

ولم يلبث الفرس أن طردوا ، حين أظهروا عجزهم عن قمع الفوضى المنتشرة في قلب الامبراطورية الاسلامية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد أحس العباسيون بالخطر الذي سيجلبه عليهم تسلط الفرس على أمور الدولة ، ولذلك حاولوا التخلص منهم ، فجاءوا بالترك ، وسلطوهم عليهم ، وكان هذا بلاء جديدا ، ومرضا أفتك من المرض الأول ، دخل جسم الأمة العربية ، لأن الفرس كانوا قوما ذوى حضارة قديمة ، وعلم موروث ، فلما توطدت أركانهم في الدولة العربية نشروا علمهم ، وبعثوا حضارتهم ، أما الترك فقوم لم يعرفوا بحضارة ، ولا روى عنهم علم موروث ، فلما استولوا على زمام أمر الدولة العربية ، سيطر عليها الجهل وعمت الفوضى ، وفشا الفساد ، وأصبح من الطبيعي أن تصل الدولة العربية الى حالة مزعجة من الفساد»[٢] حتى في عهد اقوى شخصياتها الوزير نظام الملك[٣]»الذى ترك رسالة رائعة ، كشف فيها النقاب عن مساوىء الادارة في الامبراطورية السلجوقية» .[٤]

وسرعان ما تجزأت الامبراطورية السلجوقية ، وفقد الأمراء من هذا البيت سلطانهم بالكلية ، بعد أن استبد بها من دونهم من الاتابك ، الأوصياء عليهم .[٥]

وهكذا كان العالم العربي عامة ، والعراق خاصة في فجر القرن السابع ، على حالة مزعجة من الاضطراب والفوضى ، والسر في ذلك يرجع الى الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة في يد الأعاجم من الأتراك والسلاجقة ، يتصرفون بالبلاد كما يشاءون ، ويقضون على القومية العربية بما يريدون .[٦]«وقد كان خلفاء بنى العباس المتأخرين ، وهم قادة المسلمين اسميا ، لا يتمتعون الا باحترام معنوى خارج مملكتهم الصغيرة ، التى لم تكن تقدم لهم من الامكانات ، ما يساعدهم على النهوض بواجب سياسي خطير .[٧]«وكان الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ)[٨] هو أول هؤلاء الخلفاء الذين بدأ الغزو المغولي في عهدهم ، وقد اشتد في أيامه انحلال الامبراطورية السلجوقية .[٩] «وكان الناصر قبيح السيرة في رعيته ظالما متعسفا ، أكثر عليهم الجواسيس ، واشتط في فرض الضرائب ، وأخذ أموال الناس حتى خرب العراق في عهده ، وتفرق أهله في البلاد ، وكان يفعل الشيء " وضده ، فكان يتشيع ويميل الى مذهب الامامية بخلاف أبائه »[١٠] والواقع أن هذا الخليفة الذى يعد أخر الدهاة من بنى

العراق كالحميات والطواعين .[٢٧]

وإذا كانت هذه حال العراق ـ وهو مهد الخلافة العباسية ، وميزان الامبراطورية الاسلامية ـ فكيف تكون حال سائر ممالك الخلافة التابعة لها ؟ والحق أنها كانت في حالة مزعجة ، سواء من حيث التفكك أو الجهل أو الفساد أو الاضطراب ..

تميز القرنان السادس والسابع بعد الهجرة ، بتقدم زراعي ، وتنوع في الثورة الزراعية ، وقد أدى هذا بدوره الى قيام صناعات عديدة ، ترتكز على الحاصلات الزراعية ، والثروة المعدنية . وكذلك تجلى في هذا العصر انتعاش التجارة الداخلية ، كما نشطت حركة التبادل التجاري بين مدن العراق ، وبلاد المشرق الاسلامي ، بفضل انشاء الطرق وتأمينها . وكان من أثر وفرة المحاصيل الزراعية وتنوعها ، وتقدم الصناعات وازدهارها ، ونشاط حركة التجارة أن رخصت الأسعار ، وتحسنت أوضاع الناس المعيشية .[٢٨]

ويمكن القول أن النشاط الزراعي في العراق خلال القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع كان جيداً ، وأن القرى والمدن كانت عامرة .[٢٩]

وكانت التجارة مهنة نشيطة خلال العصر العباسي الأول ، وقد استمرت كذلك حتى هذه الفترة .[٣٠] وقد كانت مصنوعات الحديد العراقية تستهوي التجار فيستوردونها الى أوطانهم[٣١] ، كما فعل شاعرنا علي بن المقرب العيوني ، اذ اشترى حديدا من بغداد ، وانحدر به الى البصرة ، مارا بواسط ، وقد استوقفه بواسط ضامن المكوس ، وأخذ منه مكسا بقدر نصف الثمن ، حيث كان ثمن المنّ الواحد ببغداد دينارين ، بينما كانت الضريبة دينارا واحدا على كل منّ حديد ، لذا هجا ابن المقرب ضامن المكوس بواسط بقوله :

بع واسطا بالناى والهجر
ودع المرور بها الى الحشر
أرض يدبرها ابن صابئة
شابت مفارقها من الكفر[٣٢]

ثم يشير الى اجحافهم في الضريبة ، الى حد وصفه لهم بقطاع طرق ، لاضامني مكوس :

أسرفت في ظلم العباد أما
للبعث في ناديك من ذكر
واعنت قطاع الطريق على
فقر التجار وخيبة السفر
نصف البضاعة حين تظفرها
مكس لقد بالغت في النكر
خنت الخليفة في رعيته
وعصيته في السر والجهر
وكلت عثمانا فوافقني
فيها وتابعه ابو بكر
حتى خرجت على حسابهما
مما جلبت براحة صفر[٣٣]

ولكن مهزلة «قطاع الطرق» من رجال المكوس لم تنته عند هذا الحد ، فلما وصل ابن المقرب البصره ، أخذ منه ضامن مكسها ضريبة يسيره ، ثم عاوده ليأخذ منه مرة أخرى[٣٤] ، فكتب ابن المقرب قصيدته التى تقع في ثمانية أبيات ، وبعث بها الى أمير البصرة شمس الدين باتكين[٣٥] ، يشكوه ذلك ، ويطلب منه دفع قيمة المكس :

يا شمس دين الله كم لك من يد
يثني بها باد ويشهد حاضر
ولدي أعمدة قليل قدرها
جدا وللديوان وال قادر
لا شيء عندي : مكسها لكنني
أخشى يقول الناس جاهك قاصر
ولقد جرى فيها بواسط وقعة
ما كان لى فيها هنالك ناصر (٣٦)

ثم يختتم هذه الابيات بقوله :

فادفع بجاهك أو بمالك منعما
عني فما لك للعفاة ذخائر

ويتضح جليا من هاتين القصيدتين أن الزيادة في المكس واقعة من قبل الضامن ، وليس للحكومة ممثلة بخليفتها أو ولاتها علم بذلك ، ولذلك طلب الشاعر مساعدة والى البصرة .

لقد أثبتت كتب التاريخ والأدب أن الحركة العلمية والأدبية ، كانت مزدهرة في هذا العصر في بلاد العراق ، والمشرق الاسلامى ، فاهتم كثير من العلماء والفقهاء بالاشتغال بالعلوم الدينية واللسانية ، من قراءات وتفسير وحديث . وظهرت عدة مراكز للثقافة العلمية ، ولكن بغداد احتفظت بمركزها الخاص .

وكان لاستقلال بعض الدول عن الخلافة أثره في نشاط الحركة الفكرية ، ورواج الثقافة ، فزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم ، ومن ثم نرى صدى هذه النهضة في بلاط كل من الغزنويين في الشرق والفاطميين والأيوبيين في مصر والشام ، والأمويين في الأندلس ، والمرابطين والموحدين في المغرب .(٣٧)

«وهكذا كانت الثقافة العربية الاسلامية تمتد ـ في القرنين السادس والسابع الهجريين ـ من الهند الى الأندلس ، وتبادل العلم والعلماء قائم بين هذه الدول جميعا ، وان تباعدت أصقاعها ، واختلفت الوانها السياسية ، أو تعادى ملوكها وحكامها ، فان الثقافة العربية حينئذ لم تعترف بالحدود الاقليمية ولا السلطان والفوارق السياسية أو العنصرية ، فيخرج العلماء من شتى بلاد المشرق ، أو يجوبون هذا العالم العربي الاسلامي ، من حدود الهند وأذربيجان الى أقصى حدود المغرب والاندلس» .(٣٨)

ويجب أن لا نغفل في هذا المقام دور كثير من الفرق ، التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية ، وما كان لها من أثر في النهضة العلمية ، وخير مثل لذلك الآثار التي خلفها العلماء من السنيين والشيعيين .(٣٩)

وقد تميزت الحركة العلمية والأدبية ، في العراق والمشرق على عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) بميزتين أساسيتين ، تندرج تحت كل منهما خصائص فرعية متنوعة ، أولاهما : صفة الشمول التي اتسمت بها آفاق النشاط الذهني ، فاتسع نطاق البحث حتى شمل مختلف العلوم والآداب والفنون . وثانية الخصائص تتعلق بالأسلوب ، فقد تجلت الصناعة اللفظية في كتب العلوم والآداب والفنون .(٤٠)

أما حال الشعر في هذا العصر فقد تغيرت عما كانت عليه قبله ، بعد ذهاب سيف الدولة ، والصاحب بن عباد وغيرهما من الآخذين بناصر الأدباء والشعراء . وصارت أكثر أمور الدولة الى

الأعاجم، وانصرفت القرائح الى الفقة والتصوف وغيرهما من العلوم الدينية ، وظهر الأدب الشعبي نتيجة لفقدان الرعاية ، فأصبح الشاعر لا ينظم رغبة في الجائزة ، أو تنافسا في التقدم لدى ولاة الأمر ، وانما ينظم في الأكثر ارضاء لقريحته ، فتغيرت أغراض الشعراء من النظم ، وقل النابغون منهم ، ومع اتساع الدولة الاسلامية ، وطول هذا العصر ، لم ينبغ فيه من الشعراء البلغاء نصف ما نبغ في العصور السابقة . ونظرا لما توالى على الدولة الاسلامية من الإحن والفتن ، كسدت سوق الشعر ، وأصبح المنتجع من الشعراء لا يستنكف من شكوى الفقر وطلب الرفد بصراحة . ويمتاز هذا العصر باتقان الصناعة اللفظية على الاجمال ، ولحق الشعر منها حظ كبير ... فأصبح الشاعر يصرف همه الى اللفظ ولو سخر له المعنى أحيانا .[41]

هكذا فقد شهد هذا العصر قدرا كبيرا من الفوضى والاضطراب ، وضعف السلطة المركزية ، وتفكك أطراف الدولة الكبرى ، وصراع هذه الدويلات وتنافسها ، وترتب على هذا سوء الأحوال الاجتماعية ، وانتشار الأوبئة الاجتماعية والمادية . وعلى الرغم من هذا وذاك ، فقد شهد هذا العصر تقدما زراعيا وصناعيا ، وشيئا من الرخاء الاقتصادي ، حال رجال المكوس دون تمتع الرعية بهذا الرخاء ، وذلك التقدم . وكانت الحياة العلمية والأدبية أحسن حظا من سائر حيوات هذا العصر ، ولكن الشيء المتفق عليه ، أن هذه الفترة قد تميزت بالمحاكاة ، وخلت ـ أو كادت تخلو ـ من الابداع والابتكار ، وحال الشعر خير دليل على هذا .

(٢)

مع مطلع القرن الرابع الميلادي استولى سابور (ملك الفرس) على البحرين ، ونكل بأهلها ، وعندها أصبحت تابعة لملكة الفرس ،[42] «وعاملها من قبلهم المنذر بن ساوى التميمي» ،[43] وكان بها خلق كثير من عبدالقيس ، وبكر بن وائل ، وتغلب ، وتميم ،[44] وكانت «عبدالقيس» قد جاءت من تهامة الى البحرين ، يقودها عمرو بن الجعيد بن الدول بن شن بن أفص بن عبدالقيس ، فزاحمت قضاعة واياد ، وغلبتهما ، واستوطنت فيها .[45] وحين خرجت رسل الخير من «يثرب» تحمل بشرى الدين الجديد الى أطراف شبه الجزيرة ، أنفذ الرسول ﷺ العلاء بن عبدالله الحضرمي ليدعو أهلها الى الاسلام أو الجزية ، فأسلم أهلها العرب وبعض المجوس .[46] وكانت رياستها في صدر الاسلام لبني الجارودي .[47] وبقيت البحرين تحت سلطة الدولة العباسية حتى عام ٢٤٩ هـ ، الى أن هاجمها الزنج بثورتهم المشهورة ، وأصبحت تحت سلطانهم مدة احدى وعشرين سنة ، وعندما هلك صاحب الزنج عام ٢٧٠ هـ رجعت البحرين الى تبعية الدولة العباسية حتى زمن المستكفى[48] بالله (٣٣٣ ـ ٣٣٨ هـ) .[49] وفي عام ٢٨٦ هـ ظهرت بالبحرين جماعة القرامطة[50] بزعامة أبي سعيد الجنابي ، والتفت حوله جماعة من الاعراب ، فقوى أمره ، واستولى على القطيف ، ثم عبر الى أوال ،[51] وفي السنة التالية أغار على نواحي هجر ، وبعد ذلك توالت غاراتهم

داخل الجزيرة وخارجها، وأخذهم الحاج غيرة مرة.[٥٢]

وفي عام ٣٠١ هـ يقتل زعيمهم أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي بعد أن استولى على هجر، والاحساء، والقطيف، والطائف، وسائر بلاد البحرين.[٥٣] وكان لموت مقدمهم هذا أثر كبير على أوضاعهم السياسية التي بدأ الضعف يدب فيها، ولكنهم مع هذا استمروا عائثين في الأرض.. ناشرين الفزع، ومخلفين الموت والدمار، وبلغ بهم التطرف والاستهتار الى حد اقتلاع الحجر الأسود عام ٣١٧ هـ وأخذه الى الاحساء مدة اثنتين وعشرين سنة.[٥٤] وفي عام ٣٢٦ فسدت حالهم وقتل بعضهم بعضا،[٥٥] ومع هذا توالت غاراتهم الى دمشق، ومنها الى الرملة، فالديار المصرية،[٥٦] ومع بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري يبدأ الجموح القرمطي في الانحسار، ويرى ابن الأثير[٥٧] أن زوال ناموسهم كان بهزيمة صمصام الدولة لهم عام ٣٧٥ هـ، وقتل مقدمهم وغيره، وأسر جماعة منهم، ونهب سوادهم. ويرى ابن خلدون[٥٨] مثل هذا في تفرق أمرهم وتلاشي دعوتهم بعد تلك الهزيمة. وكلا المؤرخين متفق على أن ظهور الأصفر (الأصغر) ابن أبي الحسن الثعلبي - من بني المنتفق - على مسرح الأحداث عام ٣٧٦ هـ كان ايذانا بذهاب دولتهم،[٥٩] فقد حشد لهم جمعا كبيرا، وتمكن من هزيمتهم، وقتل مقدمهم، وأسر العديد منهم، وتبعهم الى الاحساء، فتحصنوا منه، فعدل الى القطيف، فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم، وسار بها الى البصرة،[٦٠] ثم تمكن عام ٣٩٨ هـ من الاستيلاء على الاحساء، والخطبة للخليفة العباسي، وبهذا فقد أذهب دولتهم، وأقر الأمر له ولبنيه.[٦١] ولكننا نجد أن باحثا[٦٢] معاصرا يبكر قليلا في انهاء دولتهم الى نحو منتصف القرن الرابع الهجري، اذ دخلوا عام ٣٥٨ هـ في طاعة الخليفة العباسي، وخطبوا له على المنابر، ولعله بهذا يشير الى تولي أبي علي الحسن بن أحمد أمر القرامطة عام ٣٥٩ هـ وكان يلقب بالأعصم وقيل الأغنم، وطالت مدته، ونفى جمعا كثيرا من ولد أبي طاهر الى جزيرة أوال، وحج بنفسه، ولم يتعرض للحاج ولا أنكر الخطبة للخليفة العباسي.[٦٣]

ولكن ابن المقرب يضعنا أمام حقيقة أخرى حين يشير الى الدور الذي نهضت به أسرته في القضاء على القرامطة فيقول:

سل القرامط من شظى جماجمهم
فلقا وغادرهم بعد العلا خدما
من بعد ان جل بالبحرين شانهم
وارجفوا الشام بالغارات والحرما
ولم تزل خيلهم تغشى سنابكها
ارض العراق وتغشى تارة ادما
وحرقوا عبد قيس في منازلها
وصيروا الغر من ساداتها حمما
وابطلوا الصلوات الخمس وانتهكو
شهر الصيام ونصوا منهم صنما
وما بنوا مسجدا لله نعرفه
بل كل ما ادركوه قائما هدما[٦٤]

ثم يواصل حديثه عن دور قومه في حربهم، والقبائل التي آزرت القرامطة، كالأزد، وعامر خاصة. وهذه الاشارة بشرحها الموجز حينا، والمفصل حينا آخر، في أكثر من مخطوطة، وأكثر من مطبوعة للديوان، واستناد عدد من

دعمي بن جديلة بن ربيعة بن نزاربن معد بن عدنان . ولكن ديوان الشاعر لم يسعفنا في تحديد ذلك البطن من عامر الذي ينتمى اليه العيونيون والاقرب الى الظن أن هذا البطن هم « آل ابراهيم » الذين أشار اليهم . وسموا بالعيونيين نسبة الى موضع بالبحرين يقال له « العيون » ، يقع في أقصى شمال الاحساء على بعد عشرين ميلا شمالي مدينة الهفوف[٩٥] الحالية .

سبق أن أشرنا الى أن الربع الاخير من القرن الرابع الهجرى ، قد شهد نهاية المد القرمطى ، وتوقف حملاتهم الحربية وتقوقعهم في البحرين . وفي النصف الأول من القرن الخامس أخذت أحوالهم في التردى ، وتمكن أبو البهلول العوام بن محمد بن يوسف بن الزجاج ـ وهو من قبيلة عبد القيس صاحبة السلطة السابقة في البحرين ـ من اقناع ابن أرحم ناظر القرامطة في أوال ، ان يتدخل لاقناع القرامطة بالسماح لهم ببناء جامع سني في « أوال » من البحرين تقام فيه صلاة الجمعة ، بهدف تشجيع التجار السنيين على زيارة الجزيرة ، وكان لهم ما أرادوا مقابل مبلغ من المال ، وعند ما تم بناء الجامع عام ٤٥٠هـ ، نهض خطيب الجمعة الوليد أخو أبي البهلول، وخطب باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، فغضب المتعصبون للقرامطة من تصرفه ، ولكنهم لم يفلحوا في منعه .[٩٦] وقوى بعد ذلك نفوذ السنة في أوال وازداد عدد التجاربها ، مما شجع أبا البهلول على طرد الناظر القرمطى من أوال وتسميته نفسه بالامير . وقد حاول القرامطة استعادة نفوذهم عليها ، والتخلص من أبي البهلول ، فسيروا اليه حملات متلاحقة ، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك ، بل هلك كثير من قبيلة عامر ربيعة من عقيل ـ ممن كانت تعتمد عليهم في حربه ـ[٩٧] في موقعة كسكوس أوال البحرية[٩٨] .

وكانت قبائل اليمن في الاحساء قد شركت القرامطة في تدبير أمورهم منذ عام ٤٥٩هـ وتسمى بعضهم بالأمير ،[٩٩] وليس من شك في أن هذه الاحداث كانت بمثابة مؤشرات واضحة ودالة على بداية النهاية للقرامطة ، اذ بدأوا يفقدون نفوذهم على أجزاء من دولتهم وأصبحوا عاجزين عن تأديب الخارجين عليهم ، والطامعين في سلطتهم من الداخل ، مما حدا بيحيى بن عياش الى الظهور على مسرح الصراع في البحرين ، يبغى الانفراد بجزء من التركة القرمطية ، أو بها كلها ، فيتصدى لحرب القرامطة في القطيف ، ويهزمهم ، ويجليهم عنها ، ثم يعلن استقلاله بها ، وتتطلع نفسه بعد ذلك الى بسط سيادته على جزيرة أوال ، ويتم له ما أراد ، منهيا امارة ابى البهلول عليها .[١٠٠]

وحين حقق ابن عياش هذه الانتصارات المتلاحقة على القرامطة في القطيف ، وعلى أبى البهلول في جزيرة أوال ، شجع هذا الصراع شخصية جديدة على الظهور في البحرين فنهض عبدالله بن على العيونى لقتال القرامطة في الاحساء عام ٤٦٢هـ وانتصر عليهم ، فتحصنوا في الاحساء ..[١٠١] ويبدو أن ظهور العيونيين بزعامة عبدالله بن على في الاحساء ، كان ثأرا لأبي البهلول من ابن عياش الذي قضى عليه وأخضع أوال لسلطانه وضمها الى القطيف ، واستكمالا لدوره في حرب القرامطة

والقضاء على مابقى لهم من نفوذ ، وذلك لأن العيونيين شركوا أبا البهلول ثورته على القرامطة ، وحربه لهم ، وقاد بشر بن مفلح العيونى جيش أبى البهلول الذي هزم جموع القرامطة وأنصارهم فى موقعة كسكوس أوال(١٠٢) .

ولم يكن فى مقدور عبدالله العيونى حقيقة أن ينهض بمفرده بهذا الدور الخطير فى قتال القرامطة ، والحد من اطماع ابن عياش ، الذى أخذ يطمع فى بسط سيطرته على الاحساء ، فقد كان أعوان العيونى قلة لا يربو عددهم على اربعمائة مقاتل :

وجمعنا في مئين اربع قصرت عدا . لكنها اعلى الورى قدما(١٠٣)

ولكنه ـ على ما يبدو ـ كان يتمتع بقدر من الدهاء والحنكة ، فبعد ان ابدى صدق النية فى قتال القرامطة ، وشرع يقاتلهم طامعا فى الأحساء ، منذ عام ٤٦٢ هـ (١٠٤) . وحقق بعض الانتصارات ، طلب المعونة من الخليفة العباسى عام ٤٦٧هـ (١٠٥) فكتب الى جلال الدولة أبى الفتح ملكشاه السلطان السلجوقى ، والخليفة يومئذ ابو جعفر القائم بأمر الله (ت ٤٦٧هـ) . والوزير نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ)، وشرح له أحوال القرامطة وضعفهم ، وأنه يريد أخذ الاحساء منهم ، واقامة الدعوة للدولة الجلالية العباسية فى الاحساء ، ويميت سنن القرامطة .(١٠٦) وهنا تجدر الاشارة الى أن أبا البهلول قد سبق له مثل هذا الطلب من الخليفة العباسى(١٠٧) ولكن ابن عياش لم يمهله ، وعاجله بالقضاء عليه قبل أن يحصل على موافقة الخلافة بمده بالمعونة اللازمة لقتال القرامطة ، وهذا مما أثار غضب الخلافة على ابن عياش ، لأنه قضى على شخصية موالية لها في أوال من البحرين ، لذا فحين أجاب الخليفة طلب الأمير العيونى عام ٤٦٨هـ (١٠٨) ، وبعث اليه بسبعة آلاف مقاتل بقيادة اكسك سلار ، متجها من البصرة الى الاحساء ، كان الهدف الاول لهذا الجيش تأديب ابن عياش فى القطيف ، الذي هرب معتصما بجزيرة أوال ، ثم انضم اكسك سلار الى الامير العيونى وحاصرا القرامطة في الاحساء ، حتى أشرفوا على الهلاك ولكن جند الخليفة لم يحتملوا مدة الحصار الطويلة ، فعاد اكسك سلار الى الخليفة ، ثم طلب منه العودة لاستئصال القرامطة ، وكان له ما أراد ، وحين عاد الى الاحساء وجد عبدالله العيونى انتهى من حصارهم ، ، وانهاء أمرهم ، وتم له ذلك عام ٤٦٩هـ (١٠٩) على الرغم من استنجادهم بقبائل عامر :

فاستنجدت عامراً من باسها فاتت مغذة لا ترى فى سيرها يتما(١١٠)

وسارع ابن عياش لا نتزاع الاحساء من العيونيين ، قبل أن يستفحل أمرهم ، ويتهدد وجوده فى المنطقة ، فحشد جموعه ، وساربها نحوها ، فبرز له العيونيون ، ودارت بينهم معركة شرسة ، في مكان يعرف « بجوناظرة » أسفرت عن هزيمة ابن عياش و تقهقره الى القطيف (قصبة حكمه) ، ومن ثم الى أوال فتبعه العيونيون الى جزيرة أوال ، حيث احتل عبدالله العيونى القطيف ، ووجه ابنه « الفضل » إثر جموع ابن عياش فى أوال واستطاع ان يحقق نصرا حاسما ، تخلى إثره ابن

عياش عن أوال «وقتل نفسه»[١١١] ، بعد ان فقد وزيره ، وقائده ، وساعده الايمن « العكروت »[١١٢] والى هذا يشير ابن المقرب بقوله :

ولم ينج ابن عياش بمهجته
يم اذا ما يراه الناظر ارتسما
اتى مغيرا فوافق جو ناظرة
فعاين الموت منا دون مازعما
فراح يطرد طرد الوحش ليس يرى
حبل السلامة الا السوط والقدما
فانصاع نحو أوال يبتغي عصما
اذ لم يجد في نواحى الخط معتصما
فاقحم البحر منا خلفه ملك
مازال مذ كان للاهوال مقتحما
فحاز ملك اوال بعد ما ترك الـ
عكروت بالسيف للبوغاء ملتزما
فصار ملك ابن عياش وملك ابى الـ
بهلول مع ملكنا عقدا لنا نظما

ويسجل ابن المقرب ـ في موضع اخر ـ هذه المسيرة الظافرة لقومه من الاحساء[١١٣] فالقطيف ، فأوال ، فيقول :

فعن هجر ذادوا القرامط عنوة
وقد شركت فيها عتيك وحدان[١١٤]
وساروا الى ارض القطيف فلم يكن
ليمنعها منهم حصون وحيطان
ولم تمتنع منهم أوال بمزبد
من اليم تزجيه شمال ومرخان[١١٥]

ولم يكد عبدالله العيوبى يلتقط أنفاسه ، حتى ظهر خطر بنى عامر ممن انحازوا الى القرامطة ضده ، وقد قطع ما كان لرؤسائهم من العوائد والجرايات أيام القرامطة ، فجاءوا مطالبين بتلك العوائد ، وأجمعوا على حربه ولكنه استطاع هزيمتهم وتبديدهم ، ولم ينج منهم الا رئيسهم احمد بن مسغر ، وأبو فراس بن الشباش ، في جماعة قليلة هربوا الى العراق[١١٦] والى هذا يشير ابن المقرب في ميميته المشهورة :

وطالبتنا بنو الاعمام عادتنا
فلم تجد بكما فينا ولا صمما[١١٧]

وكانت قبيلة الازد تؤازر بنى عامر فى حربهم لعبدالله العيونى :

فاقبلت ورجال الازد تقدمها
كالأسد قد جعلت سمر القنا اجما[١١٨]

ثم يسجل ابن المقرب وصفا لتلك الجولة الحاسمة ، وما أسفرت عنه :

ثم انتحينا لعوف بعدما ورمت
انوفها ففششنا ذلك الورما
دسناهم دوسة مرية جمعت
أسلاهم وضباع الجو والرخما
لم ينج غير رئيس القوم تحمله
خيفانة كظليم ريع تحت سما
ثم انثنينا بجرد الخيل نجنبها
نقائذا وافانا السبى والنعما[١١٩]

ولم يكد ينتهى العيونيون من حسم أمر القرامطة ، ومن حالفهم ، حتى جاء ركن الدين والدولة السلجوقى يبغى الثأر «للبغوش» أخى اكسك سلار :

والشرسكية اذ جاءت تطالبنا
دم البغوش وفينا تقسم القسما[١٢٠]

وكان البغوش قد طمع فى الاحساء بعد معونة أخيه للعيونيين ، فقتله عبدالله العيونى . وقد تمكن العيونيون من صد أولئك الموتورين الطامعين ، والى هدا يشير ابن المقرب بقوله :

ونحن حميناه الاعاجم بعدما
أقامت تروم الملك حولا محرما
ضربنا وجوه الشرسكيه دونه
واقفاءها بالسيف حتى تثلما

وقد غررتهم من نزار ويعرب
لشنانكم قوم وقوم تبرما
فعدنا ببيض ذكرتهم حدودها
بما كان من أخبار كسرى ورستما
فولوا وراح الركن منهم كأنه
صريع عقار بات منها مجشما[١٢١]

وكان عليه أن يواجه بعض الطامحين فى بسط سيادتهم على الاحساء كالحسن بن يحيى الذي كانت له السيادة على منطقة القطيف ابان تأسيس دولتهم. وقد حاول استقطاب بعض الأمراء العيونيين، ببذل المال والذهب والبساتين لهم، وكان ذابأس وقوة، وقد سير اليهم جيشه مرارا للاغارة على الاحساء، ولكن محاولاته لم تؤت ثمارها المرجوة وفى هذا يقول ابن المقرب:

وحول ابن يحيى لم تصاهل جيادنا
وقد كان بحرا ذا عباب فلهذما
اذال لنا الاموال دراً وعسجدا
وتبرا ونخلا يانعا ومكمما
فعفنا سنيات العطايا حمية
عليكم ودسنا الشر حتى تشرما
وحتى ملكتم ملكه واقتصرتم
مقاصيره اللاتى بناها فأحكما
وقد كان يزجى كل يوم كتيبة
اليكم وجيشا ذا زهاء عرمرما
وقاد اليه الناس باس ورغبة
وعز ينامى يذبلا ويلملما[١٢٢]

ومثل ابن يحيى «حماد النائلى»، وهو من بنى نائل الذي اجتمعت حوله أحلاف عرب الاحساء، وتصدى لفتنته هذه أمير القطيف أبو مقدم شكر بن على بن عبدالله بن على العيونى، فهزمه، وقتل قائد جموعه السبيع بن غفيلة أحد رجالات النائلى، وأطلق على المكان «الخائس» لكثرة من قتل من جماعة النائلى:

منا الذي عام حرب النائلى جلا
يوم السبيع ويوم الخائس الغمما[١٢٣]

كما كان عليه ايضا أن يواجه أعداء المنطقة التقليديين من العجم الطامعين، غير من ذكرناهم من (الشركسيين) السلاجقة، كالقارونى احد ملوك العجم ببلاد قارون:

وسل بقارون هل فازت كتائبه
لما اتتنا وهل كنا لهم غنما[١٢٤]

ولقد حرص مؤسس الدولة العيونية عبدالله بن على العيونى، منذ بدء حربه للقرامطة وصراعه مع منافسيه على أن يقيم جسرا متينا من العلاقات الطيبة مع الخلافة العباسية فقد رحب الخليفة القائم بأمر الله بعرضه، حين طلب المعونة العسكرية للقضاء على القرامطة، ولا يخفى على أحد ما عانته الخلافة العباسية من غارات القرامطة على جميع أطرافها، حي بغداد لم تسلم من اذاهم.

وهكذا شهد النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، نهاية الدولة القرمطية، واماتة سننها، وبقايا بدعها، وتصفية أعوانها في المنطقة، وشهد قيام دولة فتية جديدة، امتد نفوذها من البصرة الى عمان. وكان العيونيون قد توزعوا نفوذهم بعد وفاة مؤسس دولتهم، فاستقل آل على بن عبدالله بحكم الاحساء ونواحيه بينما اقتصر حكم آل الفضل بن عبدالله على القطيف ونواحيه، وادى هذا الى نشوء نوع من الصراع بين الفرعين القويين

للاسرة العيونية : ثم تمكن الفضليون من بسط نفوذهم على سائر البحرين ، ولكن الصراع بقى مستمرا .(١٢٥) وكان على الفروع العيونية الأخرى أن تحدد ميلها وولاءها ، وعلى أساس من هذا الولاء وذلك الميل كانت تلقى احترامها ، واضطهادها ، كما حدث لشاعرنا ابن المقرب ، الذي دفع ثمن ميله للفضليين غاليا من الفرع الاخر المناوىء لهم .

وقد تعاور الامارة العيونية ، منذ قيام دولتهم ، وحتى سقوطها فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، ما يقارب العشرين أميرا .(١٢٦) وبلغت على يد الرعيل الاول منهم حدا من المهابة وسعة النفوذ ، والى هذا يشيرابن المقرب فى مدحه للامير الحاكم أبى شكر مقدم بن ماجد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل بن عبدالله العيونى :

بنى المعالى لهم فضل وشيدها
أبو سنان(١٢٧) قريع العجم والعرب
وأحمد(١٢٨) ابنه الملك الذي منعت
ما بين نزوى(١٢٩) سراياه الى حلب(١٣٠)

وبعد الامير محمد بن أحمد أبى الحسين بن محمد أبى سنان بن الفضل بن عبدالله العيونى (٥٨٤ ـ ٦٠٣ هـ) اهم امراء الاسرة العيونية وأخر النخبة الممتازة من حكامهم وقد عاصره شاعرنا ، ومدحه ، وسجل مآثره . وحربه لخصومه ، ورثاه عند موته .

وقد استفحل ملك العيونيين فى زمن هذا الامير ، وامتد نفوذهم الى نجد ، وبادية الشام ، وجعل له الخليفة العباسى الناصر لدين الله خفارة الحاج اذا خرج من بغداد ، حتى يصل الى مكة ، ويرجع منها ، وقرر له فى كل سنة ألفا وخمسمائة حمل من البر ، وألفا ومائتى ثوب من عمل مصر .(١٣١) والى هذه العلاقة الطيبة يشير ابن المقرب بقوله :

ومال امير المؤمنين بوده
اليه وسماه زعيم الاعارب
حمى البر من حد العراق فحازه
الى الشام واستولى على حد ناعب(١٣٢)

وقد تمكن من تأديب الكثيرين من خصوم دولته ، كبنى عامر حين تحالفوا على حربه عام ٦٠٢هـ (١٣٣) ، ويخاطبهم ابن المقرب مهددا محذرا :

واقسم إن نبهتم الحرب ساعة
وضمكم نحو الامير مغار
لتصطبحن كاسا عليكم مريرة
يطول لكم سكر بها وخمار
بها شربت من قبل عوف بن عامر
غداة دعتها نزقة ونفار
بكف أبيه لا بكف أبيكم
فراحت وفيها ذلة وصغار(١٣٤)

ثم يتوجه اليهم ناصحا بالخضوع لأمره :

فما الرأى الا أن تذلوا لحكمه
فليس عليكم فى المذلة عار
وتمسوا كما كنتم جميعاً رعاءة
عسى أن تنالوا نصفة وتجاروا(١٣٥)

وقد واجه فى عهده أطماع البدو ، كبنى مالك ، الذين خرجوا على طاعته ، وجاءوا لحربه ، ولقيهم على « ماء الدجانى » ، في الجانب الغربي من الدهناء ، فلقنهم درسا قاسيا ، قتلا ، وسبيا وقتل الكثير منهم جوعا ، وعطشا ، وقد وصف ابن المقرب هذه الوقعة فى لاميته وصفا دقيقا :

كأنكم لم تعرفوا سطواته
اذا الحرب فارت من لظاها مراجل

سلوا تخبروا من غير جهل لفعله
بنى مالك فالحر بالحق قائل
الم يجلب الجرد العتاق شوازبا
من الخط تتلوها المطايا المراسل
الى أن اناخت بالدجانى بعدما
براها السرى والاين فهى نواحل
فصبحن حيا لم تصبح حلاله
قديما ولا رامت لقاه الجحافل
فكم قرم قوم غادرته مجد لا
تقط شواه الخامعات العواسل
وكم مال نحام من القوم أصبحت
تقسم غصبا جله والعقائل[١٣٦]

ثم يواصل حديثه عن هزيمته لهم بقية القصيدة :

كما يصف لنا ابن المقرب وقعة أخرى لهذا الامير مع قبائل عنين ، وطىء ، وزيد .. وعرب الشام ، وكانوا قد انحدروا صائلين على قبائل قيس ، فاهمها ذلك ، واستغاثت بالامير العيونى ، فلم يخيب رجاءهم ، وحمل عليهم ، ومزقهم شر ممزق :

وكان لهم بالحزم يوم عصبصب
وقد حشدت للحرب تلك القبائل
عنين وال الفضل من آل برمك
وكلهم للعز انف وكاهل
وجاءت زبيد كالجراد وطيىء
وكل يمنى نفسه ما يحاول[١٣٧]

ثم يقول :

فضاقت على احياء قيس رحابها
من الخوف وانسدت عليها المناهل[١٣٨]

ثم يتحدث عن دور آل الفضل من العيونيين فى صد هذه الهجمة ، الى أن يقول :

واقبل ليث الغاب أعنى محمداً
يفتش عن اشباله ويسائل
فقيل له تحت العجاجة دابهم
طعان العدى فى حيث تخفى المقاتل
فاوردهم صدر الحصان كانه
باخذ نفوس القوم بالسيف كافل
فطاروا سلالا من أسير وهارب
ومن هالك تبكى عليه الثواكل[١٣٩]

ويشير ابن المقرب فى نونيته ، الى الحملات التى قادها هذا الأمير ، والجهد الذي تحمله فى المحافظة على تماسك دولتهم ، والاعداء الذين هزمهم ، ممن كانوا يطمعون فى دولتهم ـ غير من سبق ذكرهم ـ كأهل القطيف ، وبنى سليمان ، وبنى لبيد ، وأهل عمان ، وعدوان ، فيقول :

لما اتت أهل القطيف بجحفل
متوقد كتوقد النيران
فى آل حجاف وآل شبانه
مثل الاسود بحافتى خفان
وتسربلوا حلق الحديد واقبلوا
بالخيل والرايات كالعقبان
فرى الامير جموعهم فتمزقت
كالشاء اذ جفلت من السرحان
وتحكمت فيهم حدود سيوفه
ضربا فويق معاقد التيجان[١٤٠]

ثم يشير الى حملات أخرى قادها بغية تأديب من حدثتهم أنفسهم بالخروج على طاعته :

وهو الذي قاد الجياد عوابساً
تحت العجاج الى بنى سلمان
وبنى لبيد كلها فاجتاحها
بدراك غارات وحسن طعان
واتت اليه بالخراج مطيعة
خوفاً من الغارات أهل عمان
وتزعزعت رهبا فجاءت تبتغى
منه الذمام الشم من عدوان[١٤١]

وقد سار هذا الامير على سياسة من

سبقه من حكام دولتهم ، في الولاء للخلافة العباسية ، وقد سبقت الاشارة الى تكليف الخليفة له بحماية قوافل الحج ، كما ساعد الخلافة في الضرب على أيدي بعض العصاة والخارجين من عرب البادية ، أمثال قوم دهمش بن سند بن أجود ، فقد شكاه الحاج الى الخليفة الناصر لدين الله ، الذي بعث بدوره رسولا الى الأمير محمد بن أبي الحسين يخبره بذلك ، ويحثه على النهوض اليه وقومه والتنكيل بهم ، فكان له ما أراد ، اذ لقيهم بظاهر الكوفة وهزمهم ، ونكل بهم ، ولجأ زعيمهم الى مشهد الامام علي - كرم الله وجهه - وأقام به مستجيرا ، حتى جاء رجال الخليفة ، وقبضوا عليه ، واستاقوه الى بغداد .(١٤٢) والى هذا يشير ابن المقرب في ميميته المشهورة :

منا الذي ضربت حمر القباب له
بالمشهدين واعطى الأمن وانتقما
لولا عياذ بنى الجراح منه به
لصاحبت دهمشا او الحقت درما(١٤٣)

وترسم ابنه الامير الفضل بن محمد بن أبي الحسين - من بعده - سياسته في الابقاء على صلاتهم الطيبة مع الخلافة العباسية ، متحملا المهام التي نهض بها والده بتكليف منها ، نظير مساعدات عسكرية ، كانت الخلافة في بغداد - على ما يبدو - قد التزمت بها للأمراء العيونيين ، لينهضوا بما تكلفهم به من مهام . والى هذا يشير ابن المقرب في مدحه للأمير الفضل بن محمد بى أبي الحسين :

رضى الخليفة هديه واختاره
وحباه بالحظ الجزيل الأوفر
لباه جهرا واصطفاه له فتى
من بين أبناء النبيت وقيذر
وامده بخزائن لو صبحت
ذات العماد لأذنت بتدعثر
فيها المجانيق العظام يحفها
نفط تاجج ناره بتسعر
وقسى أسد لا ترد نصالها
زبر الحديد ولا صفيح المرمر
وقضى اليه أن حكمك نافذ
ماض باكناف العراق وتستر(١٤٤)
فاضمم اليك الجيش وانهض وافتتح
ماشئت من بلد وجد وشمر(١٤٥)

والمعروف ان شاعرنا قد سفر يوما لدولته ، لدى بلاط الخليفة الناصر لدين الله عام ٦٠٦هـ ، الخزائن من بغداد الخزائن التى أمد بها الناصر الفضل بن محمد بن أبي الحسين بعد مقتل والده .(١٤٦) .

ولكن الملاحظ ان شعره في الفترة الأخيرة ، التى شهدت ضعف حكامهم ، وصراعهم على السلطة ، وتوثبهم ببعض ، قد خلا من مثل هذه الاشارات ، الى تلك العلاقات الطيبة الوطيدة ، بين خلفاء بني العباس وحكام الاحساء ، ولعل هذا يعود لأمرين :

أولهما : أن الحكام العيونيين قد أصبحوا عاجزين عن أداء خدماتهم للخلافة .

وثانيهما : أن الخلافة نفسها كانت تعاني مرض الشيخوخة ، وقد أوشكت نهايتها ، فلم تعد قادرة على الاستمرار في مثل هذه العلاقات ، التى تكلفها ماليس في وسعها .

وعلى الرغم مما بذله الامير محمد بن أبى الحسين من جهود ، الا أنه قد قتل غيلة ،(١٤٧) ، بمؤامرة حاكها رجال من

أسرته ومن بني عامر . وقد رثاه ابن المقرب رثاء يفيض اسى ولوعه ، وكأنه بحسه المرهف كان يعرف ما يعنيه موت هذا الامير ، وقد اتضح فعلا من ديوانه ، ان موته كان نقطة تحول خطيرة في تاريخ الدولة العيونية فقد بدأ الضعف يدب في كيانها من مناح مختلفة بعد ذلك .

يا سوء حظ بني نزار بعده
وشقاء حاضرها وشؤم بداتها
رجفت لمهلكه البلاد وزلزلت
وغدا مناخ الذل في حجراتها
ان نبك مصرعه أسى فلقد بكت
جزعا عليه الجن من ستراتها
كانت به البحرين جنة مأرب
أيام بهجتها وطيب حياتها
حتى اذا ما الترب واري شخصه
أبدت يد الايام عن سوآتها[١٤٨]

وقد أثرت الوقوف عند هذه الشخصية العيونية القوية ، والتي بلغت دولتهم في عهده قمة أوجها ، وعرضت في هذه العجالة للجهود المضنية التي تجسمها في المحافظة على هيبة دولته ، لنحد من الأطماع التقليدية في سلطتهم ، وللحيلولة دون ظهور طامعين جدد .

فقد أردت من خلال هذا تقديم صورة لوضع هذه الدولة ، والتي ـ كما يبدو ـ قد حرمت الاستقرار والأمن ، حتى في عهود الأقوياء من رجالها ، وبالطبع كان لهذا الوضع المهتز ، القائم على التوجس ، والحذر ، والريبة ، أثره على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعقلية .. وان كنا لا نستبعد أن تكون هذه الدولة قد نعمت بشيء من الرخاء في عهد أمرائها الأول ، ففي مطولة ابن المقرب «الميمية» عدة أشارات الى العطايا السخية لأولئك الأمراء .

ويرى الدكتور شوقي ضيف «أن هذه العطايا لتدل على الرخاء الذي نعمت به تلك الديار في عهد هؤلاء الأمراء [١٤٩] . ولكن ينبغي الحيطة من الأخذ بما جاء في شرح هذه الأبيات ، والانتخذها دليلا أكيدا على رخاء تلك الديار أنذاك . فقد أسهب الشارح في ايراد قصص الكرم العيوني ، وهي قصص لا تخلو من مبالغة ، مما يرجح الظن أن شارح الديوان الذي مازال مجهولا يمت بصله قوية الى البيت العيوني . وبالاضافة الى ذلك ، فليس معنى سخاء حاكم ما أن رعيته تعيش في بحبوحة من العيش ، بل كثيرا ما تكون مظاهر بذخ الحكام واسرافهم على حساب رخاء رعاياهم .

كما نجد في «ميمية» الشاعر اشارات يسيرة الى عطايا هؤلاء الأمراء لبعض الشعراء ، مما حدا بالدكتور شوقي ضيف أن يقول : «أن هذه العطايا للشعراء في عهد أولئك الأمراء ، لتدل على أنه كانت هناك نهضة أدبية ، رعوها خير رعاية»[١٥٠] .

يروي لنا شارح الديوان أن أمير القطيف أبا سنان محمد بن الفضل ، كان بحرا فياضا مثل أبيه الفضل ، وأن عامله على البحرين جاء اليه بمال

ولآلىء وجواهر كثيرة وتصادف أن كان في مجلسه شاعر عراقي يعرف بالثعلبي دبج فيه مدائح كثيرة فقال للعامل : ادفع المال اليه ، وكان فيه جوهرة بألف دينار ، فبهت العامل ، ومات على الأثر . وفي ذلك يقول ابن المقرب :

منا الذي من نداه مات عامله
غما واصبح في الاموات مخترما (١٥١)

كما يذكر الشارح أن أبافراس غرير بن محمد أبي سنان قد امتدحه يوما الثعلبي شاعر أبيه بقصيدة فطلب الى صاحب خزائنه أن يعطيه جميع مفاتيحها ، ويتنحى بعيدا ليأخذ منها مايريد ، فقال الثعلبي : في بعض ذلك غنى وسعه ، ويكفيني ألف دينار ، فأمر بأربعة آلاف له وفي ذلك يقول ابن المقرب :

منا الذي جاد إيثارا بما ملكت
كفاه لا يديجزيها ولا رحماً(١٥٢)

ويذكر الشارح أن أمير القطيف أبا الحسن بن عبدالله بن علي قد حضره ذات يوم أربعون شاعرا ، فأعطاهم أربعين فرسا مسرجا ملجما، وفي ذلك يقول ابن المقرب:

وجاد في بعض يوم وهو مرتفق
بأربعين جوادا تعلك اللجما(١٥٣)

وقد استوقفني طويلا أخبار الشارح تلك ، ولكن حذري منها حال دون أخذي بها وشجعني على ذلك أن الثعلبي شاعر مجهول تماما ، ولا يعني تردد شاعر مجهول على بلاطهم ان هناك نهضة أدبية ، وانهم رعوها خير رعاية . كما ان وفادة أربعين شاعرا ذات يوم على أمير ، أمر مبالغ فيه ، ولم نسمع به في عصور الازدهار ، الا فيما نعلم عن بلاط دار الخلافة وسيف الدولة وما أشبهه أو اذا كانوا من أولئك البدو ممن يتحلقون للسمر في بيوت الأمراء ، ويتناشدون الأشعار النبطية أو ما شابه ذلك ، ولا يعد وجودهم دليل نهضة أدبية ، كما أننا لم نسمع عن شاعر من تلك الدولة سوى ابن المقرب . وربما كانت هذه الأخبار اشارات الى خطوات على طريق نهضة أدبية ، لم تتح لها ظروف دولتهم المضطربة أن تنمو وتزدهر .

ومع مطلع القرن السابع الهجري ، كانت الدولة العيونية ، تشهد أخر عهود الأقوياء من حكامها ، بزعامة الأمير محمد بن أبي الحسين لها ، والذي كان من حسن طالعه ، تألق نجم شاعرنا أيامه ، فسجل لنا هذه الفترة من خلال مدحه له ، واعجابه ببطولاته وما أن طويت صفحة هذا الأمير ، حتى أطلت الفتنة برأسها ، وكان على الأمير الجديد الفضل بن محمد بن أبي الحسين أن يملأ الفراغ الذي خلفه والده ، فسعى جاهدا للصمود في وجه التحديات والأخطار ، وكانت له مواقف مشرفة ، كتأديبه لبني عقيل المتآمرين على الدولة ، فقد دعوا أهل السيب (١٥٤) من عرب العراق ، وتحالفوا معهم

للقضاء على العيونيين ، ولكنهم هزموا شر هزيمة أمام الفضل ورجاله :

اشبهت والدك الهمام وانما
عرفت بنو الأساد من اصواتها
وحميت دار ابيك منك بهمة
الجود والاقدام من هاماتها
من بعد ماجمعت عقيل كيدها
بالراي من عقالها وغواتها
ودعت بأهل السيب فابتدأت بها
من شط دجلتها وشط فراتها
تتلو المعلي حيث سار وانه
للفارس الولاج في غمراتها
فصبرت صبر الأكرمين ولم تخم
عن زحفها يوماً ولا غاراتها[١٥٥]

ثم يواصل وصفه لما أوقعه فيهم من خسائر ، الى أن يقول من القصيدة ذاتها :

تركت نساء السيب تبكي حسرة
لولاتها وتطيل من ويلاتها

ولكن الأمير الفضل لم يستطع أن يواصل صمود وسلفه ، فقد اضطر عام ٦٠٦هـ الى توقيع صلح من ملك جزيرة قيس غياث الدين شاه بن تاج الدين جمشيد وتنص معاهدة الصلح هذه على تنازلات عيونية كبيرة . [١٥٦] وقد شعر ابن المقرب بهذا الضعف الذي بدأ يدب في كيان دولتهم ، فأخذ يحذر وينصح ، ولم يجد أذانا صاغية ، بل لقد قوبل بالاهانة والسجن والنفي :

اوليس جهلاً أن تسيم بمرتع
أكلت به المعزي لحوم رعاتها
اعربت حين دعوت الا انه
لا يبلغ الأموات صوت دعاتها
فانهض وسل الهم عنك بجسرة
روحاتها تربي على غدواتها
وارغب بنفسك أن تقيم ببلدة
عصفورها يسطو بشهب بزاتها
إن يرض قومي الهون في فطالما
عمداً اهنت النفس في مرضاتها
كم قد غدوت ورحت غير مقصر
في لم فرقتها وجمع شتاتها[١٥٧]

الى أن يقول من القصيدة ذاتها :

ولرب لاح قال لى وجفونه
سكري الى الاماق من عبراتها
هون فقومك يا على حياتها
كمماتها ومماتها كحياتها
لو كان فيهم من همام ماجد
لم تسق مر الضيم من راحاتها

ثم يتولى الأمير على بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين بن محمد بن الفضل الحكم بعد عمه الفضل ، فيعيد الى البحرين شيئاً من الاستقرار ، وينهض ببعض الاصلاحات :

لله درك يا على فلم يعد
الاك في هذا الزمان مهذب
أضحت بك الاحساء ساكنه وقد
رجفت بمن فيها وكادت تقلب
لو لم تداركها وتراب صدعها
لغدت بها خيل الهلاك توثب
أحييتها بعد الممات وبعدما
قامت بواكيها تنوح وتندب
ومنعتها من بعد ماكانت سدى
في كل ناحية تغار وتنهب
وملأتها عدلاً وكانت عممت
جوراً تغوربه الديار وتخرب
حتى كانك والمشبه صادق
عمربها وكانها لك يثرب[١٥٨]

عفاء على البحرين لو قيل أينعت
زنابير واديها وجادت زروعها
فهل ذاك الا للعدو وعصبة
سيشقى بها متبوعها وتبوعها(٢٠١)

وكان لهذا الاضطراب السياسى ، وفقدان السلطة الحاكمة لهيبتها أثره فى الحياة الاجتماعية ، فانحطت الأخلاق ، وشاع الفساد ، وتدهورت القيم الأخلاقية ، وأصبح المال غاية همهم، ناهيك عن الثمن .

وسوداء مومسة اجل لديهم
من عالم حبر وأدنى مقعدا
وبمصلح لا بل بألفى مصلح
لا يعدلون خبيث اصل مفسدا
لو قيل كن هوداً لأشرف رتبة
منهم ودونك درهما لتهودا(٢٠٢)

وهذا مؤشر واضح وقوى ، على النهاية الحتمية الوشيكة لدولتهم ، بعد ان أصبحت بلادهم :

أماكنا لعبت أهل الفساد بها
فدمروها بلا فكر ولا نظر(٢٠٣)

وقد ترتب على سوء تصرف الأمير أبى القاسم مسعود بن محمد ، أن سخطت عليه الأسرة العيونية ، ونفضت يدها من مناصرته ، لتجريدهم ممتلكاتهم ، فتلاشت سلطته ، وتقلص نفوذ العيونيين من ذلك الحين ، وما هى الا سنوات قليلة ، سيطر بعدها بنو عصفور رؤساء بنى عقيل بن عامر على شئون الحكم ، وذلك فى العقد الرابع من القرن السابع من الهجرة(٢٠٤) .

كما يذكر ابن خلدون فى تاريخه(٢٠٥) « ان ابن سعد قال : سألت أهل البحرين حين لقيتهم بالمدينة النبوية عام ٦٥١هـ عن البحرين ، فقالوا : الملك فيها لبنى عامر بن عوف بن عامر بن عقيل ، وبنو ثعلب من جملة رعاياهم ، وبنو عصفور منهم أصحاب الاحساء » .

وفي عام ٦٢٣هـ يطغى المد الزنجى الفارسى على المنطقة ، بقيادة أبى بكر بن سعيد الزنجى ، الذي وسع مملكة فارس ، فاستولى على جزيرة قيس عام ٦٢٦هـ ، وكان بها بنو قيصر ، فانتزع الجزيرة منهم ، ثم استولى على جزيرة أوال ، ثم عبر منها الى القطيف عام ٦٤١هـ فاحتلها ، وزحف بجنده نحو الاحساء ، فانتزعها من أهلها .(٢٠٦) .

وأرى ان هذه النهاية للدولة العيونية ، التى اتفق عليها - تقريبا - من أرخوا لهذه الدولة ، أو اهتموا بتاريخ هذه المنطقة ، تعد نهاية منطقية ، وحتمية لتطور الأحداث والتى عرضها ابن المقرب عرضا صادقا ووافيا ، يسهل منه توقع نهاية هذه الدولة وتحديدها فاذا ماوضعنا فى أذهاننا أن وفاة شاعرنا كانت عام ٦٣٠هـ فالأدنى للمنطق ان تنتقل السلطة الى سواهم ، بعد وفاته بقليل ، أى في وقت لا يزيد عن العقد الرابع من القرن السابع الهجرى .

وهكذا دام حكم العيونيين مائة وسبعين عاما تقريبا ، وليس صحيحا أنه استمر ثلاثة قرون كما يذكر العبيدى .(٢٠٧) وكان الفضل بن محمد بن مسعود آخر حكامها .(٢٠٨) .

وبعد هذا العرض السريع لقيام الدولة العيونية ، والذي وقفنا فيه عند مؤسسها عبدالله بن علي ، والدور الكبير الذي نهض به فى اقرار سلطتهم ، عند آخر حكامها الأقوياء محمد بن أبى الحسين . وخرجنا من هذه الوقفة بأن أمراء هذه الدولة كانوا يعترفون بسلطة بغداد الرمزية عليهم ، وكانت هذه الدولة عربية

بحثه ، وعصبتها يمثلون كثرة ساحقه في البحرين ، وأن الطابع البدوى كان مسيطرا الى حد كبير على أجهزة الدولة ، وعلى نظام الحكم فيها ، وأنها قد افتقرت طوال مدة حكمها للاستقرار والامن ، وأن أعداءها - وهم كثر - لم يكفوا عن ازعاجها ولم تحل هيبة حكامها الاقوياء دون أطماعهم فيها ، وقد لاحظنا مع مطلع القرن السابع ان أحوالها قد أخذت تسوء ، وتؤذن بزوال فمنيت فى آخر أيامها بعدد من الحكام الضعاف ممن كانت تنقصهم الدراية بسياسة البدو ، وفى العقد الرابع من هذا القرن ، كانت السلطة قد خرجت تماما من أيديهم الى بنى عصفور ، زعماء بنى عقيل بن عامر .

ولعله من المناسب أن نوجز العوامل التى أضعفت دولتهم :

- وفي مقدمة هذه العوامل « الصراع القبلى » بين العيونيين وبدو الاحساء ، كبنى عامر ، وبنى عقيل ، وبنى مالك .. وغيرهم ، وقد عانت الدولة كثيرا من هذا الصراع ، الذي استنزف الكثير من طاقاتها ، منذ تأسيسها وحتى سقوطها .

- يلى هذا عامل لا يقل عن سابقة أهمية ، وهو انقسام الاسرة العيونية ، وتنافس أمرائها على السلطة ، وتوثبهم ببعض ، وقد اتخذ تنافسهم شكلا دمويا فى أخريات أيام دولتهم ، وكان أعداؤهم من البدو حريصين على هذا التنافس ، وذلك الانقسام ، وتدبير الاغتيالات لبعض امرائهم وكان النزاع على الحكم بين فرعى فضل وعلى ، أقوى فروع الاسرة العيونية .

- ثم وفاة الأمير محمد بن أبى الحسين ، ومجىء حكام ضعاف تنقصهم الخبرة بسياسة البدو ، مثل غرير بن الحسن ، وماجد بن محمد ، وأبو القاسم مسعود بن محمد .

- صراعهم مع حكام جزيرة « قيس » .

- والوقوف فى وجه العجم الطامعين فى في الاحساء « كالقارونى » والشركسيين الذين جاءوا بقيادة ركن الدولة للثأر « للبغوش » أخى اكسك سلار .

- صراعهم مع بعض الشخصيات القوية في الاحساء ، ممن كانوا يتمتعون بالسيادة على اجزاء منها أبان تأسيس دولتهم كالحسن بن يحيى ، وحماد النائلى .

- ويجب أن لا نغفل سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ، فقد عانت البحرين أيام حكمهم من تلاحق الغارات عليها ، وتجريد الحملات لاخماد الفتن فيها ، وتفشى الظلم الذي راح ضحيته عدد من أبناء الأسرة العيونية نفسها ، ممن لم يعجبهم تخاذل حكامهم ، وأدى ، بالتالى - الى نزوحهم عن وطنهم ، قاصدين العراق وفارس ، وكان شاعرنا ابن المقرب الضحية الأولى والكبرى الذى ذاق الوانا من ظلم ذوى قرباه ، ولم تكن الرعية أحسن حالا ، فقد كثرت اشارات ابن المقرب الى سوء احوالها ، وفساد أخلاقها ، وضعف النفوس فيها .

ولم يكن من الممكن ازدهار حياة عقلية فى دولة كان هذا حالها ، وذاك طابعها فلم نجد فى شعر ابن المقرب اشارات لاهتمام حكامهم بالعلم والعلماء ، ولم نسمع عن شاعر قد سعى مادحا الى بلاطهم ، سوى ذلك الشاعر المغمور المسمى « بالثعلبى » كما كان يفعل حكام الدويلات المستقلة عن الخلافة ، حين كانوا يحاولون الظهور بمظهر يليق باستقلالهم فاستكثروا في

بلاطهم من العلماء والشعراء .

ولعل هذا لم يكن ذنب العيونيين ، بقدر ما هو ذنب العصر الذي أقاموا فيه دولتهم ، عصر انحطاط الدولة الاسلامية وتمزق أوصالها ، واحاطتها بشتى الاخطار كما أن تاريخ هذه الدولة لا زال بحاجة الى المزيد من جهد الباحثين والمتخصصين لالقاء المزيد من الضوء عليه .

عصره : المكان

تحتل المنطقة التى عرفت قديما باسم « البحرين » ثم باسم « هجر » ثم باسم «الاحساء » ثم أطلق عليها فى عهدنا الحاضر اسم « المنطقة الشرقية » الممتدة على الساحل الغربي للخليج العربي ، والتى تمثل الحد الشرقى الاقصى للوطن العربي ، موقعا فريدا بالنسبة للعالم ، فسواحلها الغربية تضم . المنافذ الطبيعية للأقاليم الداخلية الفسيحة لشبه الجزيرة العربية ، كما تجاور ساحلها الغربي أغنى أماكن العالم بزيت النفط .

وتبرز أهمية الموقع الاستراتيجي للخليج العربي بين قارات العالم آسيا وأوربا وأفريقيا بأنه ذراع المحيط الهندى البحرى ، والذي يقرب المسافة عبر منطقة الهلال الخصيب بين المحيط والبحر المتوسط ، فموقعه المتوسط هذا جعل منه ممراهاما يصل الهند من ناحية ، وشط العرب من الناحية الأخرى .(٢٠٩) .

أما عن أهمية الموقع بالنسبة للجزيرة العربية ، وما جاورها من الامصار ، فحسبنا أن نذكر أن الجزيرة العربية قد عرفت منذ أقدم عصورها طريقين أساسيين للقوافل التجارية بين طرفيها الشمالى والجنوبى . ويبدأ الطريقان من « ظفار » التى كانت المركز الاساسى لتجارة البخور ، التى يعتمد عليها الشطر الاكبر من التجارة العربية ، ويجرى الطريقان الى الشرق والغرب منها ، ليتجنبا اختراق تلك الصحراء الرهيبة المعروفة بالربع الخالى . أما الطريق الشرقى فيمضى متاخما لقوس عمان الساحلى متجها الى القطيف على الخليج العربي ، التى كانت مرفأ تحمل اليه بضائع الهند ومن القطيف عن طريق تدمر الى فلسطين وصور بسوريا ، وليس من شك في أن هذا الطريق كان الطريق الاساسى الذي تنقل فيه بضائع الهند الى صنعاء باليمن ، ومنها الى ثغور البحر الاحمر أو الى الحجاز »(٢١٠) .

وقد شهدت هذه المنطقة ـ لأهمية موقعها ـ صراعا طويل الأمد بغرض الاستحواذ على طرقها التجارية وخيراتها ، فكانت مسرحا للاطماع والغزوات الخارجية عبر قرون عديدة ، ومن أمم مختلفة . « والمنطقة الشرقية » من أحفل الأقطار العربية بالحوادث التاريخية ، التى تدعو المؤرخين الى العناية والاهتمام . فقد كانت مهدا لشعوب عريقة فى الحضارة ، كما دلت على ذلك الآثار التى كشف عنها حديثا فى سواحل هذه البلاد ، وفى جزيرة « أوال » المعروفة الآن باسم « البحرين » .. ثم هذا القطر من حيث الخصوبة والموقع المتوسط يعد من خيرة أقطار الجزيرة العربية وأصلحها للاستيطان ، فتنازعته قبائل عربية مختلفة ، من « تنوخ » و « إياد » ، و« ربيعة » وغيرها من القبائل

فصار مسرحا لكثير من حوادث البطولة فى العصر الجاهلى[٢١١] .

ومن هذا القطر أيضا انطلقت ثورتان عنيفتان غريبتان فى تاريخ الاسلام ، ثورة « صاحب الزنج » التى دعت الى تحرير العبيد ، وثورة « القرامطة » الى دعت الى نوع من العدالة الاجتماعية المتطرفة ، فأزعجت بنى العباس ، وعاثت فسادا فى سائر الاقطار العربية ، حتى أطلق بعض المؤرخين على دولتهم « الامبراطورية القرمطية » .

ولكن حين نقلب كتب التاريخ العربي ـ على ضخامتها وكثرتها ـ نجد أنها قد أغفلت هذه المنطقة الهامة من العالم العربي ، فيما عدا تأريخها لهاتين الثورتين اللتين استطاعتا لفت انظار العالم الاسلامى آنذاك الى هذه المنطقة لفترة محدودة ، وبقى تاريخ البحرين ، القديم مفصم الحلقات غير متصل ، حيث أن الفصول التى عثر عليها منه تكاد تكون مفصومة ، للوقت الحاضر[٢١٢] .

ولعل سبب اهمال تاريخ هذا القطر ـ على أهميته ـ ان تاريخنا هو تاريخ حكومات وأفراد ، لا تاريخ أمم وشعوب وأقاليم[٢١٣] .. هذا من جانب ، ومن جانب آخر عدم قيام دويلة مستقلة على أرضه ، في ذلك الزمان تتمتع بقدر من المدنية ، ونظم الحكم المستقرة كالتى شهدناها في أنحاء كثيرة من العالم الاسلامى في العصر العباسى الثانى ، فقد كان لهذه الدويلات من المكانة ، ما جعلها تنافس الخلافة فى بغداد . أما عن الدولة العيونية ـ وسيأتى الحديث عنها ـ التى حكمت زهاء قرنين فى البحرين فى أواخر العصر العباسى الثانى ، فقد كانت الى طابع البداوة أقرب ، كما أنها قد حرمت نعمة الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعى .

ثم يصمت التاريخ عن هذه المنطقة الشاسعة ، وتتقوقع على نفسها ، ومثلها سائر شبه الجزيرة العربية ، اللهم الا اليمن ، ومكة ، والمدينة التى بقيت نابضة بالحياة . وعادت القبائل العربية تتنازع السيطرة على اجزائها ، معيدة بذلك سيرتها الأولى .

ومع بداية هذا القرن أخذت الحياة تدب على أرض الاحساء قوية نشطة ، وزادت أهميتها بكشف موارد البترول فى ارضها ، فقد قلب هذا السائل السحرى مجرى تاريخ طبيعة البلاد ، ورفع مستواها[٢١٤] وليس بين اقاليم المملكة العربية السعودية اقليم يضارع مقاطعة الاحساء أو يدانيها فى شهرتها العالمية ، فقد اكتشف الخبراء ان تحت سطح أرضها مستودعات زاخرة بالنفط ، ولا يقل احتياطيها من البترول عن ثلثى الاحتياطى العربي »[٢١٥] .

تقع البحرين في شرقي الجزيرة العربية .. ويقول صاحب معجم البلدان : [٢١٦] «والبحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند (الخليج العربي) بين البصرة وعمان» وقد اختلف جغرافيو [٢١٧] العرب القدامي في تحديد رقعتها ، وكانت تحديداتهم لها مرتبطة بالحدود السياسية ، وهذه الحدود لم تكن تعرف الثبات آنذاك ، فهى تتسع تارة ، وتضيق أخرى ، تبعا لقوة السلطة الحاكمة أو ضعفها ، فحين يعد بعضهم «اليمامة» من أعمالها ، يرى ياقوت أنها عمل برأسه في وسط الطريق بين مكة والبحرين ...[٢١٨] .

الهوامش

١ ـ د. مصطفى الشكعة : سيف الدولة الحمداني : ص٧ : دار القلم : القاهرة ١٩٥٩م .
٢ ـ محمد طلس : تاريخ الأمة العربية : جـ٤/ص٥ : دار الاندلس : بيروت ١٩٦٣ .
٣ ـ نظام الملك : أبو علي الحسن بن علي بن اسحق . ت ٤٨٥هـ ، وقد تقلد الوزارة لألب أرسلان وملكشاه نحوا من ثلاثين سنة ، وكان عالما دينيا جوادا عادلا حليما ، محبا للعلماء ، وقد بنى المدارس في سائر الأقطار والبلاد (انظر : ابن الأثير : الكامل ١٦١/٨ ـ ١٦٣ : مطبعة الاستقامة بالقاهرة) .
٤ ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية : ص١٣٥ : ترجمة نبيه فارس ، ومنير بعلبكي دار العلم للملايين : بيروت ١٩٤٨م .
٥ ـ انظر تاريخ الشعوب الاسلامية : ١٣٥ .
٦ ـ انظر تاريخ الأمة العربية : ج٤ ص٥ .
٧ ـ جعفر خصباك : العراق في عهد المغول : ٥ : مطبعة العاني : بغداد : الطبعة الأولى ١٩٦٨ .
٨ ـ الناصر لدين الله : أحمد ـ أبو العباس ـ بن المستضيء ، بأمر الله ، ولي الخلافة عام ٥٧٥هـ ، كان من افاضل الخلفاء وأعيانهم ، بصيرا بالأمور ، مجربا ، مهيبا ، طالت مدته وصفا له الملك ، كان وقته مصروفا الى تدبير أمور المملكة ، والى التولية والعزل والمصادرة وتحصيل الاموال ، توفي عام ٦٢٢هـ (ابن طباطبا ـ تاريخ الدولة الاسلامية : ٣٢٢ : دار صادر ، بيروت ١٩٦٠م) .
٩ ـ العراق في عهد المغول : ١٣ .
١٠ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء : ٤٨٠ : تحقيق لجنة من الأدباء : دار الثقافة : بيروت (بدون تاريخ) . وانظر : ابن الأثير : الكامل : ٣٣١/٩ ، ٣٦١ .
١١ ـ انظر تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢٥٨ .
١٢ ـ المستنصر بالله : أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله ، ولي الخلافة عام ٦٢٣هـ عرف بكرمه وشهامته ، وله من الآثار الجليلة «المستنصرية» ، كانت

أيامه طيبة ، والدنيا في زمانه ساكنة ، توفي عام ٦٤٠هـ (انظر تاريخ الدولة الاسلامية ٣٣٠ وانظر تاريخ الخلفاء ٤٩٠).

١٣ ـ المستعصم بالله : قتيل التتار ، تولى الخلافة عام ٦٤٠هـ ، وتوفي عام ٦٥٦هـ (انظر : تاريخ الدولة الاسلامية ص ٣٣٣ ، انظر : تاريخ الخلفاء : ص٤٩٧)

١٤ ـ تاريخ الدولة الاسلامية : ص٣٣٣ .

١٥ ـ انظر : تاريخ الأمة العربية : ٤/٥ .

١٦ ـ انظر : تاريخ الأمة العربية : ١٢١/٤ .

١٧ ـ انظر : المرجع السابق نفسه ١٢١/٤ ـ ١٢٢ .

١٨ ـ د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي : ١٣٥/٤ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧ .

١٩ ـ انظر تاريخ الشعوب الاسلامية : ٣٢٦ .

٢٠ ـ الملك الاشرف : أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب الملقب بالملك الأشرف ، وهو أحد ملوك بني أيوب ، كان سلطانا كريما ، حليما ، واسع الصدر ، كريم الاخلاق ، ولد عام ٥٧٨هـ ، وتوفي بدمشق عام ٦٣٥هـ . (انظر : وفيات الاعيان : ٤١٣/٤) تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد ، النهضة المصرية : ١٩٤٨ .

٢١ ـ عبدالفتاح الحلو ديوان ابن المقرب : ٣٠٠ مطبعة الحلبي : القاهرة : الطبعة الأولى ١٩٦٣م . وباقت عليه البوائق : أصابته الشرور والدواهي .

٢٢ ـ الديوان : ٣٠٠

٢٣ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢٥٣ .

٢٤ ـ انظر : تاريخ الأمة العربية ٨/٤ .

٢٥ ـ تاريخ الاسلام السياسي١٣٥/٤ .

٢٦ ـ انظر : تاريخ الأمة العربية ٥/٤ ـ ٦ .

٢٧ ـ انظر : المرجع نفسه

٢٨ ـ انظر : محمد صالح : الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير : ٣ : مطبعة القضاء : النجف الاشرف : ١٩٧٠م .

٢٩ ـ انظر : بدرى فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير : ٣٣٨ : مطبعة الارشاد ببغداد ١٩٧٣م .

٣٠ ـ بدرى فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير : ٣٥٠ .

٣١ ـ المرجع نفسه : ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

٣٢ ـ الديوان : ٢٢٤ .

٣٣ ـ القصيدة السابقة : ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

٣٤ ـ الديوان : ٢١٣ .

٣٥ ـ شمس الدين باتكين الرومي الناصرى ، كان مملوكا لابنة الخليفة المستنجد بالله ، سلمت اليه البصرة بحربها وخراجها ، فاقام بها ثلاثا وعشرين سنة ،

أيدي أسرة جديدة حاكمة من أهل الاحساء هم العيونية من عبدالقيس . انظر حـ ٤٥/٣١٩/ دار الشعب القاهرة (بدون تاريخ) .

٦٧ ـ الماشوش :
بدعة ابتدعها القرامطة في البحرن وجعلوها دينا ، وهو أن يجمع الرجال والنساء في ليلة العاشر من محرم ، وأول ليلة من برج الحمل المسمى النيروز ، ويشعلون الشمع ويرقصون ويختلطون ، ثم يطفئون الشمع ، ويقبض كل منهم يد امرأة من الجمع ويواقعها سواء أكانت من محارمه أم اجنبية ، فحين ملك عبدالله بن على العيوني البحرين وصارت تلك الليلة ركب أبو شكر المبارك بن الحسن بن أبي مقرب العيوني ومعه غلمانه وهجموا على جمع الفساد فضربوهم وسلبوهم ، وأماتوا بدعتهم من البحرين فما بقيت تعرف . انظر شرح الديوان : ٥٥١ .

٦٨ ـ الديوان :٥٥١ .

٦٩ ـ انظر : أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم : ٧٩/١ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٥ .

٧٠ ـ تحفة المستفيد :٥٦ .

٧١ ـ انظر : معجم ما استعجم : ٨١/١ .

٧٢ ـ انظر : معجم ما استعجم : ٨١/١ .

٧٣ ـ انظر : جمهرة أنساب العرب : ١٩٧ ، ٢٩٥ ، وانظر : ابن عبدربه : العقد الفريد : ٣٥٧/٣ : مطبعة التاليف والترجمة والنشر : ١٩٥٢ م .

٧٤ ـ The Encyelopedia of Islam Vol 1 : 74, Leideu Brill 1960

٧٥ ـ ابن منظور : لسان العرب : جـ٣/٢٧٣ الدار المصرية للتاليف والترجمة (بدون تاريخ) .

٧٦ ـ معجم ما استعجم : ٨١/١ وانظر : الجمهرة : ٢٩٩ .

٧٧ ـ جمهرة أنساب العرب : ٢٩٥ .

٧٨ ـ معجم ما استعجم : ٨٤/١ .

٧٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية : ٧٣/١ ـ ٧٤ .

٨٠ ـ الديوان : ٤٥ والعيص / الشجر الكثير الملتف .

٨١ ـ المصدر نفسه : ٢٨/ ٢٩ .

٨٢ ـ بنو عامر : هم بنو عامر بن الحارث بن أنمار بن وديعة بن لكيز بن أفص بن عبدالقيس (انظر : الجمهرة ٢٩٥) .

٨٣ ـ ابن افصى: كناية عن نفسه ، وإفصي هو ابن عبدالقيس: انظر: الجمهرة: ٢٩٥ ورباب : أحياء ضبة لأنهم أدخلوا أيديهم في رب وتعاقدوا (القاموس: ٧١/١).

٨٤ ـ الديوان : ٦٦٢ .

٨٥ ـ الديوان : ٤٦١ .
٨٦ ـ المصدر نفسه : ٤٥٦ .
٨٧ ـ الخط : مرفا للسفن بالبحرين واليها تنسب الرماح الخطية .
٨٨ ـ لكيزية : نسبة الى لكيز بن إفصى بن عبدالقيس (الجمهرة : ٢٩٥) .
٨٩ ـ عوف : أحد بطون قبيلة عامر (الجمهرة : ٢٨٠) .
٩٠ ـ الحارثيين : نسبة الى الحارث بن انمار بن وديعة بن لكيز ، وكان هذا البطن أشهر بطون أنمار : انظر : جمهرة انساب العرب : ٢٩٥ .
٩١ ـ مالك : أحد بطون قبيلة عامر (الجمهرة : ٢٨١) .
٩٢ ـ الديوان : ٤٢ ـ ٤٣ .
٩٣ ـ انظر المصدر نفسه : ٣٦٧ ، ٤٦٢ ، ٥٦٦ .
٩٤ ـ الديوان : ٥٠٤ .
٩٥ ـ دليل الخليج : ٨٢٢/٢ .
٩٦ ـ انظر : مخطوطة برلين المشروحة : تسلسل ١٩٨ ، ومخطوطة برنستون المشروحة : تسلسل ٤٤ وانظر : Jas. Page 16 – 17 ، وانظر تحفة المستفيد ٢٥٧ ـ ٢٥٨ وانظر : دائرة المعارف الاسلامية : ٣١٩/٤٥ .
٩٧ ـ انظر : مخطوطة برلين المشروحة : تسلسل ١٩٨ ، وانظر دائرة المعارف الاسلامية ٣١٩/٤٥ .
٩٨ ـ ديوان ابن المقرب : المطبعة الهندية : ٤٤٤ ، مطبعة دت برساد ببومبى : ١٣١١هـ . وانظر : دائرة المعارف الاسلامية : ٣١٩/٤٥ .
٩٩ ـ انظر : مخطوطة برلين المشروحة تسلسل ١٩٨ : شرح قصيدته الميمية .
١٠٠ ـ انظر : التحفة النبهانية : ٩٥ .
١٠١ ـ انظر : Jas. Page 16 – 17 ، وانظر تحفة المستفيد ، ٩٨ وما بعدها النسخة الهندية : ٤٤٤ وما بعدها .
١٠٢ ـ انظر : النسخة الهندية ، ٤٤٤ ، وانظر : الديوان : ٥٣٣ .
١٠٣ ـ الديوان ٥٣٤ .
١٠٤ ـ انظرا : Jas. Page 16 – 17 .
١٠٥ ـ انظر المرجع السابق نفسه وانظر مخطوطة مجهولة المؤلف بدار الكتب المصرية تسلسل ٦٣٧ تاريخ .
١٠٦ ـ انظر تحفة المستفيد : ٩٨ وما بعدها .
١٠٧ ـ انظر : مخطوطة برلين المشروحة ، وقد ورد فيها نص رسالته الى الخلافة العباسية كاملة وتقع في اثنتى عشرة صفحة .
١٠٨ ـ Jas. Page 16 – 17 .
١٠٩ ـ انظر : تحفة المستفيد : ٩٨ وما بعدها ، وانظر : التحفة النبهانية : ٩٦ ، وانظر الديوان : ٥٣٣ . وانظر : Jas. Page 16 – 17 وانظر : نسخة برنستون المشروحة : تسلسل ٤٤ (شرح الميمية) .

١١٠ ـ الديوان : ٥٣٤ واليتم : الابطاء (القاموس : ٤/١٩٣) .
١١١ ـ انظر : ابن المقرب حياته وشعره : ٤٢ .
١١٢ ـ التحفة النبهانية : ٩٥ ، وانظر : نسخة برنستون المشروحة تسلسل ٤٤ (شرح الميمية) .
١١٣ ـ الديوان ٥٣٨ ـ ٥٣٩ .
١١٤ ـ عتيك : قبيلة تنسب الى عتيك بن الازد بن عمران بن عمرو مزيقاء الكهلاني القحطاني (الجمهرة : ٣٤٨) حدان : قبيلة تنسب الى حدان بن شمس بن عمرو بن غنم بن نصر بن الازد ، معجم قبائل العرب ـ لعمر رضا كحالة : ط ١/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠ المكتبة الهاشمية بدمشق ١٩٤٩م .
١١٥ ـ الديوان : ٥٩٠ .
١١٦ ـ انظر تحفة المستفيد : ١٠١ وانظر : التحفة النبهانية : ٩٦ ، وانظر شرح الديوان/ ٥٣٣ .
١١٧ ـ الديوان : ٥٣٢ .
١١٨ ـ نفسه ٥٣٣ .
١١٩ ـ نفسه ٥٣٧ وناقة خيفانة : سريعة والظليم : ذكر النعام والنقيذ : فرس انقذته من العدو .
١٢٠ ـ والشرسكية : لعلها الشركمية ، الديوان : ٥٣٨ .
١٢١ ـ الديوان : ٤٦٩ .
١٢٢ ـ المصدر نفسه : ٤٧٠ يذبل : جبل مشهور بنجد ، ويلملم : جبل على مرحلتين من مكة (القاموس : ٤/١٧٧) .
١٢٣ ـ الديوان : ٥٤٦ .
١٢٤ ـ المصدر نفسه ٥٣٨ .
* ـ جاء في هامش الديوان ص ٥٣٨ أن ملكا من ملوك العجم كان ببلاد قارون (ولعلها حوض نهر قارون ببلاد فارس) فخرج يريد الاحساء في جيش عظيم ، وكان أميرها حينئذ عبدالله بن علي العيوني الذي استطاع ان يضللهم في الصحراء بمساعدة الادلاء من البدو ، ما بين البحرين وعمان ، وأفسد بالتالي خططهم ، وأهدافهم .
١٢٥ ـ عمران محمد العمران : ابن مقرب حياته وشعره : ٤٤ .
١٢٦ ـ التحفة النبهانية : ٩٩ .
١٢٧ ـ أبوسنان هو محمد بن الفضل بن عبدالله العيوني .
١٢٨ ـ أحمد هو أبو الحسين بن محمد بن الفضل بن عبدالله العيوني .
١٢٩ ـ نزوى : النزوة : جبل بعمان وهو قصبة الخوارج في عمان (القاموس الفيروزابادي ٤/٣٩٥) .
١٣٠ ـ الديوان : ٧٨ ـ ٧٩ .
١٣١ ـ تحفة المستفيد : ١٠٤ .

١٣٢ ـ الديوان : ٥١ ـ حد ناعب : حي من العرب .
١٣٣ ـ الديوان : ٢٠٧ .
١٣٤ ـ الديوان : ٢٠٨ .
١٣٥ ـ الديوان : ٣١٠ .
١٣٦ ـ الديوان : ٣٥٣ ـ ٣٥٤ ، والشازب : الضامر ، والمراسل : الابل السهلة السير . والدجاني : اسم ماء في الجانب الغربي من الدهناء ، والأين : التعب والنصب ، والشوى : اليدان والرجلان والأطراف والخامعات : الذئاب او الضباع ، والعسال : الذئب ، والنحام : البخيل .
١٣٧ ـ الديوان : ٣٥٥ .
١٣٨ ـ نفسه : ٣٥٥ .
١٣٩ ـ نفسه : ٣٥٧ ، وانسل وتسلل : انطلق في استخفاء .
١٤٠ ـ الديوان : ٦٢١ وخفان : مأسده .
١٤١ ـ الديوان ٦٢١ ـ ٦٢٢ .
١٤٢ ـ ينظر : الديوان ٥٤٧ ـ ٥٤٨ .
١٤٣ ـ نفسه : ٥٤٧ ودرم : أسم رجل قتل فلم يدرك بثأره فصار مثلا « أودى درم » اللسان : درم .
١٤٤ ـ تستر : أعظم مدينة بخوزستان ، وهي على مرتفع من الارض ، وتستر تعريب ششتر (نقلا عن الديوان : ٢٢٣) .
١٤٥ ـ نفسه : ٢٢٣ والنبيت : أبو حي باليمن ، اسمه عمرو بن مالك (القاموس : ١/١٥٨) وقيذار بن اسماعيل : ابو العرب (القاموس : ٢/١١٥) .
١٤٦ ـ الديوان : ٥٩٤ .
١٤٧) ابن مقرب ـ حياته وشعره : ٤٧ .
١٤٨ ـ الديوان : ١١٠ .
١٤٩ ـ د . شوقي ضيف : سجل شعري تاريخي فريد : مقالة بمجلة مجمع اللغة العربية : عدد ٣٨ ، ١٩٧٦ .
١٥٠ ـ د . شوقي ضيف : سجل شعري تاريخي فريد : مقالة بمجلة مجمع اللغة العربية : عدد ٣٨ .
١٥١ ـ الديوان ٥٤١ .
١٥٢ ـ القصيدة ذاتها : ٥٤٢ .
١٥٣ ـ القصيدة ذاتها : ٥٤٤ .
١٥٤ ـ السيب : نهر بالبصرة ، وفي قرى كثيرة (مراصد الاطلاع : ج ٢/٧٦٣) ، تحقيق علي البجاوي : دار إحياء الكتب العربية : ١٩٥٤م .
١٥٥ ـ الديوان: ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣.
١٥٦ ـ تحفة المستفيد: ١٠٨ ـ ١٠٩ وانظر: مخطوطة مجهولة المؤلف بدار الكتب المصرية تسلسل: ٦٣٧ تاريخ.

١٥٧ ـ الديوان : ١٠٥ ـ ١٠٦ .
١٥٨ ـ المصدر نفسه : ٨٩ .
١٥٩ ـ قيس (كيش) وهو تعجيم قيس ، جزيرة في وسط البحر تعد من أعمال فارس ، لأن أهلها فرس ، وتعد من أعمال عمان (معجم البلدان : ٣٠٦/٧) وجاء في دائرة المعارف الاسلامية أن قيس جزيرة صغيرة في بحر عمان ، وأن اسرة من قبيلة القيس استطاعت في زمن النبي محمد (ﷺ) أن تقيم لها دولة فيها . وظهرت أهمية هذه الجزيرة في نهاية العصر الوسيط عندما برز أمير من جنوب الجزيرة العربية ، واحتلها ، وبنى اسطولا ، وأخذ ينشر نفوذه ، وبدأت الجزيرة تتمتع بازدهار متواصل ، أصبحت مركزا للتجارة الهندية الفارسية الصينية . وقد خلط ابن بطوطه في تحفته (ص ٣٤٤) بين : سيراف كمدينة تقع على الساحل الشمالي القريب من الجزيرة ، وبين جزيرة قيس .
(Incyclopeedia of Islam· Leyden· London 1927· vol 74 : 649)
١٦٠ ـ سترة : هي شبه جزيرة سترة بالبحرين الحالية ، تكتسب أهميتها الآن من وجود أكبر مصفاة لتكرير النفط في المنطقة بها .
١٦١ ـ انظر : الديوان : ٥٥٠ .
١٦٢ ـ شامة والحاشك : لعله يقصد بهما قوم الملك أبي كرزاز ، والرقم : الداهية (القاموس : ٤/ ١٢١) .
١٦٣ ـ الديوان : ٥٥٠ .

١٦٤ ـ المصدر السابق نفسه : ٥٩٤ ـ ٥٩٥ .
١٦٥ ـ ابن مقرب حياته وشعره : ٤٧ .
١٦٦ ـ انظر الديوان : ٦٣١ وقيس وغيلان : خصومهم لأنهم أعز بادية بارضهم .
١٦٧ ـ المصدر نفسه : ٣٦٩ .
١٦٨ ـ انظر المصدر نفسه : ٦٣١ .
ابو على ابراهيم بن عبدالله بن عزيز بن ابراهيم بن ابى جروان ، وعزيزا أحد بنى بيرق ، وهو عمرو بن عبدالله بن مالك بن عامر ، وكانت صلة ابن المقرب به طيبة ، لما بينهما من خلطة ولحمة نسب ، وقد مدحه بقصيدتين يفهم منهما أنه من قبيلة عبدالقيس ومن زعماء الاحساء (الديوان : ١٦٧ .

ساد الورى طفلا وبرز يافعا
لم يثغر وبنى المكارم أمردا
اباؤه من عبدقيس خيرها
حسبا واكرمها واوسعها ندى

(الديوان ١٦٧)
ويقول من قصيدة أخرى :

فتـى حـل مـن عليـا لكيـز وعـامـر
بـاعـلى محـل مـن ذرى وقـلال
أخ وابـن عـم حـين أدعـو ووالـد
شقيـق وخـل لا يخـون وكـالى
كفـى سـاكـن البحـريـن كـل عظيمـة
ونـاء بـاعبـاء تكـون ثقـال

الديوان : ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

١٦٩ ـ الديوان ٦٣٢ ـ ٦٣٣ .
١٧٠ ـ المصدر نفسه : ٦٣٤ .
١٧١ ـ المصدر نفسه : ٤٦٤ .
١٧٢ ـ الكثيب : طرف الاحساء الجنوبي .
١٧٣ ـ والعيون : طرفها الشمالى . والمحاديث من ارض العيون .
١٧٤ ـ وحلوان : مكان بين الاحساء والقطيف .
١٧٥ ـ والخط : هى القطيف .
١٧٦ ـ وصفواء : طرف القطيف الشمالى .
١٧٧ ـ والظهران : طرف القطيف الجنوبي .
١٧٨ ـ ١٧٩ ـ المروزان وكرزكان : قريتان فى جزيرة اوال (الديوان : ٦٣٨/٦٣٩) .
١٨٠ ـ نفسه : ٦٣٨ ـ ٦٣٩ .
١٨١ ـ نفسه : ٦٤٠ ـ ٦٤١ .
١٨٢ ـ الديوان : ٣٦٩ .
١٨٣ ـ المصدر نفسه : (٣٧٠) .
١٨٤ ـ المصدر نفسه : ٣٨٥ ـ ٣٨٦ .
١٨٥ ـ الديوان ٣٨٤ ـ ٣٨٥ .
١٨٦ ـ نفسه : ٣٨٥ .
١٨٧ ـ القرحا : سيف القطيف (الديوان : ٣٨٧ ـ .
١٨٨ ـ نفسه : ٣٨٧ .
١٨٩ ـ نفسه : ٣٨٨ ـ ٣٨٩ .
١٩٠ ـ نفسه : ١٣٤ .
١٩١ ـ نفسه : ١٤ .
١٩٢ ـ الديوان : ٦١٠ .
١٩٣ ـ نفسه : ٤٥٦ .
١٩٤ ـ نفسه : ٤٥٦ ـ ٤٥٧ .
١٩٥ ـ نفسه : ٦١٠ ـ ٦١١ .
١٩٦ ـ نفسه : ٦١١ .

١٩٧ ـ الديوان : ٦١٥ ـ ٦١٦ .
١٩٨ ـ نفسه : ٦١٦ .
١٩٩ ـ نفسه : ٢٥٥ .
٢٠٠ ـ نفسه : ٢٥٥ .
٢٠١ ـ نفسه : ٢٥٧ .
٢٠٢ ـ الديوان : ١٦٩ .
٢٠٣ ـ نفسه : ٢٤٢ .
٢٠٤ ـ انظر : تحفة المستفيد : ١١٨ وانظر : ابن مقرب حياته وشعره : ٤٨ .
٢٠٥ ـ تاريخ ابن خلدون : ٤ : ١٩٦ .
٢٠٦ ـ انظر : التحفة النبهانية ٩٩ ـ ١٠٠ .
٢٠٧ ـ البحرين من امارات الخليج العربي : ٢٦ .
٢٠٨ ـ ابن مقرب حياته وشعره : ٤٨ .
٢٠٩ ـ انظر : عبدالحميد غنيم : مشكلات الحدود السياسية في الساحل الغربي للخليج العربي : ٣ ـ ٤ رسالة مخطوطة بمكتبة آداب القاهرة ، ١٩٧٥ .
٢١٠ ـ يوسف خليف : الشعراء الصعاليك : ١٢٥ ـ ١٢٦ ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥٩ .
٢١١ ـ تحفة المستفيد : من المقدمة لحمد الجاسر .
٢١٢ ـ البحرين من امارات الخليج العربي : ٢٠ .
٢١٣ ـ تحفة المستفيد : من المقدمة لحمد الجاسر .
٢١٤ ـ تحفة المستفيد : ١٩ .
٢١٥ ـ مشكلات الحدود السياسية : ٥ .

٢١٦ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان : ٧/٢ ، وانظر : البكري : معجم ماأستعجم وانظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر : ١٩٧/٤ .
٢١٧ ـ انظر : المقدسي : أحسن التقاسيم : ٥٩ : مطبعة بريل : ليدن ١٩٠٩م ومعجم البلدان : ٣٤٦/١ ، والعبر : ١٩٧/٤ .
٢١٨ ـ معجم البلدان : ٧٢/٢ .
٢١٩ ـ المصدر السابق نفسه : ٧٢/٢ .
٢٢٠ ـ المصدر السابق نفسه ٤٤٦/٨ .
٢٢١ ـ الهمداني : صفة جزيرة العرب : ١٣٦ ، مطبعة السعادة : القاهرة ١٩٥٣م .
٢٢٢ ـ القلقشندي : صبح الأعشى : جـ ٥٥/١٣ : المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٤م .
٢٢٣ ـ معجم البلدان : ٧٣/٢ .

٢٢٤ ـ ابن خرداذبه : المسالك والممالك : ١٥٢ مطبعة بريل : ليدن ١٨٨٩م .
٢٢٥ ـ صفة جزيرة العرب : ١٧٨ .

٢٢٦ ـ عمر رضا كحاله : جغرافية شبه جزيرة العرب : ٢٦١ : المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٤ .
٢٢٧ ـ أبو الفداء : تقويم البلدان : ٩٩ : دار الطباعة السلطانية بباريس ١٨٤٠م .
٢٢٨ ـ تحفة المستفيد :٣ .
٢٢٩ ـ صفة جزيرة العرب : ٣٦ ويقول ابن سيده والزجاج والأزهري كل نهر عظيم لا ينقطع ماؤه فهو بحر ـ لسان العرب : (مادة : بحر) .
٢٣٠ ـ امين الريحاني : ملوك العرب : ٢٢٣ : دار صادر ، ريحان : بيروت ١٩٥١م .
٢٣١ ـ ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار : ١/١٧٧ : مطبعة الاستقامة : ١٩٧٦م . وجاء في لسان العرب أن سيبويه يقول بحراني في النسب الى البحرين التي هى مدينة . (انظر اللسان : مادة بحر) .
٢٣٢ ـ العبر : ٤/١٩٧ . معجم البلدان : ١/١٣٧ .
٢٣٣ ـ معجم البلدان : ١/١٣٧ .
٢٣٤ ـ «واحساء القرامطة غير الاحساء الموجودة الان . وانما موقعها عين الجوهرية ، والمكان المعروف بالبطالية ، وأما الاحساء الموجودة الآن فهي من بناء الأتراك بعهد الوالي فروخ باشا» .
(ديوان ابن المقرب : المكتب الاسلامي بدمشق : الطبعة الثانية ١٩٦٨ ـ من المقدمة من رسالة بعث بها الشيخ يوسف بن راشد المبارك للمكتب بدمشق مصححا بعض المعلومات الواردة في الطبعة الأولى) .
٢٣٥ ـ عبد الفتاح الحلو : شعراء هجر : حـ من المقدمة : مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة ١٩٥٩م .
٢٣٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية : ٤٥/٣١٩ .
٢٣٧ ـ معجم البلدان : ١/١٣٦ ـ ١٣٧ .

٢٣٨ ـ محمد متولي : حوض الخليج العربي : ٦٣ : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٠م .
٢٣٩ ـ حافظ وهبة : جزيرة العرب : ٦٨ : لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥٦م .
٢٤٠ ـ انظر : لوريمر : دليل الخليج (القسم الجغرافي) : جـ ٢/٨٢٠ ترجم وطبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر (بدون تاريخ) .
٢٤١ ـ المرجع السابق نفسه : ٢/٨٢٠ .
٢٤٢ ـ جزيرة العرب : ٦٩ .

٢٤٣ ـ تحفة النظار : ١/١٧٧ .
٢٤٤ ـ حوض الخليج العربي : ٦٣ .
٢٤٥ ـ انظر : جزيرة العرب : ٦٩ .
٢٤٦ ـ المرجع نفسه :٧٢ .
٢٤٧ ـ تحفة النظار : ١/١٧٧ وانظر : العبر : ٤/١٩٧ .
٢٤٨ ـ انظر : مشكلات الحدود السياسية في الساحل الغربي للخليج العربي : ٨

البرتغاليون

بين رأس الخيمة والهند

أوائل القرن السّادس عشر

بقلم الدكتور رأفت غنيمي الشيخ



كانت البرتغال جزءا من الدولة الإسلامية بالأندلس ، ولكن الأجزاء الشمالية منها هي التي إستخلصتها إمارة قشتالة المسيحية لنفسها وبقيت الأجزاء الجنوبية خاضعة للمسلمين بالأندلس ، وفي بداية القرن الحادي عشر الميلادي تحررت الأجزاء الشمالية من سيطرة قشتالة على يد ملكها ألفونسو الأول Alfonso 1 في عام ٤٨٨ هـ الموافق لعام ١٠٩٥ م .

وقد نجح هذا الملك عام ٥٤٠ هـ الموافق لعام ١١٤٧ م في أخذ مدينة لشبونة عاصمة البرتغال الحالية ـ من المسلمين ، كما نجح الفونسو الثالث عام ٥٤٦ هـ الموافق لعام ١١٥١ م . في أخذ مناطق الغرب من البلاد التي



عرفت فيما بعد بأسم البرتغال وسميت هذه المناطق بالغرب لأنها الجزء الغربي من الأندلس الإسلامية ..

وأما أسم البرتغال فيرجع الى ما أطلقه المؤرخون على المناطق الشمالية الغربية من الأندلس باسم «بورتوكاليس» نسبة الى ميناء بورتس كالي - أي ميناء كالي والمعروف الى اليوم بأسم ابورتو ، ومن هنا جاء أسم البرتغال من بورتوجال أو بورتوكال Portogal التي أكتملت مقوماتها كدولة وطنية حديثة ذات حكومة مركزية قوية أخذت من مدينة لشبونة Lisboa عاصمة لها وذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ..

ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي صارت البرتغال - كما يذكر سردار بانيكار نصيرة المسيحية وراعيتها ضد الإسلام والمسلمين .. فقد كان الأيبيري المخلص لدينه المتفاني في حب وطنه أسبانيا كان أو برتغاليا يعد القتال ضد المسلمين ضرورة ماسة ويراه خليطا يجمع على حد سواء بين الواجب الديني والضرورات الوطنية .[١] ولذلك لا نعجب أن نجد البرتغال أسبق الدول الأوروبية في الدوران حول أفريقيا لتطويق المسلمين من الخلف وهي الحركة المعروفة بحركة الكشوف الجغرافية والإستعمار ..

وفي بداية القرن الخامس عشر أصبحت البرتغال تتمتع بالإستقرار السياسي والإقتصادي تحت حكم الملك يوحنا الأول John I أحد ملوك أسرة أفيز Avis فكلف ابنه الثالث هنري Henry بغزو مدينة سبته المغربية يدعمه رجال أقوياء من التجار المغامرين والبحارة الذين رفضوا الإكتفاء بالطرق التجارية التقليدية المألوفة أنذاك وأخذوا يسيرون في طريق الإستعمار يملؤهم الحماس للغزو وجمع الغنائم والأسلاب وهدم الحصون والقلاع .[٢]

ورغم أن نشاط المستكشفين البرتغاليين كان موجها في الأصل الى البحث عن طريق موصل الى الهند حيث منابع تجارة التوابل لانتزاعها من أيدي التجار المسلمين وتوصيلها الى أوروبا عن طريق البلاد الإسلامية الواقعة بين المحيط الهندى والبحر المتوسط ، فان أفريقيا كانت هذا الطريق الذي يبحث عنه المستكشفون البرتغاليون طالما أراد هؤلاء تجنب الإصطدام بالمسلمين المسيطرين على طرق التجارة التقليدية من الهند الى أوروبا ..

ويرجع الى البرتغاليين الفضل في كشف السواحل الأفريقية المطلة على المحيطين الأطلسي والهندي ، إذ بدأت عملية الكشوف البرتغالية بنزول الأمير هنري الملاح ابن ملك البرتغال يوحنا الأول الى مدينة سبتة المغربية عام ١٤١٥ م ، ومنذ ذلك التاريخ ومن هذا المركز الإستعماري البرتغالي الأول في الساحل الأفريقي استمرت حركة المستكشفين البرتغاليين للدوران حول أفريقيا التي انتهت بنجاح الملاح

البرتغالي فاسكو دي جاما في الدوران حول الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية الذي أطلق عليه رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨ م ، ثم واصل سيره في المحيط الهندي بمعرفة ملاح عربي من رأس الخيمة هو أحمد بن ماجد الى أن وصل الى ساحل الملبار في شبه القارة الهندية حيث بدأت أولى خطوات تأسيس امبراطورية برتغالية في الشرق ..

ومما تجب ملاحظته أنه لم يكن هدف البرتغاليين من كشف السواحل الأفريقية إقامة مستعمرات بل إقامة محطات ومراكز عند مصاب الأنهار ، ومن ثم لم يهتموا كثيرا بالتوغل داخل القارة ، وإن اهتموا بحماية مراكزهم ومحطاتهم ضد إغارات الأفارقة وكانت هذه المراكز والمحطات تقام في مناطق تصلح لرسو السفن ويمكن فيها إقامة الحصون والقلاع والمخازن والمحطات البحرية التي تحتوي على مساكن للجنود البرتغاليين المكلفين بحراسة محطات ومساكن التجار البرتغاليين وخدمهم من الأفارقة .(٣)

ولنا أن نتساءل عن الأسباب التي جعلت البرتغال تسبق الدول الأوروبية في مجال الكشف الجغرافي والإستعمار ، وفي الاجابة على هذا التساؤل نذكر النقاط الآتية :

١ ـ سادت الروح الصليبية في البرتغال وأصبحت محركا للسياسة البرتغالية خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، مما أعطى البرتغال زعامة على العالم المسيحي في غرب أوروبا في الحرب ضد المسلمين .

٢ ـ وقوع البرتغال متاخمة لامارات إسلامية في الاندلس وفي شمال أفريقيا مما جعل الحرب مستمرة بين الامارات المسيحية والامارات الإسلامية .

٣ ـ وقوع البرتغال على شاطىء المحيط الاطلسي على مقربة من القارة الأفريقية أعطاها أهمية استراتيجية وتجارية حيث كانت عاصمتها لشبونة مركزا للتجارة الهندية والأفريقية المستوردة الى أوربا .

٤ ـ استعانة البرتغال بملاحين من جنوة نقلوا خبراتهم الملاحية البحرية الى البرتغاليين الى جانب العلماء والجغرافيين الذين استفادت منهم البرتغال في وضع المصورات والخطط لإنشاء امبراطورية برتغالية في الشرق تبدأ بأفريقيا ، وأصبح الملاح البرتغالي الى جانب إتقانه الملاحة محاربا قويا خصوصا في القارة الأفريقية المسلح أبناؤها بأسلحة بدائية أمام بارود البرتغال ومدافعهم .(٤)

وعندما حصل البرتغاليون من البابا «مارتان الخامس» على مرسوم باكتشاف الطريق الى الهند وشن الحرب ضد المسلمين عام ١٤٥٤ م زمن رحلات الأمير هنري الملاح أعلنت البرتغال امتلاكها لجميع الشواطىء الأفريقية جنوب مراكش ، في الوقت الذي كانت فيه أسبانيا تنشط في مجال الكشف والاستعمار في العالم الجديد مما أدى الى حدوث صراع بين الطرفين

لامتلاك الشواطىء والجزر الأفريقية ..

وقد استمر الصراع البرتغالي الأسباني حتى عقدت بين الطرفين معاهدة «ترود سيلاس» Trodisellas عام ١٤٩٤ م بمساعي بابا روما نصت على امتلاك البرتغال جميع الأراضي الأفريقية التي تصل اليها ابتداء من جنوب مراكش حتى الهند ، وأن تظل أسبانيا تمتلك جزر كناريا ، وأن تعترف البرتغال بمصالح أسبانيا في مراكش واستعمارها للعالم الجديد .(٥)

ويمكن أن نحدد مظاهر الكشف والاستعمار لأفريقيا والهند في النقاط الآتية :

أ ـ لم تكن أفريقيا تمثل هدفا عند البرتغاليين يصلون اليه ويحققونه ، وإنما كانت وسيلة يصلون عن طريقها الى تحقيق هدفهم الأسمى وهو احتكار تجارة الهند والسيطرة على البحار الهندية وشواطئها ، وانحصر الإهتمام البرتغالي بأفريقيا في تأمين طريق الوصول الى البحار الهندية بإقامة حصون ومحطات على الشواطىء الأفريقية الغربية والشرقية .

ب ـ لم يكن هدف البرتغاليين في البداية إنشاء مستعمرات بل إقامة محطات أو مراكز مسلحة ، ولذلك لم يهتموا كثيرا بالتوغل من الساحل الى الداخل سواء بالنسبة للقارة الأفريقية أو للهند أو حتى للخليج العربي ، ومن ثم اختاروا أماكن تصلح لرسو السفن ويمكن إقامة الحصون والقلاع والمخازن والمحطات البحرية التي تحتوى على مساكن للجنود البرتغاليين المكلفين بحراسة المحطات .

ج ـ اعتنق البرتغاليون فكرة أن تجارة الهند لن تخلص لهم وحدهم إلا بالقضاء على التجار العرب والمسلمين في تلك الجهات ، ومن ثم فقد هاجموا ودمروا جميع المدن العربية والإسلامية المزدهرة على الشاطىء الشرقي لافريقيا وفي الشاطىء الغربي للهند وفي شواطىء الخليج العربي ، وأقاموا مكان هذه المدن محطات ومراكز خاصة بهم .(٦)

وبعد عودة دي جاما الى لشبونة في شهر سبتمبر عام ١٤٩٩ م بعد رحلة استغرقت حوالي عامين ، بدأت حملات البرتغاليين الحربية بقصد الغزو والإستعمار بعد مرحلة الكشف الجغرافي ، ومن ثم أرسل الملك عما نويل ملك البرتغال حملة بقيادة بدرو الفاريز كابرال Pedro Alfares Cabral مكونة من ٣٣ سفينة غادرت لشبونة في ٩ مارس عام ١٥٠٠ م والذي وصل الى الهند واصطدم مع الزامورين حاكم قاليقوط أو كاليكوت ..

تم تتالت الحملات الإستعمارية البرتغالية فكان منها حملة فاسكو دي جاما الثانية في مارس سنة ١٥٠٢ م مكونة من ٢٠ سفينة ، والتي اتخذت مواقف عدائية من المدن والإمارات بشرق أفريقيا وبالهند حتى أنه هاجم سفينة حجاج مسلمين وأحرقهم

بسفينتهم في عرض مياه المحيط الهندي ، ثم عاد الى لشبونة في ديسمبر عام ١٥٠٣ م حاملا ثروة عظيمة سلبها من السفن العربية والإسلامية ..

ثم جاءت حملة الفونسو البوكيرك التي غادرت لشبونة في ٦ أبريل ١٥٠٣ م بهدف الانتقام من الزامورين حاكم قاليقوط ، وقد تمكن البوكيرك من تنفيذ مهمته ، ونتيجة لهذه الحملة احتلت البرتغال مركز الصدارة في التجارة الشرقية ، وبدأ الهجوم على العرب والمسلمين في البحر الأحمر والخليج العربي الذي استكمله فرانسسكو الميدا منذ عام ١٥٠٥ م ، وافونسودا البوكيرك مرة ثانية منذ عام ١٥٠٧ م حتى عام ١٥١٢ م .

أحمد بن ماجد :

للحديث عن علاقة البرتغاليين برأس الخيمة لا بد أن نتطرق الى الحديث عن أحمد بن ماجد مواطن رأس الخيمة . لماذا ؟ لأن الحديث عن دور البرتغال في الدوران حول أفريقيا للوصول الى الهند يبرز قضية هامة تدور حول من أرشد فاسكو دي جاما الى الهند وقاد الحملة البرتغالية الكشفية من «مالندي» بشرق أفريقيا الى «قاليقوط» بساحل الملبار بالهند (الساحل الغربي لشبه القارة الهندية المطل على المحيط الهندي) أهو أحمد بن ماجد هذا الملاح العماني الشهير أم أحد غيره ؟.

من هو أحمد بن ماجد ؟.. ان أسمه الكامل شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك من أصل عربي ومسقط رأسه مدينة «جلفار» ـ رأس الخيمة ـ اشتهر بالملاحة واكتسب خبرة كبيرة في ركوب البحر بين عمان والهند وشرق أفريقيا حتى ذاع صيته ، وقد أطلق عليه لقب «أسد البحر» أو «ليث البحر» .(٧)

وأما علاقته بالبرتغاليين فترجع الى أنه عايش فترة محاولات البرتغاليين الدوران حول الطرف الجنوبي لأفريقيا ، وعندما فشل «بارثلميو دياز» الملاح البرتغالي عام ١٤٨٧ م في مواصلة السير باتجاه شرق أفريقيا بعد أن واجهته عواصف عند الطرف الجنوبي لأفريقيا انتقده أحمد بن ماجد في قصيدة من الشعر العامي تعرف بأسم «الأراجيز» جمع أرجوزة ،جاء فيها :

زلوا بها علق الموسم
في عيد ميكال بالتوهم
قام عليها موج تلك الروس
في سفالة بقى معكوس
وانقلبت أدفالهم في الماء
والسفن فوق الماء يا خائي
غرقا يرون بعضهم لبعض
وكن عارفا موسم تلك الأرض .(٨)

وعندما وصل فاسكو دي جاما الملاح البرتغالي الذي نجح في الدوران حول الطرف الجنوبي لأفريقيا وأطلق عليه أسم رأس الرجاء الصالح ـ كما ذكرنا ـ الى مدينة «مالندي» بشرق أفريقيا في ١٥ مارس عام ١٤٩٨ م

شغل نفسه بالبحث عن ملاح من هذه المنطقة ليقود رحلته في المحيط الهندي ، وكان ملك «مالندي» يشعر بالود نحو الأفرنج ، فأشار على فاسكو دي جاما بأخذ أحمد بن ماجد مرشدا وقائدا الرحلة ..

وقد رضى فاسكودى جاما كل الرضا عن أحمد بن ماجد خاصة بعد التحدث معه وبعد أن عرض أحمد بن ماجد عليه خريطة لكل الشواطىء الهندية مرسومة بكل وضوح وعندما عرض دى جاما علي ابن ماجد « اسطرلابا » كبيرا من الخشب كان قد أحضره معه ، وكذلك اسطرلابات معدنية أخرى لقياس ارتفاع الشمس والنجوم لم يندهش ابن ماجد وقال ان الملاحين العرب يستخدمون أجهزة مثلثية ومربعية الشكل لقياس ارتفاع الشمس وخصوصا النجم القطبى ، كما انهم يستخدمون أجهزة أخرى غير الاسطرلاب ، وقد عرضها ابن ماجد مما جعل دي جاما يعتبر ابن ماجد ثروة كبيرة[٩] .

ركب أحمد بن ماجد سفينة القيادة فى حملة فاسكودى جاما الاولى الى الهند وقاد الرحلة التى أبحرت من « مالندى » في ٢٤ أبريل عام ١٤٩٨م متجهة الى الهند فوصلت « قاليقوط » أو « كاليكوت » على الشاطىء الغربي لشبه القارة الهندية فى ٢٠ مايو من نفس العام ، أى بعد حوالى شهر ، ولأول مرة وبفضل خبرة أحمد بن ماجد الملاح العربي الخليجي تمهد الطريق البحرى من أوروبا الى ثروات الشرق الأقصى التى كان الاوروبيون يتحرقون شوقا اليها ، وإن كان لهذا الحدث تأثير مضاد على الشرق ، فالشعوب المطلة على المحيط الهندى قاست بعدها من ويلات القراصنة والمختلسين والمستغلين ذوى المآرب الهادفة الى الغنى عن طريق الثروة الموجودة على اليابسة ، وكل هذا مصحوب بإرساء قواعد السيطرة البرتغالية فى المنطقة الممتدة من شرق أفريقيا الى الهند[١٠] .

ونتيجة لأفعال البرتغاليين فى شرق أفريقيا وفى الخليج العربي وفي الهند من أعمال تتصف بالبربرية كقتل الناس وتدمير المدن المزدهرة ، فقد شعر أحمد بن ماجد بتأنيب الضمير على قيامه بارشاد سفن حملة فاسكودى جاما من شرق أفريقيا الى الهند وقد سجل مشاعره الحزينة هذه فى صورة شعرية تنطق مصورة أعمال المستبدين البرتغاليين كما تنطق بعذاب ماجد المضحوك عليه والحسرة والندم على ما أقدم عليه والنقمة والغضب على البرتغاليين .

وقد جاء فى شعره :

وجا الكاليكوت خذ ذي الفايدة
لعام تسعماية وست زايدة
وباع فيها واشترى وحكما
والسامرى برطله وظلما
وسار فيها مبغض الاسلام
والناس في خوف واهتمام
وانقطع المكى عن ارض السامرى
وشد جرد افون للمسافرى

وخبرني ما حمله الفرنجي
من جانب السودان شط اللجى
وهو الذي قد قهر المغاربة
واند لس في حكمه مناسبة[١١]

وهكذا يتضح ان أحمد بن ماجد الملاح العربي ، هو الذي قاد سفن حملة فاسكودى جاما الأولى من شرق أفريقيا الى الهند ، ولا يمكن القاء اللوم على ابن ماجد لما قام به نحو البرتغاليين فلم يكن يعلم أن هذه الحملة مقدمة لحملات عسكرية معادية للعرب المسلمين فى هذه المناطق سواء في الجزيرة العربية أو في شرق أفريقيا أو في الهند .

كما لا يمكن لنا الموافقة على ما جاء فى مخطوط « قطب الدين النهر والى » كاتب القرن السادس عشر من أن كبير الفرنج (فاسكودى جاما) صاحب أحمد بن ماجد وعاشره فى السكر فأعلمه الطريق الى الهند فى حالة سكره ، اذ لا يعقل أن يقوم ملاح بارشاد وقيادة سفن وهو في حالة السكر[١٢] .

وكان ابن ماجد ينحدر من أسرة عمل معظم أفرادها بالملاحة ، فاذا كان قد أطلق على نفسه لقب « المعلم » فقد كان أبوه وجده « معلمين » ، والمعلم في مصطلح أهل البحر الشخص الذي له المام تام بالسفن أو بغاطسها اذا كان كبيرا أو صغيرا وله دراية بعلم الفلك ، وقدرة على تحمل المسئولية فى قيادة السفينة وسلامتها وأمن من معه من العاملين على السفينة ، كما يكون على معرفة بمواقع الموانى والشواطىء المختلفة والجزر والشعب المرجانية والمياه الضحلة والهضاب والجبال ، وعليه ان يكون آخر من يترك السفينة فى أى ظرف كان[١٣] .

وإذا كان أحمد بن ماجد قد أرخ لقدوم فاسكودى جاما الى مالندى والهند عام ٩٠٦هـ الموافق لعام ١٤٩٨م ، فقد ذكر عن قدوم الحملات البرتغالية بعد ذلك وخاصة عامى ١٥٠٠ و ١٥٠١م فيقول :

وبعد ذا من عام تسعماية
وست جاءوا الهند يا اخاية
واشتروا البيوت ثم سكنوا
وصاحبوا وللسوامر ركنوا
والناس تضرب فيهم الظنونا
ذا حاكم او سارق مجنونا
وتضرب السكة وسط البندر
بندر كاليكوت بين السفر
يا ليت شعرى ما يكون منهم
والناس معجبين من أمرهم[١٤]

وهكذا أثبت أحمد بن ماجد قدرته على متابعة الاحداث منذ مقابلته لفاسكودى جاما في مدينة مالندى الأفريقية ومصاحبته إياه في رحلته الأولى الاستكشافية الى ساحل الملبار بالهند ثم متابعة ما أحدثه البرتغاليون من سلوك يتنافى مع التحضر الذي ادعوه عند قدومهم حين هاجموا المدن الاسلامية والسفن الاسلامية سواء بشرق أفريقيا أو في البحر الاحمر والبحر العربي أو في ساحل الهند الغربي أو في الخليج العربي .

ورغم أن أحمد بن ماجد أرشد

البرتغاليين الى طريق الهند ، فإنه لم يكن يعرف الا أنهم جاءوا للتجارة ولم يكن يعلم نواياهم الشريرة ضد العرب والمسلمين ، ويكفى ابن ماجد فخرا أنه المواطن الخليجي ، الذي ينتسب الى جلفار - رأس الخيمة - شهرته الملاحية فى ركوب البحر لمدة ذكرها فى أراجيزه تزيد عن خمسين عاما .

رأس الخيمة (الخليج العربي)):

رأس الخيمة أقيمت مكان مدينة جلفار القديمة ، وقد أخذت رأس الخيمة مكان جلفار في زعامة البحر ، أى أن رأس الخيمة حلت محل جلفار اسما ومعنى(١٥) . وتقع أطلال جلفار القديمة شمال رأس الخيمة بين الرمس والمعيرض ، ولها ذكر في الفتوح الاسلامية لفارس واليها ينسب الملاح العربي الشهير أحمد بن ماجد ، كما سبق أن ذكرنا .

ومن الناحية الجغرافية فإن رأس الخيمة هى أولى المشيخات من ناحية الشرق أو بالأحرى هى أقصى جزء من المشرق العربي ، وتقع بين خطى عرض ٢٥ و ٢٦ شمالا وخطى طول ٦٠,٥٥ شرقا ، وتطل على مشارف مدخل الخليج العربي ، ومضيق هرمز باب السلام ، وتكثر فيها المزارع والبساتين والاشجار البرية التى تضفى على المنطقة جمالا طبيعيا تجتذب سكان الساحل العمانى ، وتتمتع مدينة رأس الخيمة بمركزمهم على الساحل العمانى من حيث الموقع والطبيعة الجغرافية اذ يشق المدينة لسان مائى عميق (خور) يعتبر ملجأ للسفن ومراكب الصيد .

وتوجد برأس الخيمة عدة أثار لها جذورها التاريخية منها حصن ضابة ، وهو حصن جبلى يقع في المنطقة الجبلية الى الشرق من بلدة الرمس ، ومنها قصر الزباء الذي يقع فوق مرتفع جبلى أيضا ومن بقاياه أجزاء من السور المحيط وبعض البرك وخزانات المياه ، واحدى الغرف والقاعات .. ومنها آثار مدينة جلفار الباقية بعد معارك الاساطيل الغازية للمدينة(١٦) .

وقد تعرضت رأس الخيمة (جلفار) للغزو من جانب البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر بعد ما سيطروا على مياه المحيط الهندى فى اطار الهجوم على مملكة هرمز الاسلامية المزد هرة وبقية مشيخات الخليج ، فقد كانت مملكة هرمز تقع عند مدخل الخليج العربي في اتصاله بالمحيط الهندى وتضم جزيرة هرمز وما يحيط بها من جزر صغيرة بالاضافة الى الشريط الساحلى العربي المواجه لها ..

وكانت سياسة ألفونسو البوكيرك الاستعمارية تقوم على أساس ان استخلاص الهند للبرتغال وحدها لن يتحقق الا بالقضاء على الكيانات العربية والاسلامية بالخليج العربي والبحر الاحمر ومن ثم حاول الاستيلاء على مسقط عام ١٥٠٧م ثم

تحول الى هرمز حتى انتصر على ملكها وفرض عليه دفع اتاوة سنوية للبرتغال ، وفي عام ١٥١٥م أصبح للبرتغال قلعة في هرمز تشرف على مدخل الخليج وتؤكد سيطرة البرتغال على هرمز . وبناء القلاع البرتغالية يحقق استراتيجية البوكيرك الرامية الى السيطرة على المناطق الافريقية والهندية والخليجية دون أن تتحمل البرتغال تكاليف أنشاء مستعمرات ..

واتبع البوكيرك سياسة عدوانية تخريبية ضد السفن والموانى العربية ، خاصة بعد أن استولى على سوقطرة الواقعة بالقرب من مدخل البحر الاحمر الجنوبى عام ١٥٠٧م وأقام بها حصنا عسكريا للبرتغاليين يهاجمون منه السفن العربية المتجهة للبحر الاحمر ، ويهاجم الساحل العربي الجنوبى حتى رأس الحد بالساحل العمانى الذي كان خاضعا لسيادة مملكة هرمز فهاجمه وأضرم النار فيه وأغرق سبع عشرة سفينة كانت راسية بميناء رأس الحد ، ثم هاجم مدينة مسقط وضربها بالمدافع فأحرق كثيرا من مبانيها ومسجدها وجميع السفن الراسية بالميناء ، وأخذ من أهلها أسرى كثيرين استخدمهم في سفنه وترك الاطفال والنساء والرجال الضعاف بعد أن شوههم أوجدع انوفهم وقطع أذانهم . وكانت مسقط تخضع لملكة هرمز وتدفع جزية لملك هرمز(١٧) .

وكان الهجوم البرتغالى على مسقط ـ رغم عدم الاستقرار بها ـ بمثابة إنذار لملكة هرمز التى قاومت ما وسعتها المقاومة حتى اضطرت لتوقيع اتفاق مع البوكيرك كما ذكرنا يدفع بموجبه ملك هرمز اتاوة سنوية ويسمح باقامة حصن برتغالى في أراضى المملكة . وكان هذا الاتفاق بداية سيطرة البرتغاليين على تجارة الخليج ، تلك السيطرة التى استمرت حتى أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، على الرغم من الثورات التى لم تتوقف من الأهالى وسكان الساحل العربي المواجه للجزيرة .

وبعد عام ١٥١٥م تأكدت السيطرة البرتغالية على مملكة هرمز ، ونجح البوكيرك في هذه السنة في الاستيلاء على جزيرة قشم الى جانب جزء من ساحل فارس . الى الشمال والشمال الغربي من هرمز وذلك من أجل تقوية مركزه في الخليج ولتأمين التموين من مياه الشرب والمواد الغذائية للقاعدة البرتغالية في هرمز(١٨) وبذلك سيطر البرتغاليون على الموانى الرئيسية على جانبى الخليج ، فكانت هرمز على الجانب الفارسى ومسقط والبحرين على الجانب العربى قواعد ارتكازهم الاساسية الى جانب السيطرة على مياه الخليج واحتكار الابحار فيه وأخذ البرتغاليون ينظمون العمليات التجارية في المنطقة بإجازات يمنحونها ، ويتحكمون في مدخل الخليج عن طريق قلاعهم القوية في هرمز ولهذا أصبح من المتعذر على أى من مشيخات الخليج وأقطاره تحدى قوة البرتغال البحرية خلال تلك

الفترة(١٩) .

وتأكيدا للسيطرة البرتغالية فى المنطقة فقد نقل البوكيرك مركز القيادة والسيطرة من كوشين الواقعة جنوب ساحل الملبار الى ميناء جوا Goa الواقع وسط هذا الساحل والذي أصبح منذ عام ١٥٠٩م قاعدة البرتغاليين الرئيسية فى شبه القارة الهندية ومن هذا الموقع اندفعوا أكثر ناحية الشرق الى جزر التوابل (اندونيسيا والملايو) ليؤسسوا لمائة السنة التالية احتكارا لتجارة التوابل مع أوروبا قائما على المحطة التجارية الكبرى التى أسسوها فى ملقا Malacca(٢٠). منذ عام ١٥١١م .

ومنذ نقل ألبوكيرك مقر إدارة الممتلكات البرتغالية فى الشرق الى ميناء جوا عام ١٥١٠م ازدادت التوسعات البرتغالية المقرونة بالارهاب والقسوة ، مما جعل سلطان كجرات الهندى يوافق على اقامة محطة برتغالية تجارية وحصنا للبرتغاليين فى ديو ، كما عقدت كاليكوت صلحا معهم وسمحت لهم باقامة قلعة فى أراضيها ، ومن جوا اتجه الى احتلال ميناء ملقا ـ كما ذكرنا ـ الذي يعد من أهم الموانى التجارية فى العالم حيث كانت أهم المراكز لتجميع منتجات الهند الشرقية وغيرها من مناطق الشرق الاقصى حتى الصين شرقا(٢١) .

وكان ألبوكيرك قد حدد النقاط الرئيسية التى تكون قواعد امبراطوريته الجديدة والتى تتمثل ـ هذه المراكز ـ فيما يلي :

١ ـ هرمز للسيطرة على منافذ الخليج العربي .

٢ ـ سوقطرة أو عدن للسيطرة على مدخل البحر الاحمر الذي كان يمثل طريق الاتصال مع أوروبا عن طريق برزخ السويس .

٣ ـ ملقا للسيطرة على مضيق ملقا بحيث تتم مراقبة كل السفن الذاهبة أو القادمة من المحيط الهندى والشرق الاقصى .

٤ ـ سيلان وجوا في الهند لتكون مركز القيادة والمراقبة والادارة للحكام البرتغاليين في المنطقة(٢٢) .

وكانت السيطرة على الخليج العربي ـ كموقع متوسط ـ تمثل أهمية كبرى للبرتغاليين ومن ثم تضررت أقطاره من السياسة البرتغالية الارهابية القاسية ومنها مدخل الخليج حيث موقع رأس الخيمة الحالية .

الهند :

كانت الهند معروفة لدى أوروبا منذ أقدم عصور التاريخ ، وما وصول الاسكندر الاكبر الى هذه البلاد سوى دليل معرفة الأوروبيين بالهند وحضارتها القديمة ، ولذلك لاريب ان وصول فاسكودى جاما الملاح البرتغالى على رأس حملة بحرية الى ميناء كاليكوت على الشاطىء الجنوبي الغربي للهند فى ٢٧ مايو عام ١٤٩٨م

يسجل نقطة تحول في تاريخ بلاد الهند وأوروبا[٢٣] .

وفي كاليكوت استقبل حاكمها الزامورين فاسكودى جاما ورجاله متسائلا عن سبب مجيئهم الى بلاده فأجاب فاسكودى جاما بإيجاز « المسيحية ثم البهارات » ولذلك عندما عاد الى لشبونة بحملته كانت سفنه محملة بشحنة كبيرة من البهارات والاحجار الكريمة ، ثم عاد البرتغاليون في السنوات التالية وأنشأوا أول مستعمرة لهم في « كوشين » الى الجنوب من كاليكوت . وكان مجيء فاسكودى جاما الى كاليكوت قبل دخول بابر الى دلهى بنحو ثلاثين سنة[٢٤] .

وكان يحكم الهند في تلك الفترة ملوك الطوائف بعد غزو تيمور لنك لشبه الجزيرة الهندية عام ١٣٩٨م الذي ادى الى تفكك الدولة الاسلامية التى بدأ تأسيسها على يد محمود الغزنوى أواخر القرن الرابع الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ، والتى أصبحت في أيدى الغوريين في القرن السادس الهجرى الموافق للقرن الثانى عشر الميلادى ، ثم المماليك وأولهم قطب الدين أيبك أوائل القرن السابع الهجرى الموافق للقرن الثالث عشر الميلادى ، وغير هؤلاء مثل الخليجيين وآل تغلق حتى ظهور ملوك الطوائف أوائل القرن التاسع الهجرى الموافق لأوائل القرن الخامس عشر الميلادى .

ويهمنا من امارات الهند تلك التى كان لها علاقات بالبرتغال ، وأعنى تلك الواقعة غرب شبه القارة الهندية على ساحل الملبار ، ومن هذه الامارات « الكجرات » التى تعد ثانى امارات الهند الاسلامية بعد « دهلى » حيث كانت باب التجارة الهندية الغربي منذ القدم ومنفذها الى أفريقية وآسيا ، فمن شاطئها عند « سورات » وخليجها « كمباى » كانت تبحر السفن بمنتجات الهند من توابل وثمار وعطور وسيوف ومنسوجات حريرية وقطنية وأحجار كريمة الى اوروبا عبر الخليج العربي والبحر الاحمر .

والى سلطان الكجرات محمود بيكر ، حفيد أحمد شاه ، الذي يعد أعظم حكامها يرجع الفضل في مقاومة الوجود البرتغالى بساحل الهند الغربي ، ذلك الوجود الذي كان معاديا للاسلام والمسلمين ، مما دفع بالسلطان محمود أن يستنجد بالسلطان المملوكى قانصوه الغورى في مصر لمحاربة هؤلاء الدخلاء الذين كانوا يقطعون الطريق على سفن التجارة والحجيج[٢٥] .

وكانت الهند خلال القرن الخامس عشر منقسمة يتنافس حولها سلاطين الأتراك والافغان ويحتفظون للهندوس بالوظائف الصغيرة ، وبعد أن تمكن « بابر » الحفيد الخامس لتيمورلنك ـ من مد حكمه من « سمر قند » الى « كابل » الى « دهلى » اصبحت كل الهند تحت حكمه وحكم حفيده « أكبر » ما عدا أقصى جنوب شبه

القارة الهندية فأصبح الخان الاعظم، وبذلك تمكن أحفاد المغول من حكم الهند، التى صارت امبراطورية المغول الكبرى التى بلغت مساحتها مليون ونصف مليون كيلومتر مربع وبلغ عدد سكانها مليون نسمة[٢٦].

وكان ساحل شبه القارة الهندية الغربي يخضع لبعض الأمراء الصغار وهى المنطقة المعروفة بأسم «ملبار» أو «كيرالا» الممتدة من «منجالور» الى «رأس قومورين» وهى منطقة الفلفل المثلى التى ظلت السفن زهاء ألفى سنة من الزمان تقلع منها دون توقف الى الخليج العربي والبحر الاحمر وكان أهم حاكم بتلك المنطقة هو الزامورين صاحب كاليكوت التى كانت المركز الاساسى لتجارة التوابل سواء المنتجة من شبه قارة الهند أو المنقولة اليها من جزر الهند الشرقية وجزر المحيط الهادى وكل ذلك جعل كاليكوت تعيش عصر رخاء.

وبسبب موقع كاليكوت استفادت من الرياح الموسمية فى منطقة المحيط الهندى كما كان لها علاقات بتجار القاهرة والاسكندرية ومدينة فاس المغربية، ورغم أن الزامورين كان هندوكيا الا أن علاقته بالمسلمين كانت جيدة، ولذلك كان له دور مع المسلمين فى مقاومة الوجود البرتغالى فى المياه الهندية ذلك الوجود الارهابي الذي مثله كل من فاسكودى جاما في رحلته الثانية وكابرال وفرنسسكو ألميدا وافونسودا البوكيرك[٢٧].

وذلك أنه نتيجة للروح العدائية الصليبية التى يكنها البرتغاليون للمسلمين فقد استجاب السلطان المملوكى قانصوه الغورى سلطان دولة المماليك فى مصر والشام الى دعوة الامراء الهنود والعرب فأقام ترسانة بحرية فى السويس لاعداد اسطول يتجه الى المياه الهندية للتعامل مع الغزو البرتغالى للمنطقة، الى جانب انشاء دور ـ للصناعة فى كل من الروضة وبولاق بمصر[٢٨].

وعندما تهيأت القوة للقتال التى أمر الغورى باعدادها عين لقيادتها الأمير حسين الكردى، وخرجت من القاهرة فى ٦ جمادى الآخرة عام ٩١١هـ الموافق لعام ١٥٠٥م الى بلاد الهند لمحاربة البرتغاليين واجلائهم عن المراكز التى نزلوا بها فى الشواطىء الهندية، الى جانب تحصين ميناء جدة وعدن وسواكن وعندما وصلت الحملة الى الهند تحالف الامير حسين الكردى مع بعض الامراء الهنود مثل أمراء كجرات وبيجامور وأحمد ناجايال وكاليكوت وكمران واستطاعوا الحاق الهزيمة بالبرتغاليين فى شوال ٩١٤هـ الموافق لعام ١٥٠٨م، ولكن التحالف المملوكى الهندى استقر بجزيرة ديو حيث فاجأهم فرنسسكو ألميدا بهجوم خاطف انتصر فيه على هذا التحالف فى ٣ فبراير ١٥٠٩م الموافق لعام

٩١٥هـ ، واضطر الامير حسين الكردى للانسحاب بما سلم من سفنه الى جدة[٢٩] .

وكان للخيانة دور في هزيمة التحالف المملوكى الهندى وقد تمثلت الخيانة فى أن «مالك إياس» وهو أوروبي حاكم ديو من قبل ملك جوجيرات (أو كجرات) انضم سرا الى البرتغاليين وحرم الامير حسين الكردى من المدد والمؤن ، فأضطر حسين الكردى أن يعتمد فى مدده على سفن الزامورين ونتيجة لانسحاب حسين الكردي بعد هزيمة ٣ فبراير ١٥٠٩م تأكدت ادعاءات البرتغاليين بأنهم سادة الملاحة في البحار الشرقية[٣٠] . واستمرت سياسة البرتغاليين فى محاربة الاسلام والمسلمين متعاونين فى ذلك مع بعض الامراء الهندوس ، ومن ذلك تأخر سقوط ديو تحت سيطرة البرتغاليين الى عام ٩٤٢هـ الموافق لعام ١٥٣٥م . وبعد معركة ديو تم تعيين إفونسودا البوكيرك نائبا للملك البرتغالى في كوشين بدلا من فرنسسكو الميدا[٣١] .

تعليق :

وهكذا يتضح الدور البرتغالى الاستعمارى فى الشرق سواء بشرق أفريقيا أو في الهند مرورا بالبحر الاحمر والخليج العربي ، وحيث كان هذا الدور البرتغالى معاديا للاسلام والعرب فقد قاسى منه عرب الخليج كما قاسى منه مسلمو شرق أفريقيا وشبه القارة الهندية ، واستمرت هذه المعاناة أكثر من قرن ونصف حتى تم إجلاء البرتغاليين عن منطقة الخليج العربي وإن ظلوا يعتبرون مدينة جوا الهندية مركزا استعماريا لهم حتى الربع الأخير من القرن العشرين .

وإذا كانت مدينة رأس الخيمة بزعامة القواسم قد ظهرت ككيان سياسى منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادى فإن تاريخها القديم شاهد على وجودها وإن كان باسم جلفار ، ذلك الاسم الذي حمل شهرة أحد أبنائه ليث البحر شهاب الدين أحمد بن ماجد الملاح الذي ذاع صيته طوال القرن الخامس عشر الميلادى ، وعندما نتابع نشاط الملاحين القواسم فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر فى عملياتهم البحرية الجريئة التى نعرفها بأسم الجهاد البحرى الاسلامى ضد السفن المعادية للاسلام والمسلمين ، نتذكر احمد بن ماجد ومن جاء من بعده في مواجهة الارهاب البرتغالى فى الخليج العربي والمحيط الهندى .

وعندما نلاحظ الآن توترا بين المسلمين والهندوس في شبه قارة الهند نتذكر تلك الايام الخوالى قبل وأثناء الغزو البرتغالى لساحل الملبار بالهند واتفاق الهندوس مع البرتغاليين ضد المسلمين

د. رافت غنيمي الشيخ
استاذ التاريخ الحديث المعاصر
جامعة الزقازيق ـ مصر

الهوامش

١ ـ ك . م . بانيكار : أسيا والسيطرة الغربية ـ ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٥ .
٢ ـ جيمس دفي ترجمة الدسوقي حسين المراكبي : الإستعمار البرتغالي في أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٣ .
٣ ـ د . رأفت غنيمي الشيخ : أفريقيا في العلاقات الدولية ص ٥٤ .
٤ ـ د . زاهر رياض : استعمار أفريقيا ص ٢٢ .
٥ ـ د . رأفت الشيخ : أفريقيا في التاريخ المعاصر ص ١٩ .
٦ ـ د . رأفت الشيخ : أفريقيا في العلاقات الدولية ص ٥٤ ـ ٥٥ .
٧ ـ أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار في معرفة البحار ص ٨٤ .
٨ ـ نفس المرجع ص ٤٠ .
٩ ـ د. رأفت الشيخ : افريقيا في التاريخ المعاصر ص ٢١ .
١٠ ـ أحمد بن ماجد : المرجع السابق ص ٨٦ ـ ٨٧ .
١١ ـ نفس المرجع ص ٤٣ .
١٢ ـ نفس المرجع ص ٨٧ .
١٣ ـ د . حسين أمين : أحمد بن ماجد وجهوده في الملاحة البحرية . من أبحاث ندوة راس الخيمة التاريخية ـ اغسطس ١٩٨٧م .
١٤ ـ أحمد بن ماجد : المرجع السابق ص ٨٨ .
١٥ ـ سالم بن حمود السيابي : ايضاح المعالم في تاريخ القواسم ، مراجعة أحمد التدمري ـ رأس الخيمة ١٩٧٦م ص ١٩ .
١٦ ـ نفس المرجع ص ٢١ ـ ٢٧ .
١٧ ـ وزارة الاعلام والثقافة مسقط : عمان وتاريخها البحري ص ٥٨ .
١٨ ـ لوريمر : دليل الخليج . مجلد أول .
١٩ ـ .
٢٠ ـ المرجع السابق ص ٢١ .
٢١ ـ د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) القاهرة ١٩٧٤م ص ٦٧ .
٢٢ ـ محمد عدنان مراد : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج

العربي ـ جذوره التاريخية وأبعاده . القاهرة ١٩٨٤م ص ١٣٠ .
٢٣ ـ ك.م. بانيكار : المرجع السابق ص ١٩ .
٢٤ ـ محمد مرسي أبو الليل : الهند تاريخها ، تقاليدها ، جغرافيتها ، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٧٧ .
٢٥ ـ احمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم جزآن ، القاهرة ١٩٥٧ جزء أول ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .
٢٦ ـ د . جلال يحيى : التاريخ الأوروبي الحديث ، الاسكندرية ، ص ٣٩٢ .
٢٧ ـ ك.م. بانيكار : المرجع السابق ص ٣٦ ـ ٤٢ .
٢٨ ـ د . احمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام جامعة بيروت ١٩٧٢ ص ٢٢٣ .
٢٩ ـ د . محمد عبدالعال : البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، الاسكندرية ١٩٨٠ ص ٤٩٨ .
٣٠ ـ ك.م. بانيكار : المرجع السابق ص ٤٤ .
٣١ ـ د . السيد مصطفى سالم : المرجع السابق ص ٦٤ .

المراجع

١ ـ صالح محمد العابد : دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠م . بغداد ١٩٧٦ .

٢ ـ سالم حمود السيابي : إيضاح المعالم في تاريخ القواسم . مراجعة أحمد التدمري رأس الخيمة ١٩٧٦م

٣ ـ محمد مرسى أبو الليل : الهند ، تاريخها ، تقاليدها ، جغرافيتها ، القاهرة (الألف كتاب) ١٩٦٥م .

٤ ـ ك . م . بانيكار ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد مراجعة أحمد خانكي : آسيا والسيطرة الغربية ، القاهرة ١٩٦٢م .

٥ ـ د . أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم جزآن ، القاهرة ١٩٥٧م .

٦ ـ جيمس دفي ترجمة الدسوقي حسين المراكبي : الاستعمار البرتغالي في أفريقيا القاهرة ١٩٦٣م .

٧ ـ د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥م) القاهرة ١٩٧٤م .

٨ ـ د . أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام . جامعة بيروت ١٩٧٢م .

٩ ـ د . محمد عبدالعال : البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه الاسكندرية ١٩٨٠م .

١٠ ـ د . رأفت غنيمي الشيخ : أفريقيا في العلاقات الدولية ، القاهرة ١٩٧٥م .

١١ ـ د . رأفت غنيمي الشيخ : أفريقيا في التاريخ المعاصر القاهرة ١٩٨٥م .

١٢ ـ د . زاهر رياض : استعمار أفريقيا القاهرة ١٩٧٢م .

١٣ ـ أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار في معرفة البحار . مخطوط تحقيق المستشرق الروسي شوموفسكي ترجمة وتعليق د . محمد منير مرسى القاهرة ١٩٧٤م .

١٤ ـ د . حسين أمين : أحمد بن ماجد وجهوده في الملاحة البحرية ، من أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية أغسطس ١٩٨٧م .

١٥ ـ وزارة الاعلام والثقافة ـ مسقط سلطنة عمان ـ عمان وتاريخها البحري .

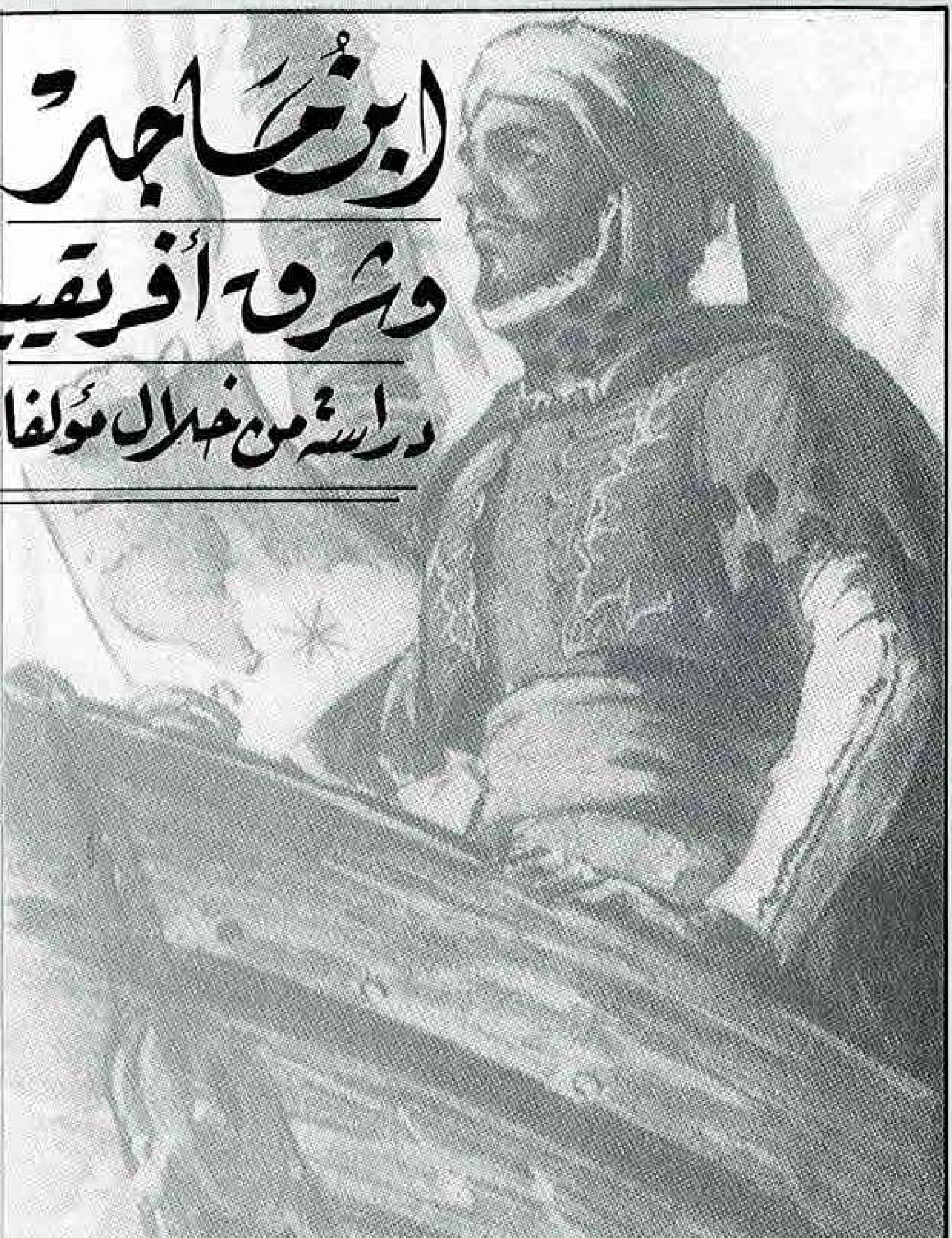
١٦ ـ لوريمر : دليل الخليج ـ القسم التاريخي ـ الجزء الاول : تعريب ونشر الديوان الاميري القطري .

١٧ ـ محمد عدنان مراد : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي ، جذوره التاريخية وأبعاده ، القاهرة ١٩٨٤م .

ابن ماجد

وشرق أفريقيا

دراسة من خلال مؤلفاته



علاقات عُمان بشرق أفريقيا حتى القرن ١٠هـ/١٦م

الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي

لا أريد بهذه المقدمة أن أؤرخ للعلاقات العمانية الافريقية ، وانما الهدف هو تقديم موجز عن علاقات عمان بشرق افريقيا من حيث دوافعها واسبابها وطبيعة هذه العلاقة ولكي أصل منها الى اهتمام ابن ماجد الكبير بشرق افريقيا وصلته بها . والواقع انني لا آتي بشيء جديد اذا ما قلت أن علاقة العرب بشرق افريقيا بدأت منذ وقت مبكر قبل الاسلام ، وكان العمانيون فضلا عن اليمنيين والحضارمة «أول رواد لساحل أفريقيا الشرقي» وأكثر تأثيراً في المنطقة من أي فريق آخر .

وقد ساعدت عوامل عدة على الاتصال بين العمانيين وسكان شرق افريقيا يأتي في مقدمتها العلاقة المكانية المتأتية من موقع عمان الجغرافي المهم ، فهي تمتد مواجهة للخليج العربي والمحيط الهندي ، وتقع على طريق التجارة البحرية التي تأتي من أسواق المحيط الهندي ، وهذا ما جعلها مركزا لتجميع السلع الآتية من افريقيا ومن الهند والصين الى انحاء العالم المعروف آنذاك [١]

فالتجارة هي التي حملت العمانيين الى افريقيا ، وبحكم نمو التبادل التجاري بين الطرفين وصلت مراكب العمانيين الى مناطق سفالة (موزمبيق) والواق واق ـ آخر أرض الزنج [٢]

ان ارتباط الشاطيء العماني بالبحر منذ وجوده ، جعل من شعبه ملاحين مهرة وأصحاب سفن قاموا برحلات خطيرة عن طريق المحيط الى الاراضي في شرق افريقيا ، فقد ذكر المسعودي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أن «أهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج (خليج بربرى) الى جزيرة قنبلو في بحر الزنج وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار الزنج والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن الخليج المعروف بالبربري ، وهم يعرفونه ببحر بربري .. موجه عظيم كالجبال الشواهق ... وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد وينتهي هؤلاء في بحر الزنج الى قنبلو على ما ذكرنا ، والى بلاد سفالة والواق واق من اقاصي أرض الزنج واسافل من بحرهم ... وقد ركبت هذا البحر من مدينة سنجار الى بلاد عمان» [٣]

ان اشارة المسعودي هذه لتقوم دليلا قاطعا على وجود صلة مباشرة ونشطة بين عمان وشرق افريقيا ، وان أصحاب السفن العمانيين يسيرون

بمراكبهم الى أقصى جهات الساحل الشرقي لافريقيا .

ومما ساعد عرب عمان في التوجه البحري والتجاري نحو شرق افريقيا معرفتهم الجيدة بالبحر وطرق الملاحة وقوانينها ، ولا سيما الرياح الموسمية التي تهب على منطقة المحيط الهندي ، والتي مكنت سفنهم الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود ـ ففي الخريف تندفع الرياح نحو الجنوب الغربي فتخرج السفن من خليج عمان الى المحيط الهندي ثم تسير بمحاذاة الساحل الافريقي . وفي الربيع تندفع الرياح باتجاه شمالي شرقي بحيث تمكن السفن من العودة الى قواعدها في ساحل عمان . وهكذا استغل أهل عمان مهارتهم البحرية فاندفعوا الى الشرق الافريقي خدمة لأغراضهم التجارية(٤)

وفضلا عن ذلك فقد أسهمت الاوضاع السياسية والدينية بعد تكوين الدولة العربية في عمان في هجرة الكثير من العمانيين الى شرق افريقيا والاستقرار فيها لبعد هذه المنطقة عن الاحداث في الخليج العربي . ففي النصف الاول من القرن الاول للهجرة/ السابع للميلاد ، وبعد انتفاضة حكام عمان الازديين من آل الجلندي على حكم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، هاجر سليمان وسعيد ابنا الجلندي مع بني قومهم الى شرق افريقيا ، بعد هزيمتهم على يد جيش الخليفة الذي أرسله الى عمان بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي عامله على العراق من أجل اخضاع عمان لسلطة الخلافة أولا ومن أجل السيطرة على الطريق التجارية البحرية التي تربط عمان بالشرق الاقصى من جهة وشرق افريقيا من جهة أخرى (٥)

ويعتقد أن هذه هي أول هجرة عربية الى مناطق الساحل الشرقي لافريقيا وهذا يعني أن العمانيين أول من أقام مستعمرات لهم في هذه الجهات (٦)

ولا نعرف على وجه الدقة المكان الذي استقر فيه هؤلاء الازد ، ولكن المعروف أنهم أقاموا في باتا (احدى جزر أرخبيل لامو شمالي كينيا ، بل تذهب الروايات الى أنهم أسسوا مدينة باتا (٧)

أما الهجرة العمانية الاخرى المهمة الى شرق أفريقيا فهي هجرة الاسرة النبهانية . والمعروف أن القبائل النبهانية كانت قد فرضت سيطرتها على عمان في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي . وبعد خلافاتهم مع اليعاربة وانهيار دولتهم هاجر النبهانيون (عام ٦٠١هـ/١٢٠٣م) ، بزعامة سليمان النبهاني الى شرق افريقيا واستقروا في مدينة باتا . وقد تزوج الحاكم النبهاني من ابنة حاكم باتا العربي البتاوي وأصبح حاكما على المنطقة ، كما أن باتا نفسها أصبحت مركزا للسلطة النبهانية التي استحوذت على ساحل افريقيا الشرقي . وغدت باتا في

القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أقوى دولة على الساحل، وانتعشت فيها حركة التجارة، وظلت هكذا حتى القرن التاسع عشر الميلادي (٨)

وبذلك يكون العمانيون قد نجحوا في مد سلطانهم إلى ساحل افريقيا الشرقي واقامة امارات تابعة لهم.

وفي ضوء العلاقات الوثيقة لعمان بشرق افريقيا، يبدو طبيعيا أن يكون لرجل البحار ابن ماجد العماني اهتمام كبير بها، وهذا ما سنحاول بحثه في الصفحات التالية.

ابن ماجد وشرق افريقيا:

دفع اهتمام العمانيين باقامة علاقات بحرية وتجارية وسياسية مع شرق افريقيا، البعض من رجالها لدراسة قواعد واصول الابحار اليها بل وتأليف مجموعة كبيرة أو صغيرة من المقالات عنها، والى هذه المجموعة ينتسب ابن ماجد.

لا نجد صعوبة في التعرف على ابن ماجد، فهو يعرف بأصله ونسبه وثقافته ونتاجه العلمي الذي يعد اسهاما مهما في مجال الحضارة الانسانية. فاسمه الكامل شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي (٩) ويدل نسبة على أن أصل أسرته من وسط الجزيرة العربية من. نجد في الحجاز. أما هو نفسه فمدينته جلفار (عمان سابقا ورأس الخيمة حاليا) (١٠)

وينحدر ابن ماجد من اسرة ربابنه، فقد ورث العمل في البحر من جده وأبيه فقد كان جده ملاحا مشهورا، أما أبوه فقد كان يلقب (بربان البحرين)، وقد دون تجاربه الملاحية في مصنف ضخم هو (ارجوزته الحجازية) (١١)

ونشأ ابن ماجد وترعرع في بيئة بحرية وأسرة اهتمت بالبحر، فأثر ذلك في اختيار مهنته كملاح يركب البحار الى آخر أيام حياته التي عاشها في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، مع العلم اننا نجهل تاريخ ميلاده أو وفاته.

كانت شرق افريقيا واحدة من الجهات التي، قصدها ابن ماجد وهو يقود مركبه في البحار (١٢)

أما متى بدأت علاقته بشرق أفريقيا، فليس لدينا أي إشارة عن ذلك، ولكن من الواضح انها بدأت مع بداية اهتمامه بالبحر وركوبة فيه، والمعروف أن ابن ماجد كان قد تولى قيادة المراكب وهو بعد حدث صغير مع أبيه وهو في سن العاشرة من عمره، وعند بلوغه سن العشرين تولى مسؤلية المركب مسؤولية تامة (١٣)

فقاد سفن المسافرين والتجار من عمان الى شرق افريقيا.

ان زيارات ابن ماجد الى شرق افريقيا التي لا تعد ولا تحصى، ولمدة تزيد على نصف قرن، قد اكتسبت تجربة عميقة عن المنطقة وسكانها، وحكامها ومنتجاتها، وجغرافيتها،

وفنون الملاحة البحرية في مياهها ، كما انها اطلعته على ما عند سكان المنطقة من معرفة ملاحية وجغرافية للمياه والسواحل وقد أخذ منها الصحيح وانتقد الخطأ وصوبه [١٤]

كانت تجربة ابن ماجد الشخصية الغنية في مسالك البحار (وضمنها مياه شرق افريقيا) ، فضلا عن تجربة جده وابيه التي أخذها ، قد أغنتها اطلاعاته الواسعة على عدد من مؤلفات من سبقوه في ميدان اختصاصه [١٥] فضلا عن المؤلفات الاخرى في ميادين متعددة [١٦] . فقد واظب ابن ماجد على طلب المعرفة التي نذر نفسه لها واجتهد في سؤال معاصريه طوال حياته [١٧] .

بدأ ابن ماجد ، وبما أحرزه من تجربة شخصية طويلة ، بتحبير مؤلفاته شعرا ونثرا عن المناطق التي رحل اليها ومن بينها شرق افريقيا ، والتي أثبت فيها مقدرة نادرة في معرفة سواحل المحيط الهندي ، ونال الحظوة عند بعض حكام شرق افريقيا [١٨] .

مؤلفات ابن ماجد عن شرق افريقيا :

ذاع صيت ابن ماجد ليس كملاح محنك بل ككاتب كثير الانتاج أيضا . وقد بقي من مؤلفاته الى اليوم ما يربو على الأربعين مؤلفا شعرا ونثرا . والمهم في الامر ان ابن ماجد قد خصص نصيبا مهما في مؤلفاته عن شرق افريقيا .

وفي كتابة «الفوائد في اصول علم البحر والقواعد» يجد الباحث شذرات مهمة وطريفة عن شرق افريقيا ، وهو الكتاب الوحيد الذي كتبه بالنثر .

أما تاريخ تدوينه فان ابن ماجد أثناء عرضه للكتاب يذكر عدة تواريخ [١٩] . مما يستدل منه على أن المؤلف قد أضاف اليه عدة مرات وأعاد تنقيحه بصورة يمكن القول بأن الكتاب قد كتب بين عامي ٨٨٠ ـ ٨٩٥هـ/ ١٤٧٥ ـ ١٤٨٩م و يبدأ الكتاب بالتاريخ الاول .

ويعكس ابن ماجد في كتابه أحسن ما حصل عليه من خبرات علمية اكتسبها عبر عدة عقود كقائد بحرى أثناء رحلاته فى المحيط الهندى . كما يستعرض فيه المعلومات الواسعة عندما ينقل عن عدد كبير ممن سبقوه فى مضمار الجغرافية و الملاحة والفلك ، ومبينا ضعف تأليفهم ، فيرى نفسه مدفوعا الى نشر ما عنده خشية الضياع ولكى تستفيد منه الاجيال بعده . ويحاول ابن ماجد أن يشعر القارىء بأن ما صنفه فى كتاب « الفوائد » قد نال استحسان معاصريه من أهل مهنته وعملوا به واعتمدوا عليه [٢٠] .

ويعد ابن ماجد على حق فى ذلك ، اذ أثار كتابه هذا ليس اعجاب معاصريه فحسب ، بل الكتاب المحدثين أيضا ، الذين عدوه ذروة ما الف فى مجال الملاحة والفلك ، وأول مؤلف للمرشدات البحرية الحديثة[٢١] .

وكتاب « الفوائد » مبوب الى اثنى عشر قسما يطلق المؤلف على كل منها أسم « فائدة » ، وتحتوى بعض هذه

الاقسام على معلومات قليلة غير انها مهمة عن شرق افريقيا يمكن حصرها بالآتى :

١ ـ في الفائدة الرابعة المخصصة للمنازل وورود الرياح وتسمى (الاخنان) المرتبطة بطلوع نجوم معينة ومغيبها ، يشير ابن ماجد الى (الاخنان) الخاصة بالساحل الافريقي التى يجب أن يعرفها ملاحو هذه المياه(٢٢) .

٢ ـ في الفائدة التاسعة التى تتعلق بدورة البحر على جميع الدنيا ، فيها وصف للسواحل، ومنها ساحل افريقيا الشرقي باقسامه المتعددة (بربرا الزنج ، سفاله ، وما بعدها) والمدن المنتشره على ساحله(٢٣) .

٣ ـ والفائدة التاسعة تهتم ايضا بوصف الجزر الكبار المشهورات والمعمورات حيث نجد ذكرا لبعض جزر شرق افريقيا ، كجزر القمر ، وجزيرة زنجبار(٢٤) .

٤ ـ اما الفائدة الحادية عشره التى يتناول الكلام فيها مواسم السفر في البحر ، نجدها تتضمن السفر الى شرق افريقيا(٢٥) .

وسوف نفصل فى قيمه هذه المعلومات وأهميتها فى الصفحات التالية :

أما المصنف الثاني الذي خصصه ابن ماجد عن شرق افريقيا ، فهو أرجوزته المسماه بـ (السفالية) ، نسبة الى منطقة سفالة فى ساحل افريقيا الشرقي . ان هذه التسمية تعكس لنا مدى اهمية شرق افريقيا عند ابن ماجد ، وان هذه الاهمية كانت حجر الزاوية فى العلاقات العربية الافريقية في الفترة التي عاشها ابن ماجد أيضا .

وتعد « السفالية » صورة كاملة للساحل الافريقى الشرقي ودليلا للملاحه فيه . وتنحصر أهميتها ، بالنسبة للموضوع ، في كونها تتضمن معلومات جغرافية وتاريخية ودلالات سياسية فى غاية الاهمية ، وذلك فضلا عن الجوانب الاساسية المختلفة للملاحه في مياه شرق افريقيا .

ويبين ابن ماجد فى سفاليته سبب تأليفه لها والموضوعات التى كتبت فيها واهميتها بقوله :

هى سبع ماية بيت تزيد عنها
عن احمد السعدى أحفظها
وادع لى في الموت والحياة
من الالة غافر الزلات
نظمتها ولم أر السؤال
كلا ولا رايت السائل
شتان بين السائل المجود .
وبين من لم للسؤال يهتدى
عرفتها حتى بقى ربانها
يسألنى عنها وعن شعبانها
وخصنى والى البلاد بالسفر
من دون غيرى بالهدى والظفر
لاشك ان من يرى بالعين
تركن اليه الناس باليقين
كفى بذا فى جودة السؤال
تصورت بالقلب بالكمال
شعبانها والبر والقياس
والريح والموسم ثم الناس

ثم المطارح ودخول الجـزر
حققت بالتدقيق اسم شور
واعبر لها بالحزم والصلاة
على النبى اتخذ وصاتى[٢٦]

فابن ماجد لم يؤلف سفاليته المتكونه من أكثر من سبعمائة بيت من الشعر ، الا بعد أن عرف شرق افريقيا وتخصص بالسفر الى تلك البلاد ، ونال الحظوة عند حكامها الى درجة أنه منح حق السفر اليها دون غيره لأنه اهتدى الى طرقها ونجح فى الوصول اليها دائما ، فكان ذلك سببا في لجوء الناس وربابنة السفن عن قناعة اليه يسألونه أن يصف لهم شرق افريقيا تاركين غيره من الذين يؤمون تلك البلاد . عرف ابن ماجد تلك المنطقة بالعين المجردة ، فكتب عن موضوعات متنوعة فى سفاليته ، فوصف بر تلك المنطقة وشعابها ، وقياسات ومواسم السفر والرياح التى يجب ان يسافر الناس فيها ، وناس تلك المنطقة، كما ذكر المطارح ودخول الجزر ولم يكتب ذلك كله الا بعد التحقيق الدقيق ، فحق له بعد ذلك أن يطلب ممن يقرأ قصيدته السفالية بأن يدعو له بالغفران .

أما الطريقة التى دون بها ابن ماجد معلوماته عن شرق افريقيا ، فقد اتصفت ـ كما يذكر هو نفسه فى (السفالية) ـ بالشمول ، والصدق ، وصحة المعلومات بسبب علمه الكبير بالمنطقة ومعرفته بها . كما سجل ما هو متفق عليه وما يلائم المسافر الى تلك المناطق ويهديه الى نهايتها . فابن ماجد بعد ذلك محق بأن يعتبر هذه (الارجوزة) الدليل الوحيد للطريق الى جنوب الساحل الافريقي الشرقي[٢٧] .

اما مصادر كتابته للسفالية فلا نجد لها ذكرا فى الارجوزة بصورة صريحة . ولكن كثيراً ما نجده يشير الى انه أخذ (عن ذوى التجارب)[٢٨] . ونقل (عن خابر قد جربه)[٢٩] ، (وقيل لى)[٣٠] . و (ممن يصدق هذا الخبر)[٣١] . فهو اذا لم يحدد مصادره ، وهذا يعنى أنه أخذ عمن سبقه فى المهنة من الملاحين ذوى التجارب والمعرفة .

كما أنه قرأ المرشدات البحرية ، ولكنه لم يعتمدها كمصدر من مصادر تدوينه للسفالية لانها عديمة الفائدة بعد تبدل الاسماء وتغيرها فى أيامه[٣٢] . كما انه أخذ بعض المعلومات عن الافرنج (يعني البرتغاليين) بعد وصولهم[٣٣] . اما المصادر المتعلقة بتجاربه الخاصة فلها مكان واسع فى سفاليته. حيث يسجل ابن ماجد مرات عديدة ان الظواهر والموضوعات التى يصفها قد رآها وخبرها بنفسه[٣٤] . فضلا عن تجاربه وخبرته الطويلة فى مهنته . حمل ابن ماجد ذلك كله في ذهنه عندما بدأ يكتب عن شرق افريقيا فكان ماكتبه فى مجموعه يمثل صورة كاملة للساحل الافريقي الشرقي . ويمكن أن نقسم مادونه عن تلك المنطقة الى قسمين الاول جغرافي وملاحي والثانى تاريخى .

معلومات ابن ماجد الجغرافية والملاحية عن شرق افريقيا :
١- المعلومات الجغرافية :

يعد الجانب الجغرافي الذي كتبه ابن ماجد عن شرق افريقيا مبنيا على المعلومات المأخوذة والمنقولة من الكتب الجغرافية الوسيطة للجغرافيين العرب فضلا عما عرفة عن جغرافية تلك المنطقة من خلال خبرته الشخصية .

قسم ابن ماجد الساحل الافريقي الشرقي الى اربعة أقسام :

بربرا ، والزنج ، وسفالة والمنطقة الرابعة ما يقع بعد سفالة من بلاد[٣٥] . وهو نفس التقسيم الذي اتبعة الجغرافيون العرب مثل المسعودى في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الحموى في كتابه « معجم البلدان » وابن سعيد في كتابه « الجغرافية » ، ولكن مما يثير الانتباه ان الجغرافيين العرب يطلقون على المنطقة الرابعة في تقسيم ساحل افريقيا الشرقي اسم (واق واق) بعدها ارض مجهولة غامضة لم يصلوا إليها[٣٦] . ولاترد التسمية عند ابن ماجد بهذه الصورة ، مما يشير الى عدم استعمالها في أيامه والسبب واضح في ذلك وهو وصول العرب المسلمين الى تلك المنطقة ، فلم تعد المناطق بعد سفالة مجهولة غامضة عندهم ، فقد ذكر ابن ماجد عددا من مدنها وجزرها منها مليونى ، وخور مومة ، وملاتى ،[٣٧] . وكلوانى ومن جزرها شربوه وجزيرة وازه وهي آخر ما وصله العرب في أيام ابن ماجد[٣٨] . وبهذا يكون ابن ماجد قد أضاف اضافة مهمة إلى معلومات الجغرافيين العرب الذين سبقوه بخاصة فيما يتعلق بتعريف المنطقة الرابعة وتقسيمها للساحل الافريقي الشرقي .

لا نجد في تحديد المناطق الثلاث المتبقية (بربرا ، والزنج ، وسفالة اختلافا واضحا بين ابن ماجد والجغرافيين العرب الذين سبقوه . فبلاد بربرا وخليجها (الخليج البربرى) تبدأ في أرض الحبشة وتنتهي ببلاد الزنج سواء عند ابن ماجد[٣٩] . أو عند من سبقوه[٤٠] . باستثناء أنه أضاف مزيدا من المعلومات عن هذه المنطقة حيث يذكر مدنها ، فبدايتها عنده بندر موسى وجردفون ثم نجد حافون باتجاه الجنوب[٤١] .

اما ارض الزنج ، فقد حددها الجغرافيون العرب بصورة دقيقه قبل ان يكتب ابن ماجد عن شرق افريقيا بعدة قرون ، وهى المنطقة الممتدة بين مدينة مقديشيو (في الصومال) الى بلاد سفالة[٤٢] . فقد قدر المسعودى مساحة هذه المنطقة بنحو سبعمائة فرسخ بما فيها الاودية والجبال والرمال[٤٣] أما ابن ماجد فقد أعطانا مزيدا من المعلومات عن مدن هذه المنطقة والشريط الساحلي المتكون من عدد كبير من الجزر اذ يتكلم عن مقديشيو وبراوة ومنبسه وكلوه . وعن

الجزر الكبيرة مثل رنجبار والعديد من الجـزر الصغيرة[٤٤] . وممـا يثير الدهشة ان ابن ماجد يضفي على منطقة الزنج الممتدة من مقديشيو الى سفالة أسم أرض الحبشة الجنوبية الشرقية[٤٥] . وهي تسمية لم ترد عند الجغرافيين العرب الذين سبقوه في وصف هذه المنطقة . ويبدو أنه أراد بهذه التسمية تحديد موقع المنطقة وكونها جزءا من أرض الحبشه .

أما سفالة ، القسم الثالث من الساحل الافريقي الشرقي ، فيسميها ابن مـاجـد سفـال وسفـاليـه وسفالة[٤٦] . وهي أرض الذهب عند من كتب قبله عن سفالة[٤٧] . وقد فصل ابن ماجد في ذكر موانئها وجزرها بشكل لم يسبقه إليه أحد .

وتتضح معلومـات ابن ماجـد الجغرافية عندما يصف مدن الساحل الافريقي الشرقي . فهو يحدد الموقع ، المسافات بين المدن ، طبيعة الارض والمياه فضلا عن حديثه أحيانا عن المـزروعات والحيـوانـات والثـروة المعدنية .

كذلك نجـده يصف جغرافيـة الشريط الساحلي المتكون من الجزر سواء أكانت كبيرة أم صغيرة .

وعندما يتكلم ابن ماجد عن مدن بلاد الزنج يبدأ بمقديشيو ، ثم ينتقل الى مدينة مركة وبراوة ، حيث نجده يقدر المسافة بينهما بيوم واحد ، فيقول :

لمـركـة ثـم الى بـراوة
تقطعها في يوم بالتلاوة[٤٨]

كما يشير الى شدة الحر في هذه المنطقة ، لاسيما قبل الدخول الى براوة ثم يسير ابن ماجد جنوبا الى مدينة كتاوة (باتا) ، حيث يصف الخور الطويل الذي تقع في بدايته وعلى الجهة اليمنى بالضبط ، والى اليسار من هذا الخور تقع مدينة لامو[٤٩] . والمعروف أن باتا (كتاوة) ولامو مدينتان من جزر أرخبيل لامو ومن الصعب الفصل بينهما ، فالاولى كانت العاصمة السياسية والثانية العاصمة التجارية في هذا الارخبيل[٥٠] ولذا نجد أن ابن ماجد قد أشار إلى الاثنين معا .

يسافر ابن ماجد بعد ذلك الى مالندى ويصف مالندى بأنها واقفة على رأس بحرى طـويل واضـح للمسافر[٥١] . والى الجنـوب منها مدينة منبسة الواقعة على ضفة خور كبير تدخلة المراكب ، ويصفها بأنها جزيرة قريبة جدا من البر[٥٢] . وهذا الوصف يطابق ما جاء عند من سبقه من الجغرافيين العرب[٥٣] . كما يشير الى احدى أهم مميزات منبسة وهي عمق البحر قربها وكفايته لحمل السفن للدخول الى مينائها[٥٤] ، هذا ما يؤكده الربان الفرنسي جيان الذي زار المنطقة بعد ابن ماجد[٥٥] .

ينتقل ابن ماجد بعد ذلك الى وصف مدينة من أهم مدن الساحل في أيامه وهي مدينة كلوة . وهنا نجده يسهب في وصف الجزر القريبة منها ، ويشير الى تميز هذه الجزر بوجود الاشجار العالية فيها[٥٦] . كما نجده يحذر

المسافرين من شعب كلوة ويطلب منهم مجاراته حتى يدخل البحر ومن هناك الى المدينة(٥٧) .

ومن كلوة الى بلاد سفالة ، حيث ينصح ابن ماجد بالسير بمحاذاة الشاطىء لأن طريق سفالة غير مأمون لاختلاف الريح فيه . كما يشير الى علو الماء فى مدخل منطقة سفالة ، ومن علامات الدخول الى خور هذه المنطقة وجود الاشجار(٥٨) .

ويشير ابن ماجد بصورة متكررة الى وجود الذهب فى سفالة ، ويحدد مناجمه فيقول بأنها تقع فى منطقة مياه (انهار) حيث يسكن هناك مجموعات من الناس الهمج ، كما يذكر كثرة الحيوانات المتوحشة من السباع والفيلة فيها(٥٩) .

ويذكر ابن ماجد أن الجزر الواقعة بعد مناطق سفالة مثل جزيرة شربونة تحتوى على العاج والعنبر(٦٠) . وأخيرا يصف المستنقعات والجبال الواقعة جنوب منطقة سفالة ، ويقول أن جزيرة وازة آخر ما وصل اليه العرب في سفراتهم ، أما بعدها فلا يعلمه الا الله ، حيث يدور البر الى الغرب .

ما يدهم سوى جزيرة وازة
ولا جنوبيها أحد قد جازه
درقاق اوساخ معها جبال
يعلمها ربي ذو الجلال
هو الذي تعرفه يا صاحب
والبر هناك يدور في المغارب(٦١)

ويبدو في هذه الابيات أن ابن ماجد لم يصل الى تلك المناطق الواقعة جنوب سفالة .

وتنال جزر شرق افريقيا اهتمام ابن ماجد فمن الجزر التي يذكرها جزيرة القمر وهي عنده تقع على يسار أرض سفالة لانجد فى يمينها أى برارى وجنوبها البحر بظلماته ممتد(٦٢) .

ويعد ابن ماجد جزيرة القمر من الجزر الكبار ، ومع ذلك لا يذكر مساحتها لاختلاف الآراء فى ذلك ، فيقول :

« واختلف الرواة فى طولها وعرضها ، لأنها مجنبة عن عمارة الدنيا وعن الاقاليم المسكونة فى الدنيا . فلذلك وقع فيها الاشتباه وقد ذكروا في الكتب الكبار أنها أعظم جزائر الارض المعمورة ، وطولها قريب عشرين درجة ، وبينها وبين بر سفالة وجزره جزائر وشعبان ، ومع كل ذلك لا يمنع المسافر أن يجوز بينهما وجزيرة القمر منسوبة لقامر بن عامر بن سام بن نوح عليه السلام .(٦٣) .

وهذه المرة الوحيدة التى يحاول فيها ابن ماجد ذكر الاساطير الخاصة بشرق افريقيا ، ويبدو من كلامه أنه غير مقتنع بها .

ومن الجزر التى جاء ذكرها في كتابات ابن ماجد (منفية) ، حيث يذكر انها جزيرة تمر بها المراكب قبل وصولها الى كلوة وهى مثلثة الشكل معمورة بالناس ويبدو أن ابن ماجد معجب بهذه الجزيرة على الرغم من صغرها ، فيقول عنها :

لمنفية نعم فيها جزيرة
مختصرة مثلثة معمورة(٦٤)

اما جزيرة واسينى ، الواقعة قرب مدينة منبسة ، فيبدو أنها تتصل بمستنقع ناحية الجنوب ، ولهذا

يخطىء ابن ماجد الزنوج من سكان المنطقة الذين يعتقدون ان المستنقعات تتصل بها من ناحية الشمال ، فيقول :

كذلك واسينى عليها وسخ
متصلا الى الجنوب يا خى
وقالت الزنوج أن منها
لكن في القلب فاحفظها
وذاك عندى خطأ يا صاح
اسمع لوصفى تلتقى الصلاح(٦٥)

ونظرا لوجود المستنقعات هذه يطلب ابن ماجد من المسافر فى هذه المنطقة ان يلتزم بالمجرى المعروف في سيره والذي يربط واسينى بزنجبار والواقعة جنوبها(٦٦) .

يتقدم ابن ماجد بعد ذلك جنوبها الى الجزيرة الخضراء ، واصفا للمسافرين الطريق المسلوك الذي يربطها مع جزيرة القمر جنوبها ، ويعد ابن ماجد الخضراء من الجزر الكبار في المنطقة(٦٧) ، كما يصف عددا من الجزر الصغيرة والمنتشرة بين واسينى وزنجبار منها (رأس الحمام) ، والمستنقعات الخفية التي يجب على المسافر تجنبها بالميل الى ناحية اليمين من أجل سلامته . ثم يذكر أن السفر من رأس الحمام ولمدة ليلة واحدة يوصل المركب الى جزيرة زنجبار(٦٨) .

وجزيرة زنجبار من الجزر التى تنال الحظوة في كتابات ابن ماجد إذ يعدها احدى الجزر الكبار في شرق افريقيا . فهو يقول :

فكل هذه الجزر كبار
اعني لك الخضرا وزنجبار(٦٩)

ويذكر ان حولها ما يربو على الست عشرة جزيرة من ناحية الغرب والجنوب وتكثر المستنقعات فيها بين هذه الجزر .

وحول زنجبار هجلةجزر
قريب ستة عشر أعلم وأدرى
وهي في الجنوب والمغارب
عن زنجبار برسخ يا صاحب(٧٠)

ويذكر من هذه الجزر الست عشرة ، جزيرة الكافر ورأس النيل وكوالة وجزيرة الشرفاء واسمها الزنجي كما ذكره ابن ماجد (ايكوها جوندة)(٧١) .

ويعطي ابن ماجد صفة العظمة لجزيرة زنجبار ويعدها مركزاً للحكم الاسلامي منذ وقت مبكر . ومازالت كذلك فى زمانه . فقد عد المساجد الجامعة فيها فوجدها أربعين مسجدا جامعا ، وهو يقول في ذلك :

وزنجبار جزيرة عظيمة
باربعين خطبة قديمة

ويقول عنها في الفوائد أيضا « ومنها أربعون خطبة ، يحكم عليها سلاطين الاسلام »(٧٢) . ويحفظ ابن ماجد عدة أسطر فى كتابه الفوائد ايضا لجزيرة زنجبار واصفا طبيعتها الجرافية ، من أنهار وأشجار ، ومناخ ، فيقول : « ممتدة على أرض الزنج وهي ذات أشجار وأنهار .. وهى جزيرة وخيمة »(٧٣) .

٢ ـ المعلومات الملاحية :

تشكل المعلومات الملاحية والفلكية عند ابن ماجد جزءا مهما في كتاباته عن شرق افريقيا فقد أعدها ملامح دائب السفر وأحد ربابنة السفن المشهورين في مياه تلك المنطقة ، وسنحاول أن نتناول شذرات متفرقة منها للتدليل على أهمية وضرورة هذه المعلومات للمسافرين والتجار من مناطق شرق افريقيا واليها .. ولندع ابن ماجد يفصل فيما ذكره من معلومات ملاحية وفلكية تخص شرق افريقيا ـ فهو يقول في مقدمة ارجوزته المعروفة « بالسفالية » والتى خصها لشرق افريقيا الآتى :

هذه الارجوزة المسماة بالسفالية ومعناها يقتطى معرفة المجارى والقياسات من نواحى الساحل والزنج وأرض السفال والقمر وجزره ونواد علوم جميع ما في تلك النواحي الى آخر الارض في الجنوب وذكرت قياسات يعرف بهم المعلم النقصان والزيادة في جميع الاخنان ووصف نوادر فى تلك الطريق من القياسات والدير والمجارى وسكان الارض وملوكها ومواسمها وسفرها على ما يليق بذلك المكان »[٧٤] .

وقال شعرا في السفالية ، يتضمن الموضوع نفسه :

ذكرت ما خليت منه مجرى
ان جزت فى عمرك هذا البحرا
تلقى بها قولى وحجة فعلى
لأنه علم كبير عقلى
وصح أن البر والقمر هنا
ثمانية أزوام ما بينهما
في آخر القمر في الجنوب
متفق عليه يا حبيبى
وجزر طير الرخ والقصار
من نسل آدم كن بذاك دارى
ثم الكور في القياس والدبر
أو شعب أو جزيرة بلا بشر
أو شدة الماء ومرسى ترسه
فالفحل من دبر فيه نفسه
دفق وحقق اذا أخذت منها
خلاص ياربان من صنفها
ثم تأمله بذى السفالية
تهديك فى الجنوب خذ عقاليه
لا غيرها فى هذه الطريق
نعم ، منها علم بالتحقيق[٧٥]

وهكذا يذكر ابن ماجد كل ما يحتاجه المسافر الى مناطق شرق افريقيا من أمور ملاحية وفلكية ، فهو يبدأ بتعريف القياسات التى يجب اتباعها فى تحديد المجرى الذي يتخذه المسافر فى مياه شرق افريقيا . كما يعطي أوصافا لطبيعة المجري من حيث عمقه أو ضحالة المياه فيه ثم بيان حركة المد والجزر والشعب والرؤوس والجبال والمنارات فى تلك المياه ، كما يفصل فى الدوامات واتجاه الرياح في ذلك الساحل في مختلف أوقات السنة التي تحدد مواسم السفر . وفي رأيه أن من يتبع تعليماته بدقه وتحقيق يصل الى اقصى مناطق شرق افريقيا بسلام[٧٦] .

ففي مواسم السفر الى شرق افريقيا ، يبدو من كلام ابن ماجد أن لكل منطقة من مناطق الساحل موسم

خاص للسفر اليه . وقد فصل في ذلك في « ارجوزته السفالية » فهناك موسم للسفر إلى مقديشيو وآخر الى كلوة وثالث الى سفالة وجزر القمر . وهذه المواسم تتفق مع مواسم الرياح وملاءمتها للسفر في البحر [٧٧] . ويرى ابن ماجد أن مواسم السفر تتحكم فيها حالات المد والجزر والامطار أيضا [٧٨] .

أما مسألة الكواكب (النجوم) التي تتحكم في تحديد الخروج أو عدمه الى بحر الشرق الافريقي ، فيفصل ابن ماجد فيها ويبين الاتجاه الذي يزيد أو ينقص معه تأثير هذا العامل . [٧٩]

ومن المرشدات البحرية التى يتعرض ابن ماجد الى ذكرها ، فضلا عن النجوم ، القاع الطينى والحشائش والنباتات وبعض أنواع الطيور والاسماك ، فمثلا من يرى طيور (القرعا والمنجي » وأسماك (البتان والبهلول) عليه أن يعرف أن بينه وبين بر الصومال مسير نحو ١٢ ساعة تقريبا بالشراع اذا كانت الريح مواتية [٨٠] .

وهكذا كان ابن ماجد الملاح يجمع الخبرة بعالم البحر والعلم بطرقه الملاحية البحرية وبالالتها والظواهر البحرية ، وقد سجلها فى مصنفاته ليفيد منها كل من ركب مياه شرق افريقيا .

معلومات ابن ماجد التاريخية عن شرق افريقيا :

تعد معلومات ابن ماجد التاريخية عن شرق افريقيا ، اقل قسم كتب فيه إذا قورنت بمعلوماته الجغرافية والملاحية . ولكن قيمة هذه المعلومات تكمن في كونها قائمة على مشاهداته الشخصية ، لذا يمكن استخدامها فى اثبات ونفي الاحداث التاريخية التي تتضمنها الكتب التاريخية والجغرافية التى اهتمت بالكتابة عن تلك المنطقة .

يشمل ما أورده ابن ماجد من معلومات تاريخية عن شرق افريقيا جوانب سياسية واقتصادية . ففي القسم السياسي تأتى معلوماته في سياق الحديث عن مدن وجزر تلك المنطقة حيث يشير الى الوضع السياسي فيها بين الحين والآخر .

وفي الوقت الذي لاتنال مدن ساحل منطقة (بربرا) منه سوى ذكر أسماء بعضها[٨١] . نجده يبدأ بذكر مدن (بلاد الزنج) مبتدئا بمقديشيو تلك المدينة التى بلغت أوج ازدهارها في القرنين ٧ و ٨هـ ١٣ و ١٤م ، ونالت اهتمام الكثير من الكتاب العرب .

ففي القرن ٧هـ / ١٣م يشير ابن سعيد أن مدينة مقديشيو أول أرض الزنج وهى « مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة الذكر على ألسن المسافرين »[٨٢] . اما ابن بطوطة في القرن ٨هـ / ١٤م فإنه يتكلم بصورة تفصيلية عن هذه المدينة ويعدها مركز الحكم العربى الاسلامي في المنطقة ويذكر أن العرب أقاموا فيها حكما قائما على الشورى[٨٣] .

اما ابن ماجد فلم ترد عنه أى من هــذه التفاصيــل عن مقديشيــو ، والسبب فى ذلك يعود لأن هذه المدينة كانت في أيامه قد فقدت اهميتها السياسة والتجارية معا ، حيث بدأ النفوذ العربى الاسلامى يمتد نحو الجنوب بصورة أكثر ، فحرمها من اهميتها كمركز سياسي وتجاري منذ منتصف القرن ٨هـ/ ١٤م . [٨٤] .

وكذلك الحال بالنسبة لمدن مركة وبراوة وكاوة ولامو .. الواقعة جنوب مقديشيو حيث لم يهتم ابن ماجد الا بالنواحى الجغرافية والملاحية التي تتعلق بها[٨٥] .

يسافر ابن ماجد بعد ذلك الى مدينة مالندى ، تلك المدينة الصغيرة التى لم تحظ باهتمام الكتاب العرب حتى القرن ٦هـ / ١٢م . حيث ذكرها الادريسى لاول مرة على انها مدينة من مدن الزنوج . المهمة[٨٦] . وقد أخذت هذه المدينة في الازدهار حتى بلغت مركزا مرموقا فى القرن ٩هـ / ١٥م ، الا أن ذلك الازدهار لم يؤهلهـا للسيطرة السياسيـة على منـاطق الساحل الافريقي الاخرى . واكتفت بمركزها التجاري في المنطقة ، ومن هذا المنطلق ، على ما يبدو ، اراد ابن مـاجد ان يشـد انتباه المسـافر اليها[٨٧] .

ينتقل ابن ماجد الى مدينة كلوة ، ويسميها كلوة الملوك ويعدها مقرا لحكام كثير من مناطق الساحـل الافريقي على أيامه ، ترد كلوة في ارجوزة ابن ماجـد (السفاليـة) بصورة متكررة ، مؤكدا في ذلك على سيطرة هذه المدينة على كثير من مدن الساحل مثل منبسه وسفالة الواقعة جنوبها وزنجبار وما فيا الواقعـة شمالها[٨٨] . بلغت مدينة كلوة منذ القرن ٦هـ / ١٢م درجة كبيرة من السطوة والنفوذ . وقد منحها موقعها المتوسط فى ساحل افريقيا الشرقي قوة سياسية في المنطقة ، فاستحوذت عليهـا بالقـوة تارة وبـالسياسـة والمصاهرة تارة أخرى ، ولم تفقد نفوذها الا بعد مجيء البرتغاليين الى المنطقة[٨٩] .

أما منطقة مناجم الذهب فى سفالة فيبدو أنها كانت مستقلة بنفسها وليس لاحد سيادة عليها ، ولها ملك خـاص بها يسميـة ابن مـاجـد (الزنباوى) ويقول أن مركز حكمه في مدينة (خور كوامه) ، والناس الذين يحكمهم ملك هذه المنطقة ما زالوا كفاراً .[٩٠] .

كتب ابن ماجد عن مدن شرق افريقيا بصورة متفرقة دون أن يحاول الربط بينها ، وهو بهذا يؤكد ما نعرفه عن الـوضـع السيـاسي للسـاحـل الافريقي الشرقي ، حيث أن العرب لم يستطيعوا ان يكونوا دولة واحدة قوية تجمعهم في تلك المنطقة ، بل كونوا امارات مستقلة عن بعضها البعض ، وان كان قسم من تلك الامارات قد فرض سيادة واسعة على المنطقة اجمعها[٩١] . اما ايام ابن ماجد فقد كان لكلوة دور السيادة على مناطق

الساحل شمالها وجنوبها ، كما أشرنا .

والشيء الذي يثير الدهشة ان ابن ماجد لم يشر الى الخلافات التى كانت قائمة بين بعض مشايخ الامارة فى هذا الساحل والتى أدت الى اخفاقها ، اذ كانت المنافسات على أشدها فيما بينهم من أجل توسيع مناطق نفوذهم على حساب البعض من جهة ، والسيطرة على مناطق الذهب فى سفالة الغنية من جهة أخرى ، وإنما اكتفى بذكر سيطرة كلوة على الساحل بما فيه سفالة(٩٢) .

وهناك ناحيه مهمة تخص الوضع السياسي للعرب فى منطقة شرق افريقيا قبل ابن ماجد وفي أيامه فالامارات العربية التى نشأت فى تلك المنطقة لم تتعمق الى الداخل لتفرض سيطرتها السياسية والحضارية ، وانما اكتفت باقامة علاقات تخدم مصالحها التجارية بشكل يؤمن لها وصول منتجات الداخل من ذهب وعاج وغيرهما(٩٣) .

وهذا الوضع يفسر لنا لماذا لم يكتب ابن ماجد الا عن مدن الساحل ولم يحاول أن يتعمق فى داخل شرق افريقيا ، بل نجده يشير صراحة الى أن مناطق العمق في المنطقة ما تزال مواطن الهمج والكفار لعدم وصول العرب المسلمين اليها(٩٤) .

أما أهم معلومة تاريخية وصلتنا عن ابن ماجد ، فهى تسجيله لدخول البرتغاليين الى شرق افريقيا ، وقد كان فيها شاهد عيان .

ان ارجوزة ابن ماجد (السفالية) هي الوحيدة التى جاء فيها ذكر الافرنج (يقصد البرتغاليين) ، حيث ورد أسمهم ١٤ مرة ، وجاء ذلك لاول مرة عند وصف الرياح الموسمية التى تهب على الشاطىء الشرقي لافريقيا لمنطقة كلوة ، وعدم معرفتهم بمواعيد هبوب هذه الرياح مما ادى الى الحاق الكوارث بسفنهم وهو يقول :

زلوا بها الافرنج علق الموسم
في عند ميكال بالتوهم
قام عليهم موج تلك الروس
في سفالة بقى معكوس
وانقلبت أدفالهم في الماء
والسفن فوق الما يا خائى
غرقا يرون بعضهم لبعض
وكن عارفا موسم تلك الارض(٩٥)

ويسجل لنا ابن ماجد ان الذي دفع الافرنج الى المجيء الى شرق افريقيا هو الطمع حيث كان هدفهم السيطرة على ما هو موجود فيها من معادن ، لاسيما في منطقة سفالة من ذهب ونحاس وفضه(٩٦) . وقد اشار ابن ماجد الى أن سفن الافرنج أبحرت بحذاء ساحل سفالة فى عام ٩٠٠هـ/١٤٩٥م وهى في طريقها الى الهند ، وبعد أن ظلت سنتين عادت هذه السفن الى شاطىء افريقيا الشرقي ، فيقول :

جارتها فى عام تسعماية
مراكب الافرنج يا خاية
تعبير عامين كاملين
فيها ومالوا الهند باليقين

من حاول (السين يخاف مالا
ما يرتجي والا ترك الا مالا
ورجعوا من هندهم للزنج
في هذه الطريق الافرنج[٩٧]

واذا كانت اخبار ابن ماجد عن وصول البرتغاليين الى شرق افريقيا قد اتسمت في البداية بوصف هذا الوصول دون تعليق ، فاننا نجد أن ابن ماجد سرعان ما شاهد واقع الاستعمار البرتغالي بنظامه الدخيل على المحيط الهندي الذي أساء الى الملاحة العربية[٩٨] . وعرف عن كتب غزوهم للساحل الافريقي الشرقي وجزره ابتداءً من المناطق الواقعة جنوب سفالة وامتلاكهم لها ، حيث يقول :

وسعدنا على الجنوب تأتي
جزر « شربوه » وهم ثلاث
ثلاثة مجربة محررة
عمن رآها من قبل مخبرة
وخشب الافرنج قد جاؤوها
وملكوها بعد أن حازوها
وما من بعدهم سوى جزيرة وازة
ولا جنوبيها أحد قد جازة[٩٩]

يظهر أن ابن ماجد مثل غيره ممن شهد وصول البرتغاليين لشرق افريقيا . لم يقدر أبعاد هذا الوصول . بل الأنكى من ذلك أن بعض سكان شرق افريقيا كانوا ظنوا أن البرتغاليين من المسلمين جاءوا من الغرب فقدموا المساعدة كما كانوا يفعلون مع المسلمين دائماً لمعرفتهم بأهدافهم ونواياهم تجاه المنطقة ولكن سرعان ما اتضحت الحقيقة للجميع بما فيهم أحمد بن ماجد نفسه . ولذا فقد اعتبر السيطرة على مناطق المحيط الهندي حالة حرب ، وتمنى لو أن الله أطال في عمره ليشهد (زمان الصلح) حتى يمكن أن يحقق آماله وأحلامه[١٠٠] .

لأنهم لم يتركوا هذا الطرف
فسوف علمهم لديك تعرف
ان طالت الأيام والليالي
فإنها تسفن على الزوال
لو كنت أحيا لزمان الصلح
كتبت علما يستحق المدح[١٠١] .

وهكذا فان أحلام ابن ماجد وآماله كانت في التخلص من السيطرة البرتغالية التي فرضت نفسها على الساحل الافريقي الشرقي بالقوة .

تعد معلومات ابن ماجد عن وصول البرتغاليين الى شرق افريقيا وسيطرتهم عليه مادة تاريخية ذات قيمة كبيرة لأنه شهد الأحداث بعينيه . فهو مصدر معاصر لا غنى للباحث عنه في تاريخ شرق افريقيا للقرن السادس عشر .

أما معلومات ابن ماجد الاقتصادية ، فعلى الرغم من قلتها فانها تفيدنا في رسم معالم النشاط التجاري الذي شهدته مناطق الشرق الافريقي . والذي اقترن بوصول العرب الى تلك المناطق . فقد كان العرب وحتى القرن ١٠ هـ/ ١٦م سادة المحيط الهندي والمتحكمين في تجارته . وقد نشطت تجارتهم في شرق افريقيا من أجل الحصول على

منتجاتها وحملها الى مراكز الاستهلاك ، وكانت أهم هذه المنتجات الذهب والفضة والعاج والحديد والعنبر وغيرها .

ان اهتمام العرب بتجارة الذهب في شرق افريقيا قد بلغت ذروتها في نهاية القرن ٩ هـ/ ١٥م وبداية القرن ١٠ هـ/ ١٦م(١٠٢) . ولذا يؤكد ابن ماجد ولمرات عديدة على منطقة سفالة حيث مناجم الذهب فيصف الطريق الملاحي التجاري الذي يؤدي اليها ابتداءً من الخليج العربي والجزيرة العربية ، مفصلاً في كل مرحلة من مراحله ، مبيناً للمسافر الموانىء والمدن الموجودة على طوله ، موضحاً مخاطر هذا الطريق ومصاعبه والأسس التي يجب مراعاتها في السير في مياه شرق أفريقيا وصولاً الى سفالة(١٠٣) .

تنال منطقة سفالة ، حيث معادن الذهب ، الحظوة في كتابات ابن ماجد كما أشرنا ، فقد وضح حدودها وأسماء مدنها وموانئها ، واصفاً بدقة مناجم الذهب في سفالة والتي تقع على مسيرة شهر من مدينة سفالة باتجاه الغرب من مناطق مغمورة بالمياه (الأنهار) ، وهذه المناجم هي امتداد لمناجم الذهب في النوبه . ويقدر ابن ماجد مساحة منجم ذهب سفالة بمسيرة سبعة أيام ، فهو يقول في ذلك :

مع هؤلاء المكين السفالى
ومعدن النوبه لهم يوالي
يتصلوا ببعضهم البعض
وبينهم البحر وحل بارض
راضي على البحر من المغارب
خبرني عنهم ذوي التجارب
مسيرة يا أخي سبعة أيام
يجون بالبشاشات يا همام(١٠٤)

وينظرون لبلوغ الكفرة
بل في بحر العرب فذا المخبرة

ومن السلع التجارية التي يذكر ابن ماجد المسافرين الى شرق افريقيا بهاهي العاج والعنبر .

والمعروف ان هذه السلع متوفرة في عدة مناطق من شرق افريقيا ، ولكن ابن ماجد أراد التعرف بها حيث يذكر منها « ملنبوني » (ميناء بين كلوة وسفالة) ، جزيرة « شربوه » جنوب سفالة ، فيقول :

منها على القطب ملنبوني ترى
لمعدن الرجون ثم العنبرا(١٠٥)
وبعدها على الجنوب تأتي
جزيرة (شربوه) وهم ثلاث
أحمرهم يا صاحبي وشيكا
والعاج والعنبر فيها يديكا(١٠٦)

كما يشير ابن ماجد الى كثرة الحيوانات من السباع والفيلة في المناطق الواقعة جنوب سفالة ، ولعل هذه تذكرة للراغبين في الحصول على العاج والجلود(١٠٧) .

ويذكر ابن ماجد زوار المنطقة دائماً بالمراكز التجارية المهمة فيها ، فمثلاً يشير الى أن منبسه مركز تجاري غني .

فادخل « هنيث » بمسرات السفر
المنبسة فيها المبيع والظفر(١٠٨) .

والـواقع ، كمـا يستوحي من اشارات ابن ماجد ، ان الجزر الواقعة في منطقة سفالة ، مراكز مهمة للبيع والشراء عامرة بالحركة[١٠٩] .

ترتب على النشاط التجاري الذي شهده شرق افريقيا على يد العرب ان ارتبطت هذه المنطقة عبر طرق التجارة البحرية بالخليج العـربي والشرق الأقصى (الهند والصين) ، وهذا ما أشار اليه ابن ماجد حيث وصف هذه الطرق في (سفـاليته) ومن المعلومات الحضارية التي يؤكد عليها ابن ماجد انتشار الاسلام الواسع في شرق افريقيا ، ففي جزيرة زنجبار ـ مركز الحكم الاسلامي المبكر ـ يذكر بأن هناك ٤٠ مسجداً جامعاً منتشراً في أنحائها[١١٠] .

ويؤكد ابن ماجد في هذا المجال الحقيقة المعروفة وهي وصول الاسلام والحضارة العربية الاسلامية حيث المناطق التي وصلها العرب المسلمون في شرق افريقيا بينما ظلت المناطق الأخرى مواطن للكفار والهمج ، ومنها البلاد الواقعة جنوب سفالة[١١] . كما نجد أن بعض المناطق ، لاسيما بين كلوة وسفالة ، قد انتشر الاسلام بين سكانها على الرغم من بقاء حكامها على كفرهم[١١٢] .

لا يكاد يوجد لدينا بين معلومات ابن ماجد عن شرق افريقيا شيء عن طبقـات المجتمـع او عن الحيـاة الاجتماعية ، التي لابد أنه عرفها عن كثب ولمسها شخصياً في رحلاته ، ولكن نستطيع أن نستشف من كتاباته أن المدن والامارات العربية في شرق افريقيا قد ضمت العرب والافارقة . وهذه حقيقة واقعة ، حيث ان العرب توافدوا الى هذه المنطقة واختلطوا بسكانها من الافارقة وأصبحت مدنهم واماراتهم التي أنشأوها في شرق افريقيا تحمل في نظمها وتقاليدها أصولاً عربية وافريقية ، خاصة بعد التقارب والتمازج الذي حصل بين العرب وسكان المنطقة[١١٣] .

لم يشر ابن ماجد الى شيء من هذا ، فلا نسمع منه شيئاً عن الشعب السواحيلي الذي هو نتاج التمازج بين العرب والافارقة واللغة السواحيلية التي هي مزيج من العربية واللهجات الافريقية . كما لم يذكر ابن ماجد ، مـع الأسف ، شيئاً عن مظـاهر الحضارة العربية الاسلامية التي نقلها العرب الى شرق افريقيا والتي شهـد بهـا حتى المستعمـريـن الأوروبيين[١١٤] .

ان بيانات ابن ماجد الخاصة بالوضع السياسي والاقتصادي في شرق افريقيا والقائمة على مشاهداته الشخصية من خلال زياراته لموانىء المنطقة وجزرها تجعلنا نعد ما كتبه ابن ماجد مصدراً مهماً في تدوين تاريخ شرق افريقيا . وحق عـلى مؤرخينا أن يولوا كتاباته مزيداً من الاهتمام.

د. صباح ابراهيم الشيخلي
جامعة بغداد ـ كلية الآداب

الهوامش:

١ - عبدالرحمن عبدالكريم العاني ، دور العمانيين في الملاحة والتجارة الاسلامية القرن الرابع الهجرى (سلطنة عمان ، ١٩٨١) ص ١٩ . ٣٢ - ٣ .
٢ - أبو الحسن على بن الحسين المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد (القاهرة ، ط ٣ : ١٩٥٨) ج ١ ١٠٧ - ٨ .
٣ - المصدر نفسه .
٤ - شوقي الجمل دور العرب الحضارى في شرق أفريقيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ندوة العلاقات بين الخليج وشرق أفريقيا ، راس الخيمة ، ١٩٨٧ ، ص ١١ انظر ايضاً R.cupland,East Africa and its invaders (London,1934) b.21 .
٥ - عبدالرحمن العاني ، عمان في العصور الاسلامية الاولى (بغداد ١٩٧٧) . ص ٨٨ ، عامر محمد المجرى ، تاريخ العلاقات العمانية - الافريقية ، بداية التواجد العمانى في شرق أفريقيا ، البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية (الدوحة ، قطر ، ١٩٧٦) ج ٢ ص ص ٧٧٦ - ٠٧٧ .
٦ - أحمد حمود المعمرى ، عمان وشرقي أفريقيا ، ترجمة محمد أمين عبدالله (سلطنة عمان ، ١٩٨٠) ص ٠٤٤ .
٧ - عبدالرحمن زكي ، الاسلام والمسلمون في أفريقيا (القاهرة ، ١٩٧٠ ج ١ ص ٧٧ - ١١٩ ، المجرى - المصدر السابق ص ٠٧٧٧ .
٨ - خولة شاكر الدجيلى ، العلاقات العربية الاسلامية مع الساحل الافريقي الشرقي حتى القرن التاسع الهجرى ، اطروحة دكتوراة غير منشوره (جامعة بغداد ، كلية الاداب ، ١٩٨٠) ٧٨ - ٠٨١ .
٩ - أحمد بن ماجد النجدى ، كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد تحقيق ابراهيم خورى وعزة حسن (دمشق ، ١٩٧١) ص ٠١٠
١٠ - اغناطيوس كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (القاهرة ، ١٩٦٥ ، ج ٢ ص ٥٧٣ .

١١ ـ أنور عبدالعليم ، ابن ماجد الملاح (القاهرة ١٩٦٧) ص ١٣ ، كراتشوفسكي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧٣ .
١٢ ـ بن ماجد ، كتاب الفوائد ، ص ٣ .
١٣ ـ أحمد محمد عطية ، المعلم والاستاذ والشاعر والفلكي والملاح ورائد علم المرشدات البحرية ، الوثيقة ، العدد ٢ ، السنة الأولى (١٩٨٣) ص ١٥٨ .
١٤ ـ أحمد بن ماجد ، ثلاث أزهار في معرفة البحار ، تحقيق ثيودور شومونسكى ، ترجمة محمد منير مرسى (القاهرة ، ١٩٦٩) ، ص ١١ ، ٤٢ ، ١٢٣ .
١٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤ ، ٢٣٥ .
١٦ ـ اطلع ابن ماجد على كثير من المؤلفات الجغرافية التاريخية للمسعودي وابن حوقل وابي الفدا وغيرهم . المصدر نفسه ص ١٠٠ ، ص ١٧١ .
١٧ ـ ابن ماجد ، كتاب الفوائد ، ص ٣ .
١٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٧ (المقدمة) . ثلاث أزهار ، ص ٥١ .
١٩ ـ الفوائد ، ص ١٨ .
٢٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨ .
٢١ ـ كراتشوفسكي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧٧ .
٢٢ ـ ابن ماجد ، الفوائد ص ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .
٢٣ ـ المصدر نفسه ، ص ص ٢٦٩ ـ ٧١ ، ٢٧٢ .
٢٤ ـ المصدر نفسه ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ .
٢٥ ـ المصدر نفسه ، ص ص ٣٢٨ ـ ٣٣٤ .
٢٦ ـ ابن ماجد ، ثلاث أزهار ، ص ٥١ .
٢٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٥١ .
٢٨ ـ المصدر نفسه ، ص ص ٣٢ ـ ٤١ ـ ٤٤ .
٢٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٢ .
٣٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٧ .
٣١ ـ المصدر نفسه ص ٤٩ .
٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٨ .
٣٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٢ .
٣٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٨٩ ، ٢٠ ، ٢٣ .
٣٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٧ ـ ١٨ . ابن ماجد ، الفوائد ، ص ص ٢٧٢ ـ ٣
٣٦ ـ المسعودى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦ .
٣٧ ـ ابن ماجد ، ثلاث أزهار ، ص ٤٤ .
٣٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
٣٩ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢ .
٤٠ ـ المسعودى المصدر السابق ج ١ ص ١٠٧ ياقوت الحموى معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦) ج ٢ ص ١٠٦ ابن سعيد المغربى كتاب الجغرافية تحقيق

اسماعيل العربي (بيروت ١٩٧٠) ص ٨٢ .
٤١ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢ .
٤٢ ـ المسعودى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦ ، الحموى ، ج ٥ ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ، زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر بيروت ١٩٦٠) ص ٦٢ .
٤٣ ـ مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦ .
٤٤ ـ انظر الصفحات التالية :
٤٥ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤١ .
٤٦ ـ المصدر نفسه ، ص ١٧ ، ٢٧ ، ٤١ الفوائد ٢٧٢ .
٤٧ ـ ثلاث أزهار ، ص ٤٤ ، المسعودى ، ج ١ ص ١٠٧ ، ابو عبدالله بن محمد الادريسي نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نسخة مصورة بالفوتستات عن نسخة البودلاين اكسفورد ، مخطوطة محفوظة في مكتبة المجمع العلمى العراقي (رقم ١٥ ـ جغرافية) ورقة ٧٠ .
٤٨ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٧ .
٤٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٩ .
٥٠ ـ الدجيلى ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .
٥١ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٩ .
٥٢ ـ المصدر نفسه .
٥٣ ـ الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .
٥٤ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٣٠ .
٥٥ ـ المسيوجان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقيا الشرقية ، ترجمة يوسف كمال (القاهرة ، ١٩٢٧ ، ص ٢٢٤ .
٥٦ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٣٦ .
٥٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٧ .
٥٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٩ .
٥٩ ـ المصدر نفسه ، ٤٤ .
٦٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥ .
٦١ ـ المصدر نفسه ، ص ص ٤٤ ـ ٥ .
٦٢ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢ .
٦٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .
٦٤ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٣٥ .
٦٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٣١ .
٦٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٣١ ـ ١٢٧ .
٦٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٣١ ـ ٣٢ .
٦٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٣١ .

٦٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
٧٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
٧١ ـ المصدر نفسه ص ص ٣٣ ـ ٤ .
٧٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
٧٣ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٢٩ .
٧٤ ـ المصدر نفسه .
٧٥ ـ ابن ماجد ،ثلاث ازهار ، ص ١٧ .
٧٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٥١ .
٧٧ ـ المصدر نفسه ص ٤٠ ، ٥٠ ، ٥١ .
٧٨ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٣٢٨ .
٧٩ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازدهار ص ص ١٨ ـ ١٩ وما بعدها . كما ذكر ابن ماجد معلومات مفصلة عن المنازل الفلكية والنجوم الملاحية التي يهتدى بها الربان في كتابة الفوائد في الفائدة الثالثة والفائدة الرابعة ، ص ص ٣١ ـ ١٧٨ .
٨٠ ـ الفوائد ، ص ٢٥٠ .
٨١ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .
٨٢ ـ ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .
٨٣ ـ محمد بن عبدالله اللواتي المشهور بابن بطوطه ، رحلة ابن بطوطه (بيروت١٩٧٩) ، ج ١ ص ٢٨٢ .
٨٤ ـ Durate Barbosa, The book of Durate Barbosa: an account of the countries bordering on the Indian Ocean and their inhabitants completed about the year 1518 A.D, translated from the Portuguese text by M.L. Dames Vol-1 (LONDON, HAK. Soc. 1918) No. 1.P.31.
٨٥ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٧ .
٨٦ ـ الادريسى ، المصدر السابق ، ص ٣١ .
٨٧ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٩ .
٨٨ ـ الجمل ، المصدر السابق ، ص ١٨ .
٨٩ ـ جيان ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .
٩٠ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤٢ .
٩١ ـ الجمل المصدر السابق ، ص ١٨ .
٩٢ ـ جيان المصدر السابق ، ٢٤٦ .
٩٣ ـ الجمل . المصدر السابق ، ص ١٨ .
٩٤ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ص ٤١ ـ ٢٠٠ .
٩٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٠ .
٩٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

٩٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥ .
٩٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٨ .
٩٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
١٠٠ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .
١٠١ـ المصدر نفسه ، ص ٤٨ .
١٠٢ـ الجمل ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .
١٠٣ـ انظر ما ذكرناه سابقا .
١٠٤ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤٢ .
١٠٥ـ المصدر نفسه ، ص ٣٨ .
١٠٦ـ المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
١٠٧ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥ .
١٠٨ـ المصدر نفسه ، ص ٣٠ .
١٠٩ـ المصدر نفسه ، ص ٤٩ .
١١٠ـ ابن ماجد ، الفوائد ،ص ٢٢٩ .
١١١ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ص ٤١ ـ ٢ .
١١٢ـ المصدر نفسه ، ص ٣٨ .
١١٣ـ هذا ما اشار اليه الكتاب العرب قبل ابن ماجد . انظر ابن بطوطة ، رحلة ج ١ ص ٢٨١ ، ٢٨٣ . واشار الكتاب البرتغاليون الى ذلك ايضا انظر ، الجمل المصدر السابق ، ص ٤٢ .
١١٤ـ الجمل ، المصدر السابق ، ص ١٧ .

والادريسي (١١٠٠م) ومحمد عوفي (١٢١١م)[٧] .

وتفيد كتاباتهم أن العرب كانوا مستقرين بأحسن وجه في «أنهل وادباتان» عاصمة حكام سولانكي في الفترة بين ٩٤٢م و١٣٠٠م . وكانت لهم مستوطنة واسعة وفيها مسجد جميل ومستوطنتان مماثلتان في كل من «بروش» وكامبى» ومن القرن العاشر الى القرن الخامس عشر كانت كامبى» ميناء رئيسيا وكان من منتجاتها المانجو وجوز الهند والليمون والارز والعسل كما كان من صناعاتها الصناعات الجلدية وقامت كامبى بتصدير الأحذية والمصنوعات الجلدية الاخرى الى كل من مخا وعدن وجده . وكان من بين صادراتها الأخرى النيلة والشمع الأحمر والشعير الهندى واساور العاج والقمح والارز والعقيق والسكر . وكان من بين وارداتها من الموانيء الخليجية الخيول والنحاس والزئبق والزعفران وماء الورد والحرير والتمور والمرجان واللؤلؤ والمخمل[٨] .

وكانت قوة كجرات تكمن في منتجاتها الزراعية كالمنسوجات القطنية والنيلة والسكر . ويقول عبدالله وصاف (١٢٣٨م) «ان الأرض في كجرات قوية لدرجة ان شجيرة القطن تنتشر اغصانها مثل الصفصاف او البلانيرة المائية وتؤتى ثمارها لسنوات عديدة»[٩] .

وحسب أقوال الجغرافي المصرى ابوالعباس النويرى (ت ١٣٣٢م) كانت المنسوجات البروشية مشهورة باسم «بروج» او«بروجى» والمنسوجات من صناعة كامبى اشتهرت باسم «كامبايانى» وكان هذان الصنفان يدعيان «باروج» و«كامبايانى» على أساس انهما صنعا في هاتين المدينتين[١٠] .

ولقيت هذه الملاحظات مزيداً من التأكد بما ورد في مخطوطات منقوشة على أوراق النخل (مكتوبة باللغة البراكريتية) التى اكتشفت اخيرا في الارشيفات الجينية في كامبى . واسم المخطوطة هو «سود انشاناشاريام» وتحمل التاريخ السموت «نظام هندى» ١٢٤٤ المطابق ١١٨٨م واسم الكاتب مجهول لكن المخطوطة تقول ان كجرات قامت بتصدير المنسوجات القطنية والحريرية وجوز التانبول وجوز الهند وصناعات العاج والعود الى البلدان الإسلامية وتشير المخطوطة الى المسلمين باسم «مليشا» ونظراً لانه تم العثور على المخطوطة حديثا فإنها لا تزال تحت الدراسة[١١] ويقول المؤلف «هيماشاندراشاريا» (١٠٨٩ ـ ١١٧٣م) وهو عالم ونحوى بارز من طائفة «الجين» في كتابة «داواشرايا مهاكافيا» ان كلا من «سدراج جاياسنها» (١٠٩٤ ـ ١١٤٣م) و«كوماربال» ((١١٤٤ ـ ١١٧٣)م من الحكام السولانكى قد شجعا النساجين من

«باتولا» في راجستان على الهجرة الى كجرات(١٢) ويشير الكتاب «فارناك سموشايا» الى الصناع المهرة كالنساجين والصباغين والطباعين مما يؤكد تطور صناعة المنسوجات في كجرات ووصولها الى مستوى عال جداً ويشير نفس المصدر الى التنوع في انتاج المنسوجات(١٣) وكانت رقتها موضع تقدير لدى سليمان السيرافي الذي يقول بان هذه الانواع كانت مقبولة عند الجماهير في البلدان العربية(١٤).

ومن المحتمل انه يشير الى صنف «الباتولا» من القماش الذى كان انتاجه يتطلب مهارة فائقة ويقول الكاتب «فارتيما» (١٥٠٢م ـ ١٥٠٨م) ان ولاية كجرات قامت بتصدير أنواع مختلفة من القماش الى البلدان العربية(١٥) وقد أورد الراهب الجيني الشهير «لافانياساامايا» الذى الف كتاب «فيمال براباندا» في أواخر القرن السادس عشر ان الأسواق في مدينة «انهل وادباتان» كانت مليئة بالمصنوعات القطنية والمنسوجات في القرنين الحادى عشر والثانى عشر. ويضيف الكاتب قائلاً بان المدينة كان فيها عدد كبير من الصرافين والسماسرة وكان «فيمال» تاجراً كبيراً وكان على علاقة ودية مع حاكم السولانكى «بيم ديو الأول» (١٠٢٢ ـ ١٠٧٢م) وكان يوجه دعوات ليس للتجار الهنود من ولايات أخرى فحسب بل للتجار من بلدان خارجية أيضاً من اجل تطوير كجرات ومدينة باتان تجاريا وإقتصاديا ولا يستخدم «لافانياساامايا» كلمة «العرب» بالذات وانما يستخدم كلمة عامة هى «يافانا» والمراد من كلمة «يافانا» كل من كان يعتنق الإسلام وعلى كل حال فإن حكام «السولانكى» كانوا حريصين على ان يستوطن المسلمون من الخارج موانىء كجرات(١٦) وعلى الرغم من ان المصدر الكجراتى المذكور آنفا يستخدم مصطلحات عامة للإشارة الى المسلمين فان باربوسا الذى زار كجرات والهند بين ١٥٠٠م و١٥١٧م وضع نقاطاً على الحروف وأشار الى المسلمين من مملكة «كامبايا» باسم الاتراك والمماليك والعرب والفرس وكانوا ينطقون بلغات شتى بما فيها اللغات العربية والكجراتية والتركية. ويشترون التوابل والعقاقير والحرير الخ ويقومون بتصديرها للسويس عن طريق جده، ميناء مكة وقد نقلت هذه البضائع من جدة بواسطة مراكب صغيرة ومن ثم على ظهور الجمال عبر البر الى القاهرة ومن القاهرة نقلها التجار الآخرون الى الاسكندرية ويستطرد باربوسا» قائلاً تأتى السفن من كافة الموانىء الى ميناء عدن خاصة من ميناء جدة حيث تنقل اليه النحاس والزئبق والقرمز والمرجان والصوف والحرير ويؤخذ العشر على البضائع عند عودتها وتتكون من

التوابل والعقاقير والمنسوجات القطنية والصناعات الأخرى التى تحملها لملكة «كامبايا»[١٧].

وانتجت كجرات خام السكر والدبس وقامت بتصديرهما للبلدان العربية . ويذكر الكتاب «فارناك ساموشايا» تسعة أنواع من الدبس و١٤ نوعاً من السكر المصنوع من قصب السكر وكان الجهاز الذى يستخدم لسحق قصب السكر يدعى «كولهو»[١٨] .

وكانت النيلة المنتجة في كجرات مقبولة في البلاد الخارجية وكانت تزرع في كامبي ولاحقا في ساركيج بالقرب من أحمد آباد ويشير «ماركوبولو» (القرن الثالث عشر) الى كثرة النيلة في كجرات وتصديرها الى الموانىء الخليجية[١٩] ويذكر هيم شاندراشاريا (١٠٨٩ - ١١٧٣م) مادة النيلة بصفة خاصة[٢٠] الا ان المصادر الكجراتية لم تورد وصفاً لصناعة النيلة في الفترة التى يغطيها هذا البحث ونظراً لأنه لم يطرأ اى تغيير رئيسى في الأساليب الفنية الإنتاجية بين القرن الثانى عشر والسابع عشر يمكننا من ان نثق بما ورد في كتابات تاجرفرنسى جين بابتستا تافرنيير في منتصف القرن السابع عشر في هذا الموضوع يقول الكاتب في وصفه انتاج هذه المادة في مدينة«ساركيج» الهندية :

تؤخذ النيلة من شجيرة تزرع سنويا بعد الأمطار وقبل تصنيعها تشبه الكتان الى حد كبير وبعد قطعها يرميها الهنود في أحواض الجير (الكلس) كى تصبح صلبة كأنها كتلة واحدة من المرمر ويبلغ محيط الحوض من ٨٠ الى ١٠٠ قدم وترمى الشجيرات المقطوعة فيه وهو ملىء بالماء الى نصفه او اكثر ثم يخلطها الهنود ويحركونها حتى تصبح الأوراق كالطين ، ويترك الخليط لبضعة أيام حتى ترسب المادة الى الاسفل ويبقى الماء الصافى في الاعلى ، وتفتح ثقوب في الحوض لاخراج الماء وتملأ السلال بعد ذلك بمادة لاصقة وكل صاحب سلة يأخذ العجينة اللاصقة في يده ويجعل منها قطعاً صغيرة في حجم نصف البيضه مسطحة في الاسفل ومدببة في الاعلى . واما بالنسبة للنيلة المصنوعة في أحمد آباد فكانت بشكل كعكة صغيرة ، ويجب ان نلاحظ بصفة خاصة ان التجار كانوا ينقون شحنات النيلة المرسلة من آسيا الى أوروبا من شوائب التراب والغبار لتجنب تسديد الضرائب على أوزان لالزوم لها ثم يبيعون هذا التراب محلياً لإستخدامه في صناعة الصباغة[٢١]

وفضلاً عن المنسوجات القطنية والسكر والنيلة الخ قامت كجرات بتصدير العقيق الى البلدان الخليجية واستوردت منها اللالىء . ويقول كل من «فارتاما» و«باربوسا» (في بداية القرن السادس عشر) إن حجم التجارة بين كامبى ومنطقة الخليج كان بارزا للغاية[٢٢] ووجد عدد كبير من العرب في كامبى . وجاء العرب بالخيول واللآلىء وأخذوا معهم العقيق والاحجار الكريمة الملونة بشكل الأختام ومقابض السيوف والخناجر والأساور الى سواحل البحر الأحمر ومن هناك جاءوا الى أوربا عن

طريق القاهرة والاسكندرية[٢٣] وتجدر الملاحظة ان الإصطلاح الإنجليزى Agate مبنى على الأصل العربى «عقيق» اى (قاع النهر) مما يدل على إنعكاس العلاقات التجارية القديمة على العلاقات اللغوية والثقافية أيضاً . وكان تجار العقيق قد أسسوا في كامبى نقابات خاصة بهم كانت تسمى «جماعات عقيقية» وحتى يومنا هذا يتداول نفس الإصطلاح بين صفوف منتجي ومصدرى الصناعات العقيقية في كامبي الذين يتعاملون مع افريقيا والبلدان الخليجية[٢٤]

وقد تلقت صناعة العقيق في كامبى في العصور الوسطى دعماً ملحوظاً من التجار العرب الذين اشتروا منتجاتها بالجملة وقاموا بتصديرها للأسواق الأسيوية والأفريقية . وفي أواخر القرن الخامس عشر استوطن مغامر تجارى حبشى اسمه «باب غور» كجرات واسس مصنعاً صغيراً في «رتنبور» في ولاية بروش الهندية بمنطقة «راج بيبلا» وهى منطقة معروفة بمناجم العقيق خاصة بالقرب من قرية «نيمودرا» الواقعة على بعد ١٠كم من «رتنبور» وقام «باب غور» بتشغيل المصنع بالتعاون مع إخوته واخته المسماه «ماى مريم» وقد أسست العائلة مصنعاً آخر للإنتاج في كامبى نظراً لملاءمة موقعها الذى يظهر بوضوح في الخريطة كموقع يقع في وسط المراكز الانتاجية ما بين الشرق الأقصى والملايو وجزر التوابل وما وراءها والصين واليابان من جهة والموانىء العربية والفارسية من جهة أخرى فكان من الطبيعى ان يستوطن باب غور ، وعائلته كامبى . وقبل وفاته كان قد وسع نطاق صلاته التجارية ليشمل البلدان الخليجية العربية والفارسية وكان له كبير الأثر في تطوير صناعة وتجارة العقيق حتى سميت مناجم راج بيبلا ، مناجم بابا غور ، وأصبح شخصية أسطورية وقد بنى معبد تكريما له حيث يؤدى منتجو العقيق حتى اليوم الصلاة ومنهم الهندوس وغيرهم . كما يسمى العقيق الأحمر باسمه التجارى «ماى مريم»[٢٥] وكان منتجو كامبى يقدرون بالإضافة الى العقيق من مناجم «بابا غور» الأحجار شبه الكريمة من كل من البصرة وعدن[٢٦]

ان مصدراً تاريخيا آخر في كجرات ذا اهمية يلقى مزيداً من الضوء على العلاقات التجارية التى كانت قائمة بين التجار العرب وتجار كجرات وهو عبارة عن قصيدة بعنوان «جاكدوشارت» باللغة السانسكريتية كتبها عالم جينى في حوالى ١٣١٩م[٢٧] وفيها يسرد الكاتب سيرة تاجر جينى اسمه جاكدو ذاع صيته في القرن الثالث عشر وانقذ كثيراً من الأرواح اثناء المجاعة التى اجتاحت البلاد من ١٢٥٦م الى ١٢٥٨م وعلى الرغم من ان القصيدة لا تخلو عن المبالغات الا انها تخلو من السخافة مثلما ورد لاحقا في كتابات الكتاب الآخرين . ونظراً لأهميتها بالنسبة للموضوع نستعرض بعض نصوصها السانسكريتية .

كان «جاكدو» طبقاً لنص القصيدة من طائفة الجين من «كاشا» وزار عدن وهرمز كثيراً برفقة مساعده «جايانت سينغ» وكانت سفنه تجوب البحار بين

«بادريشوار» الواقعة على بعد حوالى ٦٠كم من ميناء «ماندا وى» في «كاتش» وكل من عدن وهرمز وكانت السفن تحمل بضائع متنوعة وذات يوم أرسل جاكدو مساعده «جايانت سينغ» الى الميناء الممتاز «عدن» وعقب وصوله هناك قابل تاجراً تركياً من «كامبى» وشاهد التاجر التركى حجراً ثميناً كبيراً في الميناء ونافس «جايانت سينغ» في شرائه لان ضابط الميناء بدأ المساومة حول سعره. وكان جايانت سينغ، مستعداً ليدفع ١٠٠٠ دينار لكن التاجر التركى عرض ٢٠٠٠ دينار وفي المزايدة التى تلت اشترى «جايانت سينغ» الحجر مقابل ٣٠٠,٠٠٠ دينار ومرة سافر «جاكدو» الى عدن حيث أسس فيها سوقاً لبيع سلعه وفى هذه الاثناء اتصل به بعض القراصنه الذين كانوا قد نهبوا سفينة محملة بشحنة شمع واقترحوا عليه شراء السفينة فاشتراها «جاكدو» ورجع بها الى «بادريشوار» ولما أذاب الشمع وجده يحتوى على ٥٠٠ طابوقة ذهبية وهكذا ربح أموالاً طائلة من مجرد صفقة واحدة. وتقول القصيدة ان جاكدو، جمع أرباحاً خيالية من تجارته مع المسلمين في عدن وبنى مسجداً جميلاً في «بادريشوار» باسم «المسجد الخملى»[٢٨]

ان القصيدة المذكورة عن سيرة جاكدو، تشبه قصة الحوريات وقد يرفضها المؤرخ الحديث بسرعة لكنه يجب علينا ان ندرك بأنه بالمقارنة مع العرب والمسلمين المعاصرين كان الهندوس غير مهتمين بالتاريخ او بكلمات أخرى انهم كانوا مقيدين بالنظم الفردية والأسطورية في تفكيرهم[٢٩] ولم يكن المؤرخ الهندوسى يبالى بما اذا كان ملك من الملوك قد حكم ٣٠ سنة او ٣٠,٠٠٠ سنة او أن تاجرا من التجار اشترى أحجاراً كريمة بسعر ٣٠٠٠ دينار او مليون دينار. لذلك يجب علينا ان نلجأ الى الإستنتاجات من تراثهم الأدبى ان كان متاحاً. ولم يكن جاكدو، وحيداً في بناء مسجد بل كان «فاستوبال» هو الثانى في القرن الثالث عشر الذى شيد مسجداً حسبما ورد في «البرابانـدا السانسكريتية»

وتقول المصادر المعاصرة ان حكام السولانكى، كانوا متسامحين نحو الإسلام وشيدت عدة مساجد في المدن كـ «باتان» و«كامبى» و«بروش» وخطب فيها الأئمة غير الهنود والأمر الذى حث «فاستوبال» و«جاكدو» على تشييد المساجد كان روح التسامح التى سادت انذاك وقد يكون للاعتبارات التجارية دور اكبر وراء هذه الظاهرة. ويقول سوميشوار (القرن الثالث عشر) بان «فاستوبال» كان تاجراً كبيراً وفي نفس الوقت مديراً لميناء كامبى. وانه استورد عدداً كبيراً من الخيول وعلينا الا ننسى ان روح التسامح الدينى التى سادت انئذ لم تكن تياراً باتجاه واحد فالمصادر الأوروبية للقرن السابع عشر تقول ان الهندوس بنوا معابدهم في كل من هرمز وجمبرون واصفهان وعدن، وكانت توجد في المدن الموانىء جاليات هندوسية يسميها الاوربيون «جنتوس» و«البانيان» واحتفلت هذه الجاليات بأعيادها مثل «عيد الأنوار» وغيره بحرية تامة[٣٠] والمهم ان المقتضيات لدى التجار والحكام

الذين اهتموا بالتجارة وكان كل من الكجراتيين والعرب حريصين على ان تزدهر موانيهم ومراكزهم التجارية. وقد جاء فيما كتب ماركوبولو في القرن الثالث عشر: ان ملك عدن يملك أموالاً طائلة مكتسبة من نظام الضرائب والرسوم المفروضة على البضائع المستوردة من الهند(٣١)

ان كجرات مدينة للعرب بمعرفتها أساليب صناعة الورق ويفترض على العموم ان كلا من كشمير والبنجاب كانتا من أوائل المناطق التى عرفت المهارات المطلوبة في صناعة الورق من ايران والبلدان المجاورة في القرن السابع عشر ولكن اذا أخذنا بعين الإعتبار العلاقات التجارية والثقافية القائمة بين الكجراتيين والعرب في ضوء الشهادات المتوفرة من المصادر المعاصرة فقد نعيد النظر في صحة هذا الإفتراض. يقول «نيكولاوكونتو» وهو سائح ايطالى زار كجرات في بداية القرن الخامس عشر: «يستخدم سكان كامبى، فقط الورق ويكتب الهنود الآخرون على أوراق الاشجار ويجعلون منها أوراقاً جميلة»(٣٢)

ولقد لقيت الإتصالات بين العرب وكجرات دعما منذ وسط القرن الثامن عشر لأسباب شرحناها آنفا وتعلم العرب اسلوب صناعة الورق من الصينيين في حوالى عام ٧٥٠م وكان للعرب مستوطنة ليس فقط في كامبى، بل في «احمد آباد» أيضاً عقب تأسيس تلك المدينة في عام ١٤١١م على يد السلطان احمد شاه. ويوجد حتى الآن حى في مدينة احمد آباد يسمى «كوشاراب» حيث يعيش فيه أخلاف منتجي الورق وكان هذا الحى مركزاً هاماً لانتاج الورق قبل القرن التاسع عشر وتعتقد أسر «كاجدى» في صحة الإفتراض التقليدى القائل ان العرب أسسوا مستوطنه في «كوشاراب» على ضفة نهر سابارلمتي» وليست كلمة «كوشاراب» الاتحريفا لكلمة «كوجه عرب» اى «حارة العرب» وتقودنا هذه الدلائل الى النتيجة بأن كجرات عرفت صناعة الورق بفضل إتصالاتها بالعرب(٣٣) وان هذا الإجتهاد الفنى كان له اثر طيب في القرن السادس عشر عندما حل الورق المصنوع الحديث محل أوراق الأشجار(٣٤)

ونستنتج مما سبق بأن التعامل المتبادل بين التجار العرب والتجار الكجراتيين استمر دون إنقطاع وكانت صلاتهم التجارية قائمة على منتجات بلادهم من ناحية أخرى اتخذت التجارة صيغ التعامل المتعددة الأطراف مما ساعد في التقارب والتكاتف بين التجار العرب والتجار الكجراتيين مؤدياً الى إستفادتهم المشتركة من النظام التجارى العالمى القائم قبل القرن السادس عشر. ولا ندرى مدى تأثير كجرات على ثقافة العرب ولغتهم ومما لا شك فيه ان كجرات إستفادت من إتصالها بالعرب من نواح عديدة وتعلمت صناعة الورق منهم وساعدت هذه الميزة فقط في إحراز تقدم مفاجىء في نظام الاعلام وتحمل اللغة العربية نفس الدرجة من الاهمية في تأثيرها على كجرات بادخال كلمات ومصطلحات جديدة بل وأساليب التعبير نفسها عبر بضعة قرون. وكانت كجرات مستعدة تماماً لإستيعاب تأثيرات عربية سواء في حقل اللغة أو الثقافة.